

أسلحة الخداع والتشامل

استخدام الدعاية في حرب بوش على العراق



شيلدون رامبتون و جون ستوبر

أسلحة الخداع الشامل

استخدام الدعاية في حرب بوش على العراق

مختار من
www.books4all.net



حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Penguin Group (USA) Inc.

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم

Copyright © 2004 by Arab Scientific Publishers

Original English language edition text Copyright © 2003

by Sheldon Rampton and John Stauber

All rights reserved including the right of reproduction
in whole or in part in any form.

This edition published by arrangement with Jeremy P. Tarcher,
a member of Penguin Group (USA) Inc.

أسلحة الخداع النشأمة

استخدام الدعاية في حرب بوش على العراق

شيلدون رامبتون
و
جون ستوبر

ترجمة:

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربیة للعلوم
Arab Scientific Publishers

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة
تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي.
والتسجيل على أشرطة أو أقراص قرائية أو أي وسيلة نشر أخرى
أو حفظ المعلومات، واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر

ISBN 9953-29-994-3

الطبعة الأولى

1424 هـ - 2004 م

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية للمعلوم
Arab Scientific Publishers

عين التينة، شارع ساقية الجوز، بناية الرم

هاتف: 860138 - 785108 - 785107 (1-961)

فاكس: 786230 (1-961) ص.ب: 5574-13 - بيروت - لبنان

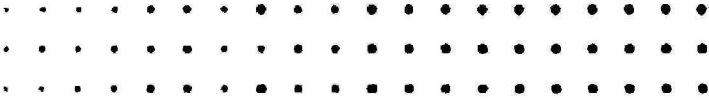
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

للموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

الترجمة: مركز التعريب والترجمة، بيروت - هاتف 811373 (9611)

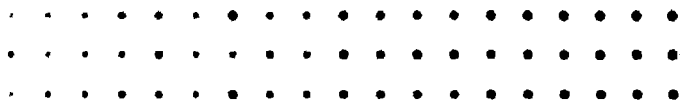
التنضيد وفرز الألوان: أمجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطبعة المتوسط، بيروت - هاتف 811385 (9611)



المحتويات

7	مقدمة: يوم التحرير	
15.....	تسويق الصنف الأمريكي	:1
41.....	الحرب تجارة	:2
67.....	أكاذيب حقيقية	:3
111	الخطاب المزدوج	:4
129	استخدام الخوف	:5
157	حرب الأثير	:6
185	كما يرانا الآخرون	:7
201	هوامش	
235	الفهرس	



مقدمة : يوم التحرير

حين اقتحمت الدبابات الأمريكية بغداد في 9 أبريل/نيسان 2003، استسلم مشاهدو التلفزيون في الولايات المتحدة لمشاعر لحظة الفرح الأولى في الحرب - فرصة الشهادة على إسقاط التمثال العملاق للدكتاتور العراقي صدام حسين.

عند تقليب القنوات الأمريكية أثناء الفطور من فوكس إلى السي إن إن إلى السي بي إس يرى المشاهد نفس الصور التي تُبث بشكل مباشر من ساحة الفريديوس في بغداد. وبالنسبة لأولئك الذين فاتتهم الصور المباشرة في الصباح، أعيد بث المشاهد بشكل مستمر ضمن نشرات أخبار محطات الكابل على مدار اليوم، كما أن الصحف نشرت الصور ملونة على صدر صفحاتها الأولى.

تسلّق حشد من العراقيين المبتهجين التمثال، رموا أنشودة حول رقبة وحاولوا سحبه إلى الأسفل. بدأ رجل بالضرب بمطرقة ثقيلة على قاعدته الخرسانية. تناوب على ذلك آخرون، لكن التمثال كان كبيراً جداً والقاعدة هائلة جداً، لذلك تقدم جنود المارينز الأمريكيون بسيارة مدرعة وسلسلة حديدية. جلب الجنود معهم علماً أمريكياً ومرروه إلى العريف إد شين، الجندي الذي عمل على تثبيت السلسلة حول رقبة صدام. لفّ شين العلم على وجه صدام، لكن تلك البادرة حركت موجة من مشاعر عدم الرضى لدى العراقيين. عُثر على علم عراقي لوضعه بدلاً من العلم الأمريكي. بدأت الرافعة بالسحب، فانتثنى تمثال صدام أولاً من ركيزته، ثم سقط بالكامل، فارتفع زئير الموافقة والاستحسان من الحشد الذي اندفع ليدوس على بقاياها ويرفسه ويبصق على أنقاضه. ارتفعت صيحاتهم، ثم سحبوا رأسه عبر الشارع.

في الشهور التي سبقت الغزو، توقّع المعلقون المؤيدون للحرب بأنّ الشعب العراقي سيرحب بالجنود الأمريكيين كمحررين، وبدا هذا المشهد وكأنه البرهان على أنهم كانوا على حق. وزير الدفاع الأمريكي دونالد رمسفيلد قارن هذا اليوم بانتهاء الستار الحديدي. أعلن رمسفيلد أن «صدام حسين أخذ مكانه الصحيح الآن إلى جانب هتلر، ستالين، لينين، وشاوشيسكو في متحف الدكتاتوريين الوحشيين الفاشلين، والشعب العراقي يسير في طريقه إلى الحرية». سارع المعلقون الإعلاميون أيضاً إلى تعليق مزيد من الأهمية الرمزية على سقوط التمثال، وصنّفه البعض، من حيث الأهمية، إلى جانب سقوط جدار برلين والمواجهة بين المحتجين والدبابات في ساحة تيانانمن والأحداث العظيمة الأخرى التي تم بثها تلفزيونياً.

توم بروكاو مراسل إن بي سي قارن الحدث مع «إنزال جميع تماثيل لينين عبر الإتحاد السوفيتي».

«العراقيون يحتفلون بذلك في بغداد»، قالت صحيفة الواشنطن بوست.

«العراقيون المبتهجون يعجّون في شوارع العاصمة»، قال العنوان البارز في النيويورك تايمز.

«كان يوماً للتحرير في بغداد»، قالت صحيفة البوسطن غلوب.

صحيفة يو أس توداي نشرت صورة الحدث على صفحتها الأولى، مصحوبة بمقابلة مع السيدة كوني أخت العريف إد شين. «الأمر مدهش، نحن فخورون به»، قالت.

مراسل فوكس نيوز ديفيد أسمان استرسل قائلاً «إذا لم تغتنم الفرصة الآن، فلن تسنح لك مرة أخرى في حياتك».

اشتباك المعاني والرموز

لكن كان هناك أيضاً «إسقاطات ذاتية وتفسير متعمد للمعنى» المقصود من الصور، لاحظت البوسطن غلوب⁽¹⁾. «حين تراجعت آلات التصوير إلى الخلف، كشفت وجود حشد صغير نسبياً حول التمثال»، كتب مراسلا البوسطن غلوب ماثيو جليبرت وسوزان رايان⁽²⁾. أظهرت صورة عن بعد التقطتها وكالة رويتر لساحة الفردوس أنّ الساحة كانت خالية تقريباً⁽³⁾، وتبدو محاطة بالدبابات وجنود المارينز الذين تقدموا لإغلاق الساحة قبل السماح للعراقيين بولوجها⁽⁴⁾. كما أن سلسلة من الصور التقطتها محطة بي بي سي لعملية إسقاط التمثال تُظهر أيضاً حشداً متناثراً يتكون من 200 شخص تقريباً – وهو حشد أصغر بكثير من المظاهرات التي انطلقت بعد تسعة أيام فقط، عندما خرج آلاف العراقيين إلى شوارع بغداد مطالبين القوات الأمريكية بمغادرة المدينة⁽⁵⁾. مراسل لوس أنجلوس تايمز جون دانيزويسكي المتواجد في مسرح الأحداث لمشاهدة سقوط التمثال، التقط جانباً من الحدث ذلك اليوم غاب عن كثير من المراسلين. أكثرية العراقيين كانوا في الحقيقة مسرورين لرؤية صدام وهو يسقط، كتب في تقريره، لكنّه تحدث مع رجل أعمال عراقي

كان متواجداً بالقرب من مسرح الحدث، حيث حذر الأمريكيين بأن لا تخذعهم الصور التي كانوا يرونها.

«الكثير من الناس غاضبون من أمريكا»، قال رجل الأعمال. «أنظر كم من الناس قتلوا. اليوم رأيت بعض الناس يحطمون هذا النصب، لكن كان هناك أناس آخرون - رجال ونساء - وقفوا هناك وقالوا بالعربية: تسقط أمريكا، يسقط بوش. لذلك، هذه ليست حالة بسيطة»⁽⁶⁾.

إنّ الصور البصرية، بالطبع، هي أكثر ما سيتذكره الناس. معظم الأمريكيين، بما في ذلك الـ 300 ألف جندي الذين خاطروا بحياتهم بإخلاص وصدق اعتقدوا بأنّ «عملية تحرير العراق» كانت قضية نبيلة وأنّهم كانوا يساعدون على جعل العالم مكاناً أفضل وأكثر أماناً لهم ولمن يحبون. لكن الأمر يستدعي طرح السؤال فيما إذا كان إسقاط تمثال صدام قد حدث بشكل تلقائي كما أريد له أن يبدو. إذا بدا هذا المشهد وكأنه أشبه بصورة مثالية متقنة الصنع، فربما كان هناك سبب. خذ، على سبيل المثال، الملاحظات التي أبدتها مستشار العلاقات العامة جون ديليو ريندون - الذي عمل على نطاق واسع على المشاريع ذات العلاقة بالعراق أثناء العقد الماضي نيابة عن زبائن من ضمنهم وزارة الدفاع الأمريكية ووكالة المخابرات المركزية - في 29 فبراير/شباط 1996 أمام جمهور الطلبة العسكريين في أكاديمية القوات الجوية الأمريكية.

«أنا لست متخصصاً إستراتيجياً في الأمن القومي أو خبير تكتيك عسكري»، قال ريندون. «أنا سياسي، وشخص يستعمل الاتصال والعلاقات العامة لتحقيق السياسة العامة أو أهداف السياسة الخارجية. في الحقيقة، أنا محارب معلوماتي ومدير فهم وإدراك»⁽⁷⁾. وقد ذكر طلاب أكاديمية القوات الجوية أنه عندما دخلت القوات المنتصرة إلى مدينة الكويت في نهاية حرب الخليج الأولى، استُقبلت بالترحيب من مئات الكويتيين الذين يلوّحون بالأعلام

الأمريكية الصغيرة. المشهد، الذي شغّ على شاشات التلفزيون في مختلف أنحاء العالم، أوصل الرسالة التي تفيد بأن جنود المارينز تم الترحيب بهم في الكويت كأبطال محرّرين.

«هل توقّفت لحظة لتتساءل»، سأل ريندون، «كيف استطاع سكان مدينة الكويت، بعد أن وقعوا رهينة الاحتلال لسبعة أشهر طويلة ومؤلة، أن يحصلوا على الأعلام الأمريكية اليدوية الصغيرة، وغيرها من أعلام الدول الأخرى المشاركة في التحالف؟» ثم توقّف عن الكلام للتأثير. «حسناً، أنت تعرف الجواب الآن. إذن، تلك كانت إحدى وظائفني»⁽⁸⁾.

بالطبع، ليست لدينا وسيلة لمعرفة ما إذا كان ريندون أو أي اختصاصي آخر في العلاقات العامة قد ساعد في الحصول على التأثير المطلوب من إسقاط تمثال صدام حسين أو غير ذلك من الصور المعينة الأخرى التي شاهدها الرأي العام أثناء الحرب على العراق. شركات العلاقات العامة تقوم، في أغلب الأحيان، بإنجاز أعمالها خلف الكواليس، وريندون - الذي وقّعت معه وزارة الدفاع الأمريكية اتفاقية جديدة في فبراير/شباط 2000 - كان كتوماً جداً حول الحديث عن عمله علناً. لكن وصفه لنفسه كـ«مدير فهم وإدراك» يعكس لغة مخطّطي وزارة الدفاع الأمريكية، التي تُعرّف «إدارة الفهم والإدراك» باعتبارها «أعمالاً تهدف لإيصال (أو) إنكار معلومات ومؤشرات مختارة إلى المشاهدين الأجانب للتأثير على عواطفهم، دوافعهم، وموضوعية تفكيرهم... وبطرق مختلفة، تدمج إدارة الفهم والإدراك بين تحريف الحقيقة، أمن العمليات، السرية، والتضليل، و[العمليات النفسية]»⁽⁹⁾.

التناقض في الحرب الأمريكية على العراق، على أية حال، أظهر أنّ إدارة الفهم والإدراك كانت ناجحة أكثر بكثير في «التأثير» على «العواطف، الدوافع، والتفكير الموضوعي» للشعب الأمريكي بدلاً من نجاحها في الوصول إلى «المشاهدون الأجانب». عندما نشاهد صور الكويتيين الذين يلوّحون

بالأعلام الأمريكية أو العراقيين الذين يهتفون فرحاً أثناء قيام جنود المارينز بإسقاط تمثال صدام حسين، يجب أن يفهم بأن هذه الصور تستهدف المشاهدين الأمريكيين بنفس المقدار، إن لم يكن أكثر، من استهداف مواطني الكويت أو العراق. أثناء «عملية تحرير العراق»، تغلبت القوة العسكرية الأمريكية على الجيش العراقي بسهولة، لكن في المعركة الحاسمة للسيطرة على القلوب والعقول في أنحاء العالم، خسرت أمريكا خسارة فادحة. في 18 مارس/آذار 2003، نشر «مركز أبحاث «بيو» للناس والصحافة» استطلاعاً للرأي يُظهر أين يقف الرأي العام العالمي بعد شن الحرب على العراق. الإحصائيات والمؤشرات المقلقة بدأت بالظهور حتى في البلدان التي كانت تعتبر حليفة لأمريكا منذ مدة طويلة. منذ بداية عام 2002، تدنت النسبة المئوية للفرنسيين الذين يحملون وجهة نظر مؤيدة للولايات المتحدة من 63 إلى 13. في إيطاليا هبطت النسبة المئوية من 70 إلى 34؛ في روسيا من 61 إلى 28؛ في تركيا من 30 إلى 12. حتى في إنجلترا، 48 بالمائة من السكان فقط يحملون وجهة نظر مساندة للولايات المتحدة، بالمقارنة مع نسبة 75 بالمائة في السنة السابقة⁽¹⁰⁾.

في العراق نفسه، علاوة على ذلك، أصبح واضحاً بعد أيام من إسقاط تمثال صدام حسين، أنه بالرغم من أن الشعب العراقي رحّب بشدة بسقوط الدكتاتور، إلا أنه لم يكن مثلهافاً لإلقاء باقات الورود على الجنود الأمريكيين كما أوحى بذلك المشهد المنقول من ساحة الفردوس. في مدينة النجف المقدسة، اغتال حشد غاضب من الناس رجل دين مسلم عُرف بعلاقته الودية جداً مع أمريكا⁽¹¹⁾. في الناصرية، تجمّع حوالي 20 ألف شخص للتعبير عن معارضتهم للوجود العسكري الأمريكي، وذلك في 15 أبريل/نيسان، بعد ستة أيام فقط من إسقاط تمثال صدام. «نعم للحرية، نعم للإسلام»، هتفوا. «لا لأمريكا، لا لصدام»⁽¹²⁾. كما هتف متظاهرون في مسيرات أخرى «لا، لا

للجلبي» معبرين عن معارضتهم لأحمد الجلبي رئيس المؤتمر الوطني العراقي الذي تدعمه الولايات المتحدة⁽¹³⁾. مجلة نيوزويك أجرت مقابلة مع ضابط أمريكي برتبة عالية حيث قال بأنه ذهل حين بدأ بالتحدث مع العراقيين، حتى السكان المحليين المعارضين لصادام، حول مصداقية الجلبي. «من المدهش أن يكون لديه هكذا مستوى ضعيف من الدعم»، قال الضابط. «أخشى أننا أسأنا الاختيار»⁽¹⁴⁾.

الحقيقة ضائعة، بالطبع، خصوصاً إثر حرب، وهذه التطورات لا تشير بالضرورة إلى أن نذر الكارثة تلوح في الأفق حيث تحاول الولايات المتحدة التغلب على التوتّر الناجم عن احتلال العراق عسكرياً والتصرف كمحرر لذلك البلد. وتلك المؤشرات، على أية حال، تشير إلى أن الحالة معقّدة أكثر بكثير مما توحى به صور النصر التي بدت ملهمة على شاشات التلفزيون الأمريكي. لذلك، من المهم أن نسأل أنفسنا ما الذي يكمن وراء تلك الصور، كيف تم تكوينها، وما الذي قد تخفيه.

1. تسويق الصنف الأمريكي

إثر الهجمات الإرهابية التي حدثت في 11 سبتمبر/أيلول 2001، أحسّ الأمريكيون بالرعب والغضب والدهشة التامة. «أنا مندهش من وجود مثل سوء الفهم هذا حول طبيعة بلادنا مما يجعل الناس يكرهونا»، قال الرئيس بوش. «يجب أن نقوم بعمل أفضل لشرح قضيتنا»⁽¹⁾. عضو الكونجرس توم لانتوس كافح لفهم لماذا «ينزّ سَمّ الحقد الأبيض» من بلدان مثل أندونيسيا وباكستان، وهما «دولتان ساعدناهما كثيراً منذ أن نالتا استقلالهما»⁽²⁾. عضو الكونجرس من إلينوي هنري هايد تساعّل لماذا «تصف الصحافة الشعبية فيما وراء البحار، ومن ضمنها في أغلب الأحيان وسائل الإعلام المملوكة من قبل الحكومات، الولايات المتحدة يومياً كقوة شريرة»⁽³⁾.

بعد الاعتقاد أن الجواب يكمن في مزيد من «الدبلوماسية العامة» (تعبير حكومي يعني «العلاقات العامة»)⁽⁴⁾ تبنّى لانتوس وهايد قرار الكونجرس رقم

3969، المعروف أيضاً باسم «قانون تعزيز الحرية لعام 2002»، والذي طالب وزير الخارجية الأمريكي «بجعل الدبلوماسية العامة جزءاً لا يتجزأ من تخطيط وتنفيذ السياسة الخارجية الأمريكية» وبضرورة تأسيس «برامج دعائية وإعلامية متفوقة مع القدرة على نشرها وتوزيعها بمختلف الوسائل، بما في ذلك الأقمار الاصطناعية، الإنترنت، وغير ذلك من الوسائل، وبحيث تتضمن تلك البرامج القدرة على تمويل وإنتاج التسجيلات الصوتية وتسجيلات الفيديو ونشرات الإنترنت وبثها إلى وكالات الأنباء الأجنبية». وذلك بالإضافة إلى تبني ودعم اتفاقيات التبادل الثقافي وبرامج تدريب الصحفيين الأجانب، وقد خصص القانون مبلغ 135 مليون دولار لبت برامج تلفزيونية تدعم أمريكا وتكون موجهة نحو الشرق الأوسط⁽⁵⁾.

بعض النصائح المقدمة لإدارة بوش جاءت من جاك ليزلي، رئيس شركة «ويبير ساندويك حول العالم»، وهي إحدى أكبر شركات العلاقات العامة في العالم⁽⁶⁾. اقترح ليزلي أن تتبنى الولايات المتحدة نسخة العلاقات العامة مما سمي «مذهب باول» الذي يقول باستعمال «القوة الساحقة» كاستراتيجية في علاقاتها: «يجب عدم استثناء أي وسيلة»، قال ليزلي. «أذاعت محطة سي إن إن مؤخراً تحقيقاً حول لعبة فيديو مؤيدة لبن لادن حازت على شعبية واسعة في العديد من البلدان الإسلامية. وسواء اعتمدنا على ألعاب الفيديو الخاصة بنا، أو استعملنا الإعلانات التجارية، الإنترنت، أو الملصقات أو الكراريس والنشرات - سمّ ما شئت، كلّ أسلوب تكتيكي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار إذا كان يساعد على إيصال الرسالة المناسبة إلى الأهداف الصحيحة بطريقة تتصف بالمصادقية.... إذا قمنا بتلك الأشياء، وإذا التزمنا باستعمال القوة الساحقة مع امتلاك الأهداف والغايات الواضحة، إذا كان لدينا تخطيط مركزي وتسلسل قيادي، إذا وضعنا يدنا على أفضل العقول المبدعة هنا وفي الخارج، إذا أظهرنا الرغبة باستخدام الأصوات والوسائل الإبداعية والأبحاث

الصالحة، إذأ أنا أعتقد أن رسالة أمريكا ستكون مسموعة»⁽⁷⁾.

بعد عشر أيام من 11 سبتمبر/أيلول، ذكرت صحيفة وول ستريت جورنال بأن الولايات المتحدة شرعت في إطلاق حملتين إعلانيّتين منفصلتين. الحملة الأولى، التي تتضمن تصويراً للسيدة الأولى لورا بوش، قصد منها تقوية الروح المعنوية المحلية من خلال التأكيد بأن الحياة تستمر كما كانت قبل الهجمات. الحملة الثانية، التي ورّعت على الشبكات من خلال «مجلس الإعلان»، ركّزت على إبراز الفكرة التي تقول إن الولايات المتحدة أمة متسامحة عرقياً حيث أن الناس من الخلفيات العرقية والدينية المختلفة يعيشون معاً بسلام⁽⁸⁾.

أثناء الفترة بين 9/11 وبداية الحرب في أفغانستان، أسست الولايات المتحدة مكاتب اتصال «للردّ الفوري» في واشنطن ولندن وإسلام آباد في الباكستان، مع تعيين مسؤولين كبار من الإدارة في تلك المكاتب مهمتهم التحدث بانتظام مع وسائل الإعلام العربية. صحيفة الـ وول ستريت جورنال ذكرت أن «المسؤولين الأمريكيين بذلوا جهوداً لإقناع المحرّرين والمذيعين المحليين في منطقتي جنوب آسيا والشرق الأوسط بنشر وبث التحقيقات والأخبار التي تهدف إلى تسكين وتهذئة المشاعر المعادية لأمريكا وكسب التأييد للعمل العسكري. والأخبار التي طُلب نشرها تتضمن عرض والتأكيد على أهمية المسلمين في الحياة الأمريكية، بالإضافة إلى نشر التقارير والأخبار التي تُشدد على الدليل الذي يربط السيّد بن لادن بالهجمات». كما أن تلك الجهود تتضمن أيضاً «إرسال القوات اللازمة لتصعيد العمليات النفسية، أو "الحرب النفسية" داخل أفغانستان. وستكون تلك القوات مجهزة بحيث تستطيع بث الرسائل الإذاعية وتوزيع النشرات والإعلانات المطبوعة بهدف بث الفرقة في صفوف ميليشيا طالبان والتشجيع على انتفاضة شعبية واسعة النطاق ضد طالبان»⁽⁹⁾.

في ذلك الشهر نفسه، عُيِّنت المديرية السابقة في مجال شركات الإعلان شارلوت بيرز مسؤولة في وزارة الخارجية لشؤون الدبلوماسية العامة. ضمن صناعة الإعلان، تُعتبر بيرز شخصية أسطورية وهي معروفة باسم «ملكة ماديسن أفنيو»⁽¹⁰⁾ وقبل تقاعدها عام 2000، كانت قد احتلت منصب المدير التنفيذي والرئيس في اثنتين من بين أكبر عشر وكالات إعلانية في العالم، وهما «جي. والتر تومسن» و«أوغيلفي أند ماذير». صحيفة نيويورك تايمز قالت أن بيرز كانت «تخطّط لإطلاق حملة تلفزيونية وإعلانية في محاولة للتأثير على الرأي العام الإسلامي؛ ويمكن لأحد أجزاء الحملة أن يتضمن عرضاً لمشاهير أمريكا، بما في ذلك نجوم الألعاب الرياضية، بالإضافة إلى رسالة أكثر عاطفية»⁽¹¹⁾. وفي مقابلة مع مجلة أدفرتايزنغ إيج، قالت بيرز إن الدبلوماسية العامة «ذراع حيوي جديد في جهود مكافحة الإرهاب مع مرور الوقت. فجأة، وجدنا أنفسنا في هذا الوضع الذي يتطلب إعادة تعريف أمريكا، ليس فقط بالنسبة لأنفسنا ونحن تحت وقع هذا النوع من الهجمات، بل أيضاً بالنسبة للعالم الخارجي»⁽¹²⁾.

وقد ذكرت مجلة أدفرتايزنغ إيج أن بيرز كانت تنشُد المساعدة على تطوير حملتها من «مجلس الإعلان»، وهو منظمة لا ربحية تجمع بين الحكومة، أجهزة الإعلام، جهات الدعم والرعاية، وصناعة الإعلان. ومجلس الإعلان الذي كان يُعرف أصلاً باسم «مجلس الإعلان الحربي» بعد القصف الياباني لبيرل هاربور، ابتكر الحملات الدعائية التي تشجّع الناس في الولايات المتحدة على الاقتراع والإدلاء بأصواتهم في الانتخابات واستعمال الرموز البريدية والمشاركة في إحصاء السكان والانضمام إلى الحرس الوطني وقوات الاحتياط. وقد ابتدع وقَدِّم رموزاً مألوفة في الوعي الأمريكي بما في ذلك الدب «سموكي»، كلب الجريمة «ماكغروف»، ودمى اختبار الحوادث والتحطم، كما أضاف شعارات بارزة إلى مفرداتنا من ضمنها «الأصدقاء لا يتركون

أصدقاءهم يقودون مخمورين» وشعار صندوق تمويل كلية الزواج «العقل شيء أثنى من أن نهدره». تجربته في الدعاية ما وراء البحار، على أية حال، محدودة. وفيما يتعلق بتعاونه مع بيرز، قالت مجلة أدفرتايزنغ إيج إن «مجلس الإعلان» اختزل رسالتها إلى فكرة إستراتيجية واحدة: الحرية»⁽¹³⁾.

محطة «صوت أمريكا» زادت بشكل مثير موادها المذاعة بالعربية، الدارية، البشتية، الفارسية، والأوردية،⁽¹⁴⁾ لكنها كانت تعاني صعوبات جمة في الوصول إلى الفئات الحاسمة من السكان العرب والمسلمين في الشرق الأوسط. «ليس لدينا تقريباً جمهور من الشباب تحت سن 25 في العالم العربي ونحن قلقون من أن... هذا القطاع المهم من السكان لديه ريبة وشكوك هائلة حول الولايات المتحدة»، قال مارك ناثنسون الناطق باسم «مجلس المحافظين»، وهو الهيئة التي تشرف على عمليات البث الإذاعي الدولي العام في الولايات المتحدة.⁽¹⁵⁾

منذ البداية تقريباً، في الحقيقة حتى قبل أن تبدأ القنابل بالسقوط على أفغانستان، بدا أن الهجوم الدعائي الأمريكي الخاطف مقدّر له الفشل في العالم الإسلامي، لنفس الأسباب تقريباً التي جعلت مذهب باول القائل باستخدام «القوة الساحقة» ناجحاً جداً كإستراتيجية عسكرية، فالقصف قد ينجح في تحطيم أو بعثرة جنود العدو، لكن قصف الخطابات يمكن أن يزعج ويهين كراماتهم ومعنوياتهم. «لا يمكن لأي مقدار من الإدارة والجهود الإعلامية أن تؤثر في هذا الواقع إذا لم تبصر أمريكا - وفي الحقيقة تعمل على - إيجاد الطرق المناسبة لحلّ بعض النزاعات المستعصية التي تغذي التعصب ومشاعر العداء لأمريكا في كافة أنحاء الدول العربية والإسلامية»، قال لبي ماكناي، مدير مركز إدوارد آر. مورّو في كلية فليتشر للقانون والدبلوماسية في جامعة تافتس. «لا يمكننا إقناع أحد بأننا على حق إذا لم نفهم وجهة نظرهم»، قال ماكناي.⁽¹⁶⁾

على النقيض مما يبدو أن هنري هايد والرئيس بوش يؤمنان به، لا شيء جديد في الفكرة القائلة أن التسويق الأفضل سيساعد على تحسين صورة الولايات المتحدة في «البلدان التي تكرهنا». هذه الفكرة جُرِّبَتْ في الماضي، وقد فشلت فشلاً ذريعاً، وذلك للأسباب العديدة نفسها التي تُسبِّب فشلها حالياً. خلال النصف الأخير من القرن العشرين - ومؤخراً أيضاً، كما سنتبين بعد قليل حين ندقق أكثر في تراث وتجربة شارلوت بيرز - اصطدمت المحاولات لتسويق الولايات المتحدة باعتبارها «علامة حرة» مع الميل الأمريكي للكلام بدلاً من الاستماع، بالإضافة إلى الدعم الأمريكي لأنظمة غير ديموقراطية أهدافها السياسية تتناقض مع مبادئ أمريكا المنصوص عليها في الدستور.

كان ذلك في الماضي، وهذا هو الحاضر

شنت الولايات المتحدة في البداية حملة دعائية شاملة في الشرق الأوسط في عهد إدارتي ترومان وأيزنهاور، حين كانت الولايات المتحدة تُكثِّف جهودها لدمج المنطقة في التحالف الدولي المضاد للاتحاد السوفيتي. وبالإضافة إلى إبقاء السيطرة الغربية على مصادر النفط، شعر المخططون الأمريكيون بالقلق من تصاعد المد القومي العربية المتمثل بنظام جمال عبد الناصر في مصر وبالتعاطف الذي يبديه العرب نحو الدول المتحررة حديثاً من الاستعمار، وهي دول تؤيد في معظمها الاتحاد السوفييتي - وهذا التعاطف يغذي مشاعر العداء للغرب ومقاومة إسرائيل.

«أرشيف الأمن القومي»، وهي مؤسسة لا ربحية تنشر الوثائق الحكومية الأمريكية المصنَّفة ضمن الوثائق المرفوع عنها السرية، جمعت «كتاباً إلكترونياً موجزاً»، حرَّره محلَّة أرشيف الأمن القومي جويس باتل، وقد احتوى على تفاصيل العديد من النشاطات الدعائية الأمريكية المبكِّرة في الشرق الأوسط، ابتداءً من الخمسينات. وتقريرها المذكور يسرد تفاصيل

محاولات التأثير على الرأي العام العربي باستعمال مختلف الطرق بما في ذلك الكتب، الأفلام، الأقلام الإخبارية، الكتيبات الدعائية، الملصقات، المجلات، الراديو، الموسيقى، المدارس، المكتبات العامة، الاتصال الشخصي المتبادل والنداءات الدينية.⁽¹⁷⁾ يقول تقرير لمجلس الأمن القومي الأمريكي عام 1952 إن برامج المساعدات يجب أن تُصمّم لإنجاز الأهداف «النفسية». قدمت الولايات المتحدة تمويلاً سرياً للعديد من المجالات في إيران والعراق، وسيطرت على محتوياتها ودسّت فيها مواداً معادية بشدة وبشكل مباشر للاتحاد السوفييتي.⁽¹⁸⁾ في إيران، خطّطت السفارة الأمريكية لنشر الكتب حول التاريخ المعاصر والفلسفة السياسية والقصص الخيالية، مع التشديد على نشر تلك الكتب بحيث «تحمل تلك المنشورات اسم الناشر وليس لها أية صلة واضحة بالسفارة».⁽¹⁹⁾ تم الاتصال بوالث ديزني لمعرفة ما إذا كان مستعداً، «كواجب وطني الاهتمام بإعداد فيلم يمكن أن يستعمل للدفاع عن الديمقراطية».⁽²⁰⁾ حتى أن موظفي السفارة في العراق باشروا بكتابة سيناريو فيلم الرسوم المتحركة الخاصة بهم، وبطله دبّ مخيف (يمثل الاتحاد السوفيتي) يهدّد الإنسان البدائي.⁽²¹⁾ بعض الملصقات التي نشرتها دائرة الخدمات المعلوماتية الأمريكية أظهرت «خنزيراً شراً أحمر» ذيله على شكل شعار المطرقة والمنجل الشيوعي.⁽²²⁾

حتى في الخمسينات، واجهت جهود الدعاية الأمريكية مشاكل ناجمة عن تناقضاتها الخاصة. في المملكة العربية السعودية، لاحظ السفير الأمريكي أن مواد الدعاية الأمريكية كانت تحمل «هدفاً مزدوجاً من حيث الترويج والتشجيع على قيام حكومة ديمقراطية من ناحية، ومن ناحية أخرى إبراز أخطار الشيوعية على الآخرين». على أية حال، باعتبار أن نظام الحكم في المملكة العربية السعودية هو نظام ملكي، فلا يمكن لأحد أن يتوقع أن ترحب حكومتها بالجزء الأول من الدعاية.⁽²³⁾ وقد نصحت السفارة بعدم استفزاز

السعودية، وذلك من أجل الحصول على التعاون السعودي عالمياً و«حماية الاستثمارات النفطية الأمريكية».⁽²⁴⁾ وفي البلدان الأخرى أيضاً، تناقضت الجهود الأمريكية الرامية إلى الترويج للديمقراطية مع علاقات الحكومة الأمريكية بالأنظمة القمعية.

في بعض الأحيان، ساعد الدعم الأمريكي لجهود الدعاية المضادة للشيوعية في الواقع على تغذية المشاعر المعادية لإسرائيل وأمريكا حيث أرادت الأنظمة الاستبدادية في المنطقة استغلال تلك الدعاية لأغراضها الدعائية الخاصة. في العراق، دعمت أمريكا برنامجاً مضاداً للشيوعية ركّز على المدارس والجامعات. وقد ساعدت دائرة الخدمات المعلوماتية الأمريكية النظام العراقي القائم آنذاك على نشر رسالة معادية للشيوعية عبر الزعم بوجود «صلات بين الشيوعية والصهيونية»، وهو أمر يعكس «شعور المدير العام للدعاية بأن هذا الأسلوب هو الأفضل لمواجهة الشيوعية».⁽²⁵⁾ وقد لاحظت مذكرة صادرة عن سفارة الولايات المتحدة في بغداد، على أية حال، أنه باعتبار أن «دعم الصهيونية مرتبط أيضاً في أذهان الناس بالولايات المتحدة فيمكن لهذه الحملة أن تخلق موقفاً أشبه بنوع من 'الطاعون المتوازن الذي يصيب الجانبين' ويمكن أن تثير، في نفس الوقت، عداء متزايداً ضد الولايات المتحدة».⁽²⁶⁾ نشر الطلاب المعادون للشيوعية عقيدة حزب البعث القومية العربية بين ضباط الجيش، الذين أصبحوا فيما بعد نواة الحزب السياسي المهيمن على البلاد تحت قيادة صدام حسين.⁽²⁷⁾

التناقض بين الخطاب والواقع ظلّ نمطاً سائداً خلال العقود اللاحقة من تاريخ التدخل الأمريكي في الشرق الأوسط. شاه إيران وصل إلى السلطة عام 1953 حين دعمت وكالة المخابرات المركزية انقلاباً أطاح بمحمد مصدق، الرئيس المنتخب ديموقراطياً والذي أراد تأميم النفط الإيراني.⁽²⁸⁾ في السبعينات، أعلن جيمي كارتر تجديد التزام أمريكا بحقوق الإنسان وأدان

الانتهاكات السوفيتية لتلك الحقوق، وأبقى، في الوقت نفسه، على الدعم الأمريكي لشاه إيران، على الرغم من سجلّ الشاه الحافل فيما يتعلق بانتهاك حقوق الإنسان. في الحقيقة، تسارعت وتزايدت في عهد إدارة كارتر مبيعات الأسلحة الأمريكية إلى إيران، وقد أعاد كارتر تأكيد ثقته الشخصية بالشاه من خلال الزيارات الرسمية وإطراء إيران علناً باعتبارها «جزيرة استقرار في إحدى أكثر مناطق العالم اضطراباً» ووصفه للشاه بأنه الزعيم العظيم الذي كسب «احترام وإعجاب وحبّ» شعبه.⁽²⁹⁾ وكما ذكرت منظمة العفو الدولية في ذلك الوقت، احتلت إيران في عهد الشاه «المرتبة العليا في العالم من حيث تنفيذ عقوبة الإعدام، مع عدم وجود نظام صحيح في المحاكم المدنية وتاريخ طويل من عمليات التعذيب التي لا تُصدّق. لا يوجد بلد في العالم له سجل أسوأ من سجلّ إيران في مجال حقوق الإنسان».⁽³⁰⁾

العسكرة والفساد ووحشية نظام الشاه أدّت جميعاً إلى قيام ثورة إسلامية مسلحة جذرية في عدائها لأمريكا. وحين استولى طلاب إيرانيون على سفارة الولايات المتحدة واحتجزوا 52 رهينة من موظفي السفارة لأكثر من عام من الزمن، كان ردّ الفعل في الولايات المتحدة مثيراً. محطات التلفزيون والصحف ركّزت على مسرحية «احتجاز أمريكا كرهينة». شعار «اضرب إيران بالقنبلة النووية» ظهر على القمصان ولاصقات زجاج السيارات، ووضع الناس أشرطة صفراء تعبيراً عن الدعم الرمزي للرهائن. آية الله الخميني، زعيم إيران الإسلامي، شوّهت سمعته في الصحافة الشعبية، تقريباً بنفس الطريقة التي شوّهت فيها سمعة صدام حسين في التسعينيات. ثمّ، كما هو حاصل الآن، أظهر السياسيون الأمريكيون والصحافة نسياناً مدهشاً للتاريخ. وإذا كان مصدر معلوماتك الوحيد هو محطات التلفزة الأمريكية، فستنزلق إلى الاعتقاد بأنّ معاناة الرهائن كانت أسوأ شيء حدث على الإطلاق لأي إنسان في إيران وأنّ الحكومة الأمريكية كان لديها تاريخ طويل ونبل من التصرف

النموذجي في الشرق الأوسط. وفي الحقيقة، ذلك بالضبط ما يعتقد الكثير من الأمريكيين إلى يومنا هذا.

بعد عدة عقود من إعلان ولادة الشيوعية، أمّ كلّ الشرور، بدأت الولايات المتحدة في الثمانينات بالتعامل مع جيش صدام حسين الهائل المجهّز بأسلحة سوفيتية كحاجز صدّ في وجه أصوليّة إيران الإسلامية. هزم رونالد ريغان جيمي كارتر في حملة 1980 الرئاسية ودعم العراق عندما حاول السيطرة على شطّ العرب على رأس الخليج الفارسي، وهو قناة مهمة للصادرات النفطية بالنسبة لكلا البلدين.⁽³¹⁾ نتيجة الحرب العراقية-الإيرانية، التي امتدت من 1980 إلى 1988، كانت سقوط مليون قتيل تقريباً وضرر اقتصادي هائل وقع على كلا البلدين. حين بدا وكأنّ إيران على وشك كسب الحرب، قرر ريغان تجهيز جيش صدام سرّاً وتزويده بمعلومات استخباراتية عسكرية تكتيكية، بالإضافة إلى التكنولوجيا التي استخدمها العراق لإنتاج المواد الكيميائية والأسلحة البيولوجية.⁽³²⁾

بالرغم من أن عدداً هائلاً من الكلمات كُتب عن العراق منذ صيف 1992، إلا أنك تستطيع أن تبحث بجد واجتهاد وستجد القليل جداً من الإشارات الراهنة في السيل الإعلامي المتدفق إلى الأفكار والتصريحات التي أدلى بها صانعو السياسة ورجال الإعلام الأمريكيون حول العراق في الثمانينات أثناء احتدام الحرب العراقية-الإيرانية. في 30 ديسمبر/كانون الأول 2002، شكّل تحقيق كتبه مراسل واشنطن بوست مايكل دويس أحد الاستثناءات النادرة. راجع دويس آلاف الوثائق الحكومية المنشورة فلاحظ أن «المسؤولين الأمريكيين رأوا في بغداد حصناً ضدّ الحركات الشيعية المتطرّفة وأن سقوط دول حليفة للولايات الأمريكية مثل الكويت، المملكة العربية السعودية، وحتى الأردن سيؤدي إلى إطلاق النسخة الشرق أوسطية من 'نظرية الدومينو' في جنوب شرق آسيا. كان ذلك كافياً لكي يتحوّل صدام حسين إلى شريك

إستراتيجي ولكي يُشير الدبلوماسيون الأمريكيون في بغداد بشكل دوري إلى القوات العراقية بمصطلح «الرجال الأخيار»، وذلك بالمقارنة مع الإيرانيين، الذين صُوِّروا على أنهم «الرجال الأشرار»... إداراتا رونالد ريغان وجورج إتش. دبليو بوش سمحتا ببيع الكثير من المعدات المدنية والعسكرية للعراق، بما في ذلك المواد الكيميائية السامة والجراثيم البيولوجية القاتلة، مثل الجمرّة الخبيثة والطاعون».⁽³³⁾

الدعم الأمريكي للعراق استمرّ، علاوة على ذلك، حتى بعد استلام وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز لتقرير استخباري من محلّ وزارة الخارجية جوناثان تي. هاو يؤكد بأنّ القوّات العراقية كانت تلجأ «بشكل يومي تقريباً إلى استعمال» الأسلحة الكيميائية ضدّ الإيرانيين.⁽³⁴⁾ لذلك كانت إدارة ريغان مسرورة من دور العراق في صدّ الحشود الإيرانية، وقد أوفد دونالد إتش. رمسفيلد إلى العراق عام 1983 كمبعوث خاص إلى الشرق الأوسط حيث صافح صدام، وتعهّد بأنّ الولايات المتّحدة تعتبر «أن أيّ مسّ بثروات العراق هو بمثابة الهزيمة الاستراتيجية للغرب»، وقال أنّ واشنطن كانت جاهزة لاستئناف العلاقات الدبلوماسية الكاملة بين البلدين.⁽³⁵⁾

سيكون من قبيل التبسيط الشديد القول أن إدارة ريغان لم تُبد أي قلق مطلقاً من استعمال صدام للأسلحة الكيميائية. بل هي أبدت قلقها من ذلك. وفيما يلي ما جاء في البيان الصحفي لوزارة الخارجية في 5 مارس/آذار 1984:

تدين الولايات المتحدة بقوة الاستعمال الممنوع للأسلحة الكيميائية حيثما حدث.⁽³⁶⁾

بالطبع هذه إدانة شفوية لم تعن أبداً أنّ أيّ شيء سيُتخذ بشأنها، مثل العقوبات أو التراجع عن سياسة أمريكا في دعم العراق. الناطق باسم وزارة الخارجية جون هيوز، الذي ألقى البيان، أضاف بأنّ الولايات المتّحدة «تجد

أن الرفض العنيد للنظام الإيراني الحالي للتراجع عن هدفه المعلن في إزالة الحكومة الشرعية في العراق المجاور يتناقض مع المعايير المقبولة للسلوك بين الأمم». (37)

بكلمات أخرى، حين ثبت أن صدام بدأ بتسميم الناس بالغاز بالفعل، اعتُبرت حكومته «شرعية»، ومحاولة إيران لإنجاز ما تسعى إدارة بوش الحالية إليه من حيث «تغيير النظام» اعتُبرت «متناقضة مع المعايير المقبولة للسلوك بين الأمم».

بيانات مماثلة صدرت عن الصحف الأمريكية الرئيسية. «بشكل خاص، بعض المسؤولين كانوا أقل قسوة على العراقيين»، لاحظ تعليق واشنطن بوست على البيان الصحفي لإدارة ريغان الصادر في 5 مارس/آذار. أضافت واشنطن بوست إن استخدام العراقيين للغازات السامة «ليس مفاجئاً»، وذلك نظراً لشراسة عدوهم الإيراني. بعد أيام قليلة، جاء في افتتاحية البوست أنه سيكون من قبيل «الاستبداد» أن «يُسمح لأحد الطرفين استخدام ما يشاء من أسلحة الحرب وإنكار ذلك على الطرف الآخر». بحلول نهاية تلك السنة، مضت الولايات المتحدة في طريقها وأقامت علاقات دبلوماسية كاملة مع العراق وذلك للمرة الأولى منذ 1967. بثّرت واشنطن بوست مسؤولي الإدارة المماليين للعراق بالقول بأنّ واشنطن «قادمة على لعب دور إقليمي مفيد» في الشرق الأوسط. ورداً على التقارير التي تقول إن العراق كان يواصل استعمال الأسلحة الكيميائية، فلسفت الصحيفة المذكورة الأمر قائلة بأنه سيكون «من باب الغرابة نوعاً ما الاعتراف بكلّ الطرق التي ابتكرها الناس لممارسة العنف ضد بعضهم البعض، ثم إبداء الكثير من القلق حول استخدام طريقة معينة». (38)

في العام 1988، أظهرت التقارير أن صدام حسين استعمل الأسلحة الكيميائية ضدّ مواطنيه - الأكراد العراقيين في بلدة حلبجة. عدد من أعضاء

مجلس الشيوخ الأمريكي، من ضمنهم كليبورن بيل (ديمقراطي-رود آيلاند)، آل غور (ديمقراطي-تينيسي) وجيسي هيلمز (جمهوري-كارولاينا الشمالية)، قدّموا مشروع قانون «منع أعمال الإيابة الجماعية لعام 1988»، الذي طالب بفرض العقوبات ضدّ العراق لاستعماله المستمر للأسلحة الكيميائية ولانتهاكه لحقوق الإنسان الأخرى. مرّ القرار في مجلس الشيوخ بالإجماع، لكن البيت الأبيض الذي يقطنه ريغان بدأ حملة مضادة ونجح في وأد القانون بمساعدة حلفائه في مجلس النواب.⁽³⁹⁾ وهنا تجدر الإشارة إلى الدور الذي لعبه أعضاء في إدارة بوش الحالية في تعطيل ذلك التشريع. السفير السابق بيتر غالبرايت، الذي عمل كخبير في شؤون العراق لدى مجلس الشيوخ، يتذكّر أن «وزير الخارجية كولن باول، الذي كان آنذاك مستشار الأمن القومي، هو الذي ربّب لقرار رونالد ريغان بإعطاء صدام حسين الإذن بمهاجمة الأكراد بالغازات السامة. ديك تشيني، الذي كان عضواً جمهورياً بارزاً في الكونجرس وأصبح الآن نائباً للرئيس وقائداً لصقور العراق في إدارة بوش، كان باستطاعته المساعدة في تمرير قانون العقوبات المذكور لكنه لم يفعل».⁽⁴⁰⁾ في خريف عام 1989، قبل تسعة أشهر فقط من احتلال العراق للكويت، تجاوز بوش الذي كان رئيساً آنذاك اعتراضات المسؤولين في ثلاثة أجهزة حكومية مختلفة ووقع توجيهها سرياً جداً يطلب إقامة أوثق الروابط مع بغداد وفتح الطريق أمامها للحصول مساعدات جديدة بقيمة بليون دولار.⁽⁴¹⁾

شكرا للذكريات

كقاعدة عامة مستفادة من التاريخ، الضحايا يتذكرون لفترة أطول بكثير الظلم الذي لحق بهم من أولئك الذين تسببوا بمعاناتهم. إف. سكوت فيزجيرالد التقط هذه الفكرة بشكل رائع في كتابه «غاتسبي العظيم»: «كانا شخصين لا مباييين، توم وديزي»، كتب. «حطّما الأشياء والمخلوقات ثم تراجعاً عائدين إلى أموالهما أو إلى عدم مبالاتهما الشديدة أو ما شابه من

أمور تبقيهما معاً، وتركاً للآخرين التخلّص من الفوضى التي تسببها بها». نفس الشيء يمكن أن يقال تقريباً حول أولئك المسؤولين عن الفصل الكارثي في مجال السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط. في 16 مارس/أذار 2003، قبل أيام فقط من الاحتلال الأمريكي للعراق، ذكرت واشنطن بوست أن الولايات المتحدة وفرنسا كانتا في الثمانينات المصدر الأساس «لكلّ عينات الجرائم ... التي استُخدمت لتصنيع الأسلحة البيولوجية التي لا يزال يُعتقد بأنها موجودة في ترسانة العراق، وذلك طبقاً للمسؤولين الأمريكيين والدبلوماسيين الأجانب الذين راجعوا إعلان العراق الأخير عن أسلحته الذي قدّمه للأمم المتحدة». بالطبع، الكشف عن هذه الحقيقة الخطيرة لم يأت من أيّ من أولئك المسؤولين أو الدبلوماسيين أنفسهم. تقرير الإعلان عن أسلحة الحرب البيولوجية وقع في يد غاري بي. بيتس، وهو محام من هيوستن يمثل جنوداً ممن شاركوا في حرب «عاصفة الصحراء». ويعاني موكلو بيتس من أعراض «متلازمة حرب الخليج» ويُعتقد بأنّ مرضهم قد يكون ناجماً عن التعرّض للمواد الكيميائية أو الأسلحة البيولوجية الموجودة في ترسانة أسلحة العراق.

المسؤولون الحكوميون وشركات تصنيع المواد البيولوجية الحيوية التي زوّدت صدام بالجمرة الخبيثة وغيرها من العينات الجرثومية الأخرى أبدت القليل من الأسف. «طلبوا الحصول عليها لأغراض البحث المشروعة»، قالت نانسي جي. وايسوكي، نائبة الرئيس للموارد البشرية والعلاقات العامة في ما يسمى «مجموعة الثقافة الأمريكية الطابع»، وهو مركز للمصادر العلمية لا يتوخى الربح المادي ويعمل كدار مقاصة لتخزين وتوزيع الكائنات الحيّة المجهرية والمنتجات الحيوية الأخرى. مفتش أسلحة أمريكي سابق أضاف بأنّ الثمانينات «كانت وقتاً أكثر براءة» - والحديث عن الاستعمال «البريء» ربما يناسب الفصل 4 المتعلّق بازدواجية الخطاب.⁽⁴²⁾

عندما سُئل عن تلك الفترة، أظهر وزير الدفاع دونالد رمسفيلد ضعفاً ملحوظاً في الذاكرة. أثناء إحدى جلسات الاستماع في 19 سبتمبر/أيلول 2002، سأل السيناتور الأمريكي روبرت بيرد رمسفيلد مباشرة، «هل ساعدت أمريكا العراق في الحصول على حجر الأساس في تصنيع الأسلحة البيولوجية أثناء الحرب العراقية-الإيرانية؟»

«بالتأكيد لا، حسب معرفتي»، أجاب رمسفيلد.

قرأ بيرد مقطعاً من نيوزويك احتوى على تفاصيل الدور الأمريكي في تلك المسألة.

«لم أسمع أبداً بأي شيء مما قرأت»، ردّ رمسفيلد. «ليس لدي علم بذلك مطلقاً، وأنا أشكّ فيه».⁽⁴³⁾

بعد يومين، أعاد مراسل سي إن إن جيمي ماكنتاير طرح الموضوع ثانية. هذه المرة، كان بحوزته شريط فيديو فبدا وكأن رمسفيلد قد أسقط في يده. بدأ ماكنتاير الحديث قائلاً «دعني أعود بك إلى الماضي، قبل حوالي 20 عاماً». ثم أضاف، «أعتقد أن التاريخ كان 20 ديسمبر/كانون الأول 1983. أنت كنت مجتمعاً بصدام حسين، أعتقد أن لدينا شريط فيديو عن ذلك الاجتماع. حدثنا عما جرى في ذلك الاجتماع».

«من أين حصلت على ذلك الشريط»، ردّ رمسفيلد، وأضاف، «من التلفزيون العراقي؟».

«استخرجناه من مكتبة السي إن إن»، أجاب ماكنتاير.

«أرى ذلك»، قال رمسفيلد. «أليس ذلك مثيراً للاهتمام. كنت هناك». وتحت مزيد من الضغط، فجأة استطاع رمسفيلد تذكر بعض التفاصيل، قال، «أنا حدّثته بشأن استعمال الأسلحة الكيميائية، في واقع الأمر».⁽⁴⁴⁾ ليس هناك أي سجل لذلك التحذير في أي وثيقة رسمية أو مرجع آخر حول سفرة رمسفيلد.⁽⁴⁵⁾

لسوء الحظ، أولئك الذين لا يستطيعون تذكر الماضي يميلون إلى تكراره، وهذا يفسر لماذا يواصل المسؤولون الأمريكيون تكرار إستراتيجيات دعاية الخمسينات. فبدلاً من تغيير طريقة تعاملنا مع الناس في الشرق الأوسط، في الحقيقة، لا يزال هؤلاء المسؤولين يحلمون بتصحيح صورتهم من خلال بعض الحملات التسويقية الجديدة المعدة في مطابخ هوليوود أو في ماديسن أفنيو.

أمريكا بيرز

أثناء إعلانه عن تعيين شارلوت بيرز مسؤولة عن تصحيح صورة أمريكا التي تُعتبر «الشیطان الأكبر» في العالم الإسلامي، أوضح وزير الخارجية كولن باول بأن ذلك التعيين يأتي «كمحاولة للانتقال من مجرد تسويق الولايات المتحدة... إلى إبراز الصنف الخاص للسياسة الخارجية».⁽⁴⁶⁾ حققت بيرز شهرتها في القطاع الخاص من خلال تسويق أرز «أنكل بن» وصابون الشعر «هيد أند شولدر» قبل انتقالها للعمل في بعض أبرز وكالات الإعلان في العالم.⁽⁴⁷⁾ باول قابها سابقاً في التسعينيات حين كان كلاهما ضمن مجلس إدارة «جولف ستريم إيروسبيس». «احزر ما حصل، جعلتني أشترى أرز أنكل بن»، قال باول. ثم أضاف، «لذلك لا عيب أبداً في البحث عن الشخص الذي يعرف كيف يبيع الأشياء».⁽⁴⁸⁾

جلبت بيرز إلى وظيفتها الجديدة نفس الرؤى والمهارات التي استعملتها كمتخصصة في الإعلان التجاري. واحدة من أفكارها الأولية كانت العثور على «رياضي عظيم أو شخصية مشهورة أو مغني» لتسويق أمريكا، التي حددت مواصفاتها على أنها «صنف رائع».⁽⁴⁹⁾ استعمالها المتكرر للعبارة التسويقية «إبراز الصنف» يعكس سمعتها كاختصاصية في إدارة الأصناف التجارية، وهو الأمر الذي وصفته صحيفة واشنطن بوست باعتباره «عملية تشبيه إيحائي تسعى إلى ربط منتج معين من إحدى الشركات بالخواص المرغوبة مثل الطعم أو النوعية». وكما أوضحت بيرز بنفسها، «ستجد أن

الجانب المغربي في كل صنف عظيم هو الأساس العاطفي لذلك الصنف».⁽⁵⁰⁾

يُعتبر الرياضيون المسلمون مرشّحين ممتازين لإبراز مصداقية أمريكا، بما فيهم محمد علي ونجم كرة السلة اللامع حكيم العجوان.⁽⁵¹⁾ أثناء الحرب على أفغانستان، أشرفت بيرز على تصميم الملصقات التي تروّج لبرنامج «جائزة العدالة» الذي يعرض ملايين الدولارات كجائزة لمن يقدم معلومات تؤدي إلى اعتقال أسامة بن لادن. المبادرة الأخرى، التي سُميت «هل تستطيع امرأة التصدي للإرهاب؟»، حاولت سرد «قصص النساء اللواتي تقدمن الصفوف وساعدن في أسر الإرهابيين». كما أنها أشرفت أيضاً على ابتداء وتصميم منشور «حياة المسلم في أمريكا»، الذي نُشر عن طريق موقع على شبكة الوب وطُبع بالألوان على ورق مصقول وبلغات متعدّدة، وهو يُبرز التسامح والاحترام الذي يحظى به المسلمون في المجتمع الأمريكي.⁽⁵²⁾ وحين بزغ قمر جديد معلناً بداية شهر رمضان في نوفمبر/تشرين الثاني 2001، جهّز المسؤولون الأمريكيون ملصقات «مساجد أمريكا»، التي تحتوي على صور مشرقة للقبب والمآذن، وذلك لتوزيعها عبر العالم العربي. الرئيس بوش وسفراء دول الشرق الأوسط وآسيا استقبلوا المسلمين في بيوتهم على موائد الإفطار، أو كسر الصوم. وطبقاً لما قاله أحد كبار مسؤولي وزارة الخارجية، «نحن نثبت للعالم الإسلامي أنّ الأمريكيين ينظرون باحترام للمناسبات الدينية للمسلمين، كما يفعلون بالنسبة للمناسبات المسيحية واليهودية».⁽⁵³⁾

هذه النشاطات، على أية حال، فعلت القليل لإقناع أكثرية المسلمين، الذين شعروا بأن الحرب في أفغانستان تزعجهم أكثر بكثير مما يمكن للمصافحات أو الملصقات أن تمحوه. ومن دواعي السخرية أنه من بين جميع النشاطات العسكرية التي انخرطت فيها الولايات المتحدة خلال السنوات الخمسين الماضية، كانت الحرب في أفغانستان بالتأكيد إحدى أسهل الحروب التي يمكن الدفاع عن ظروف وأسباب شتّى. إرهاب 9/11 استثار الولايات المتحدة

إلى ما بعد النقطة التي تشعر فيها أي أمة قادرة على الردّ عسكرياً بأنها مضطرة لتفعل ذلك. علاوة على ذلك، نظام طالبان الذي حكم أفغانستان لم يوفر المأوى لأسامة بن لادن فقط، بل كان لديه سجل حافل بالوحشية بحيث أن شن الحرب لإسقاطه من السلطة سينقذ أرواحاً أكثر من تلك التي يحتمل سقوطها في الحرب. على الرغم من ذلك، كانت ردة فعل غالبية العالم الإسلامي بالنسبة للحرب مبنية على سوء الظنّ، واستراتيجية التواصل التي أعلنت عنها ببرز لم تحاول حتى تبرير تلك الحرب. القضايا الأكثر إلحاحاً والتي تقلق الرأي العام في العالم العربي هي الدعم الأمريكي لإسرائيل، التأييد الأمريكي للأنظمة الاستبدادية كتلك الموجودة في بعض البلدان العربية، وسمعة أمريكا كقوة عظمى عدوانية. إستراتيجية ببرز القائمة على أساس إبراز حسنات الصنف أوجت بصورة مُرضية، لكنها تفادت كلياً جميع تلك القضايا الرئيسية.

«حتى في بريطانيا، حليف أمريكا الأكثر ولاءً، تراجعت نسبة مؤيدي الحرب فيها من حوالي الثلاثة أرباع إلى الثلثين، وذلك بالرغم من النشاطات المتشعبة لرئيس الوزراء البريطاني توني بليز الذي قطع آلاف الأميال في الأسابيع القليلة الماضية من أجل إقناع العالم بضرورة شنّ الحرب»، كما جاء في تقرير لصحيفة الإيكونوميست. «نقول بعض الاستطلاعات أن أربعة من بين كل عشرة مسلمين بريطانيين يعتقدون أن هجمات القاعدة مبررة بطريقة ما؛ وفي الحقيقة تطوّع حفنة منهم للقتال إلى جانب طالبان. في فرنسا، تراجعت نسبة مؤيدي الحرب من الثلثين إلى النصف، وفي كل من ألمانيا وإيطاليا يريد أكثر من نصف السكان شن الهجوم على أفغانستان حتى النهاية».

في الشرق الأوسط نفسه، بالطبع، كانت الأمور أسوأ، حيث وجدت الولايات المتحدة أنها لا تملك رصيذاً من الثقة يمكنها الاعتماد عليه. «على العكس من أوروبا، حيث كانت الآراء قد تغيّرت مؤخراً فقط، كان الرأي العام العربي

متصلباً منذ البداية في معارضته»، قالت الإيكونوميست. «لكن مرور الوقت أدّى إلى تطور غير ملحوظ ومقلق. عبء تقديم البرهان انتقل إلى الطرف المقابل: طُلب من أمريكا أن تُثبت بأنّها لا تنوي شنّ حرب ضدّ الإسلام».⁽⁵⁴⁾ السهولة النسبية التي لاقتها القوات أمريكية في دحر الطالبان في ساحة المعركة لم تحدث فرقاً؛ في ساحة معركة الرأي العام العالمي، خسرت الولايات المتّحدة خسارة فادحة.

في يناير/كانون الثاني 2002، قضت ببرز ثلاثة أيام في القاهرة وهي تتحدّث عن تخطي الخلافات كجزء من حملتها التي سمّتها «حوار مع الإسلام». على أية حال، بدا وكأنّ لديها مشكلة صغيرة، وذلك فيما يتعلق بالجزء الخاص «بالاستماع» ضمن معادلة ذلك الحوار. «المصريون الذين تكلموا معها انصرفوا وهم يهزّون رؤوسهم»، قالت صحيفة النيويورك تايمز، وأضافت الصحيفة أنهم انصرفوا «قائلين إنّ المسؤولين الأمريكيين لا يقدّرون مدى شعور المسلمين بأنّ الولايات المتحدة تعتدي عليهم، أو مقدار المشاعر العميقة التي لديهم بسبب القضية الفلسطينية - أو حتى القيمة الخاصة للتاريخ».⁽⁵⁵⁾

«تقول الولايات المتّحدة بأنّ قرارات الأمم المتحدة يجب أن تطبّق في كل مكان في العالم باستثناء إسرائيل. لماذا؟»، سأل المحرّر الصحفي المصري محمد عبد الهادي. واشتكى من أنّ المسؤولين الأمريكيين يتجاهلونه عندما يثير هذه النقطة. «يقولون، "انس الماضي"، دعنا نتحدّث عن اللحظة!... كلّ الخطب السياسية الأمريكية متشابهة»، قال. «الآنسة ببرز عبّرت عمّا يدور في نفسها مثل الرئيس بوش بكلّ طريقة محتملة. مهما حاولتَ جاهدًا جعلهم يفهمون، لن يفهموا».⁽⁵⁶⁾

في الحقيقة، ذكرت النيويورك تايمز أنّ «الحرب على أفغانستان تبدو وكأنّها جعلت من أسامة بن لادن بطلاً شعبياً». وطبقاً لما قاله تاجر مصري تحدث

إلى صحيفة التايمز، «كل مسلم يقول "لا" للولايات المتحدة فهو بطل. كل يوم تفتح التلفزيون وترى الإسرائيليين الذين يقتلون الفلسطينيين بالأسلحة الأمريكية. بغض النظر عن محاولات الولايات المتحدة الكثيرة لتغيير صورتها في العالم العربي، ما نراه بعيوننا أقوى بكثير». وحسب قول معلق سعودي، «كلّ مشاهد من مشاهد المدنيين القتلى في أفغانستان يصلح كأداة لإثارة العداء ضد أمريكا. العالم الإسلامي بأكمله يراقب ذلك بمشاعر الصدمة والرعب»، قال. وأضاف، «في أوساط الشباب، تنبت عداوات جديدة وهناك دعوات للانتقام. هذا خطر؛ هذا هو الجو الذي يخلق الإرهاب والتطرف».⁽⁵⁷⁾

في 24 أبريل/نيسان 2002، شهدت بيرز أمام الكونجرس. «في أواخر فبراير/شباط، أصدر معهد غالوب استطلاعاً لرأي 10 آلاف شخص تقريباً في تسعة بلدان ذات أغلبية إسلامية، واستنتج، بهامش خطأ يتراوح بين اثنين وواحد، أن سكّان تلك البلدان يحملون آراء سلبية حول الولايات المتحدة»، قالت. «بعض نتائج الاستطلاع لم تكن مفاجئة في بلد مثل إيران، لكن في الكويت، على سبيل المثال، 28% فقط من السكّان كانت لديهم آراء إيجابية حول الولايات المتحدة. هذا، في البلد الذي حرّره الولايات المتحدة وحلفاؤها قبل عقد من الزمن فقط. في المغرب، كان عدد الآراء الإيجابية 22% فقط، وفي العربية السعودية، أحد أقوى حلفائنا في المنطقة، 18% فقط عبّروا عن آراء إيجابية حول الولايات المتحدة».⁽⁵⁸⁾

طلبت بيرز من الكونجرس مبلغ 595 مليون دولار من أجل «تحسين وتعزيز الطرق التي نعتمدها في مخاطبة الناس في العالم». معظم ذلك المال سيصرف على استطلاعات الرأي «في البلدان والجاليات الإسلامية لتزويد صانعي السياسة بالمعلومات حول مواقف الجماهير الأجنبية، وتصوّراتهم، وآرائهم، بحيث تصبح رسائل الدبلوماسية العامة موجّهة بفعالية أكبر»، قالت بيرز في شهادتها أمام الكونجرس. وذلك بالإضافة إلى «استطلاعات منتظمة للرأي

العام في أفغانستان وفي البلدان ذات الأغلبية الإسلامية»، اقترحت إجراء استطلاعات متزايدة في أفريقيا، أندونيسيا، تايلندا، الفلبين، أوروبا، أمريكا اللاتينية، روسيا والجمهوريات السوفييتية السابقة. رغم ذلك، وعلى الرغم من أن ذلك المال خُصص بأكمله من أجل نشاطات «الاستماع»، لا يوجد سوى دليل ضعيف بأن الولايات المتحدة قد سمعت أو تهتأت للردّ على نحو جوهري على أيّ من الآراء المعبر عنها بقوة في العالم العربي.

في أكتوبر/تشرين الأول 2002، أثناء انشغال إدارة بوش بالضغط من أجل الحرب على العراق باعتبار ذلك نقطة الارتكاز في استراتيجيتها الانتخابية، أطلقت بيرز مبادرتها الأخيرة - حملة إعلانية بعنوان «القيم المشتركة» كلفتها 5 مليون دولار، صممتها شركة ماك كان-إيركسون التسويقية. صحيفة النيويورك تايمز لقت حملة «القيم المشتركة» بلقب «المسلم-كفطيرة-التفاح»، ذلك أن أشرطة الفيديو في الحملة احتوت على صور المسلمين الأمريكيين ذوي الملامح الجذابة وهم يلعبون مع أطفالهم ويتوجهون إلى وظائفهم. أحد الإعلانات التلفزيونية التجارية في تلك الحملة عرض مشاهد لراوية إسماعيل، وهي معلمة مدرسة لبنانية الأصل تعيش الآن في توليدو بولاية أوهايو. ظهرت راوية، التي تغطي رأسها بوشاح إسلامي، مع أطفالها المبتسمين في مطبخها الأمريكي الطراز بكامله، وظهرت مع الأولاد وهم يلعبون الكرة في ملعب المدرسة، وظهرت وهي تلقن الطلاب القيم الأمريكية. «لم أر أيّ إحجاف أو تمييز في أي مكان في حيّي بعد 11 سبتمبر/أيلول»، قالت راوية.⁽⁵⁹⁾

المشكلة في تلك الرسائل ليست أنها مزيفة بالضرورة. إنّ المشكلة، مثل بقية عناصر حملة بيرز، هي تفادي حملة «القيم المشتركة» مناقشة القضايا التي تُشكّل صميم الاستياء الإسلامي من الولايات المتحدة - النزاع الإسرائيلي الفلسطيني وتاريخ التدخل الأمريكي في المنطقة. «نحن نعرف بأنّ هناك حرية دينية في أمريكا، ونحن نحبّ ذلك. ما يُغضبنا هو السلوك المتغترس للولايات

المتحدة في بقية أنحاء العالم»، قال أحمد عمرون، وهو طالب اقتصاد في أندونيسيا، وذلك بعد مشاهدته لأحد الإعلانات التلفزيونية ضمن حملة «القيم المشتركة».⁽⁶⁰⁾

أطلقت بيرز أيضاً «الفصل القادم»، وهو برنامج تلفزيوني أذيع عبر محطة «صوت أمريكا» عن طريق القمر الصناعي ووجه إلى إيران. «الفصل القادم»، الذي وصفته النيويورك تايمز بأنه برنامج «مرح» وعلى نمط برامج محطة «إم تي في»، يتحدث حول ثقافة الشباب ويهدف إلى كسب قلوب وعقول الشباب.⁽⁶¹⁾ أطلقت أيضاً محطة «سوا» الإذاعية، وهي محطة تبث موسيقى البوب في العالم العربي، مصحوبة بنشرات آخر الأخبار من وجهة نظر أمريكية.⁽⁶²⁾ تبنت بيرز أيضاً معرضاً عالمياً جوالاً يعرض صوراً من موقع مركز التجارة العالمي المدمر. مشروع آخر لبيرز جذت فيه كتاباً أمريكيتين بارزين، ودعتهن للمساهمة في سلسلة من المقالات الأدبية المختارة حول «ما معنى أن تكون كاتباً أمريكياً» لتقرأ تلك المقالات في مختلف أنحاء العالم في حملة تهدف لترويج التقدير الدولي للثقافة الأمريكية.⁽⁶³⁾ أحد المؤلفين الذين طلبوا السفر إلى الخارج ضمن تلك الحملة كان المحلل السابق في وكالة المخابرات المركزية كين بولاك، مؤلف «العاصفة المخيفة: حالة غزو العراق». أوضحت بيرز أن استخدامه جاء كمحاولة لتحقيق «مصادقية من طرف ثالث... نحن نحتاج بشدة إلى أصوات أخرى تتحدث عنا... وهو ذلك الصوت الثالث».⁽⁶⁴⁾

ضمن جهود أخرى لتحقيق «المصادقية من طرف ثالث»، قامت مجموعة تسمى «مجلس المسلمين الأمريكيين للتفاهم» بإطلاق موقعها الخاص على شبكة الوب وسمته «حوار مفتوح» Open Dialogue. «سيكون ممولاً من الحكومة، لكنه ليس مؤسساً من قبل الحكومة. أنا أحب أن أقول أننا نحن أسسناه»، قال رئيس المجموعة مالك حسن الذي اعترف مع ذلك بأن فكرة إنشاء «مجلس المسلمين الأمريكيين للتفاهم» انطلقت من وزارة الخارجية.⁽⁶⁵⁾

زوار موقع الوب المذكور، سيجدون فيه تعريفاً بمهمته على أنها العمل على «التقريب بين الناس والثقافات عبر الحوار»، وسيجدون أيضاً دعوة لإرسال عناوينهم البريدية للحصول على نسخة مجانية من نشرة «حياة المسلم في أمريكا»، للاطلاع على قصص راوية إسماعيل وغيرها ممن ظهروا في إعلانات «القيم المشتركة» التلفزيونية، أو دعوة «لتروي لنا قصّتك» بإرسالها عبر البريد الإلكتروني.⁽⁶⁶⁾

إنّ الشيء المميّز حول موقع الوب الذي أطلقه «مجلس المسلمين الأمريكيين للتفاهم»، على أية حال، هو الكم القليل إلى حد ما من الحوار الحقيقي الذي أتاحه ذلك الموقع. هذا، بعد كل شيء، هو القرن الحادي والعشرين. مجموعات أخبار الإنترنت، منتديات الوب، خدمة النقاش على الإنترنت، وحتى كاميرات الوب حسّنت جميعها منذ عهد بعيد التقنيات التي تتيح إمكانية الحوار الحقيقي والمباشر بين الناس في كافة أنحاء العالم. غياب فرص الحوار الأصيل قد يفسّر عزوف معظم الباحثين عن معلومات تتعلق بالعلاقات الإسلامية-الأمريكية عن اللجوء إلى موقع «حوار مفتوح». وقد بيّنت عملية بحث أجريت بواسطة محرك البحث «غوغل» في 8 أبريل/نيسان 2003، وجود 58 صفحة وب أخرى فقط مرتبطة بموقع «حوار مفتوح»، وأغلبها كانت مواقع تديرها سفارات الولايات المتحدة أو الأجهزة الحكومية الأخرى. ولأجل المقارنة، كان هناك 2300 صلة وصل إلى موقع «المدينة الإسلامية» IslamiCity.com، وهو موقع يناقش الشؤون العالمية من وجهة نظر إسلامية. لاحظ المؤلف نعومي كلاين بعد فترة وجيزة من مباشرة بيرز العمل لصالح وزارة الخارجية، أن الرفض الأمريكي للتواصل الصادق مع «الجمهور المستهدف» ارتبط باستراتيجية بيرز المسماة «إبراز الصنف». «في هذا العالم المتشابك»، كتب كلاين، «وبعد الاستقرار على "هوية الصنف"، يتم فرضه بالقوة والدقة العسكرية عبر عمليات الشركة... ومن حيث الجوهر،

إبراز الصنف يعني السيطرة بصرامة على توجيه الرسائل باتجاه واحد، وإرسالها في أشد الأشكال بريقاً، ثمّ الابتعاد عن أولئك الذين يريدون تحويل المناجاة الفردية إلى حوار ذو مضمون اجتماعي». هذه النظرة قد تصلح للشركات لكنها ليست صالحة للحكومات. «حين تحاول الشركات تطبيق مبدأ اتساق الصورة على المستوى العالمي، ستبدو مثل وكالات عامة. لكن حين تفعل الحكومات الأمر نفسه، قد تبدو استبدادية بشكل واضح»، كتب كلاين. «ليست صدفة أن أكثر ما يشغل القادة السياسيين هو محاولة كل منهم إبراز صنفه الخاص، كما أن أحزابهم حساسة أيضاً فيما يتعلّق بالديمقراطية والتنوع. من الناحية التاريخية، كان هذا هو الجانب الآخر القبيح للسياسيين الذين يكافحون لاتساق واستقرار الصنف: مركزية المعلومات، سيطرة الحكومة على أجهزة الإعلام، مخيمات إعادة التثقيف، تطهير المنشقين، وأسوأ من ذلك بكثير».⁽⁶⁷⁾

حسب أي مقياس من المقاييس، إستراتيجية بيرز كانت فشلاً ذريعاً. وقد بيّن استطلاع أجراه مركز بيو للبحوث ونُشر في ديسمبر/كانون الأول 2002 تراجعاً حاداً في صورة أمريكا العامّة في جميع الدول الإسلامية التي جرى فيها الاستبيان. في مصر (ثاني أكبر متلقي للمساعدات الحكومية الأمريكية) 6 بالمائة فقط من المستجيبين للاستبيان قالوا بأنّهم يحملون وجهة نظر «مؤيدة « للولايات المتحدة».⁽⁶⁸⁾ في خطاب ألقته ذلك الشهر في «نادي الصحافة الوطني»، اعترفت بيرز بالصعوبات التي تواجهها فيما يتعلق باختراق أجهزة الإعلام الشرق الأوسطية. «لدينا خيار واحد فقط في عالم الشرق الأوسط والمنطقة الجنوبية الشرقية. يجب أن نشتري أجهزة الإعلام نفسها»، قالت بيرز.⁽⁶⁹⁾ لكن حتى الدفع لم يُثبت جدواه. فبعد أقل من شهر على إطلاق حملة إعلانات «القيم المشتركة»، علّقها وزارة الخارجية فجأة. الإعلانات التلفزيونية سببت جدلاً في البلدان التي بُنّت فيها، والقنوات التي تسيطر

عليها الحكومات في مصر ولبنان والأردن رفضت بشكل قاطع بث تلك الإعلانات. «الرأي العام الإسلامي يتأثر بما تفعله الولايات المتحدة أكثر بكثير من أي شيء يمكنها أن تقوله»، علق مدير الإعلانات في وول ستريت جورنال.⁽⁷⁰⁾

في 3 مارس/أذار 2003، قبل أسبوعين تقريباً من الهجوم الأمريكي على العراق، استقالت بيرز من منصبها لـ«أسباب صحية غير محددة».⁽⁷¹⁾ استقالتها تلك كانت النقطة الأدنى في سجلها المهني وقوبلت بسخرية حادة من بعض زملائها في قطاع الصناعة التسويقية الذين مدحوا سابقاً عبقريتها. محرر صحيفة أودوير بي آر دايلي المتخصصة في العلاقات العامة وصف عملها بأنه «جهود دعائية فاسدة» وأنها «فشلت فشلاً ذريعاً».⁽⁷²⁾ لكن، على سبيل الإنصاف لامرأة كانت نجماً لامعاً في مجال الصناعة الإعلانية المتقدمة حتى لحظة انتقالها للعمل من أجل «صالح أمريكا»، تنبغي الإشارة إلى أن بيرز اتبعت إستراتيجية مشابهة للنصائح التي أتت من خبراء ومدراء تنفيذيين آخرين في مجال التسويق والعلاقات العامة بعد 11 سبتمبر/أيلول. كارل ويسير، مراسل غايت نيوز سيرفس في واشنطن، قابل عدداً من هؤلاء ليسألهم عن نوع الحملة التي قد يخترعونها لإقناع العالم الإسلامي «بأن هذه الأمة ليست الشيطان الأكبر، بل هي أمة جيدة وعظيمة». أغلب ردودهم ركزت على المخاوف الشكلية بدلاً من القضايا الجوهرية. أحد المستشارين عبّر عن اعتقاده بأن السياح الأمريكيين ينبغي أن يتصرفوا بشكل مؤدّب أكثر عند سفرهم إلى الخارج. جاك بيرغن، رئيس مجلس شركات العلاقات العامة، اقترح جلب الصحفيين والمحررين والمعلقين من العالم العربي إلى الولايات المتحدة بحيث تتاح لهم الفرصة ليقدرّونا بطريقة أفضل. وكما قال المستشار التسويقي في لوس أنجلوس روب فرانكل، «هذه قضية إبراز أصناف، سهلة وبسيطة... البلدان لا تختلف عن السيارات أو

رقائق الصابون». واعتماداً على مصطلحات إبراز الأصناف، أضاف «يجب أن نكون العملاق اللطيف، وليس الغول المخيف. أو حسب تعابير الشركات الكبرى، يجب أن نكون فيديرال إكسبريس، وليس مايكروسوفت».⁽⁷³⁾

هذه الأفكار ليست فقط ضحلة وسطحية. بل هي خاطئة كلياً. فهؤلاء لم يبدعوا بمعالجة القضايا الجدّية، حتى تلك التي دقّت إسفيناً بين الولايات المتحدة والمسلمين في كافة أنحاء العالم. المشكلة الرئيسية، سيخبرك العرب، ليست في الطريقة التي اتبعتها شارلوت بيرز في تأدية مهمّتها، بل هي في المنتج الذي كانت تبّيعه. في الحقيقة، ومنذ البداية، فشلها كان متوقعاً من قبل المراقبين مثل أسامة سبلاني، ناشر صحيفة أراب أميركان نيوز. «خسرت الولايات المتحدة حرب العلاقات العامة في العالم الإسلامي منذ زمن طويل»، قال سبلاني في أكتوبر/تشرين الأول 2001.⁽⁷⁴⁾

•
•
• •

2. الحرب تجارة

«من وجهة نظر تسويقية، أنت لا تقدّم المنتجات الجديدة في أغسطس/آب»، صرّح كبير موظفي البيت الأبيض أندرو إتش. كاردين، لصحيفة نيويورك تايمز في سبتمبر/أيلول 2002. كاردين كان يشرح ما وصفته التايمز بأنه بمثابة «الاستراتيجية المخططة بدقة شديدة لإقناع الجمهور والكونجرس والحلفاء بالحاجة لمواجهة تهديد صدام حسين».⁽¹⁾

وطبقاً لما جاء في المقالة، فإن التخطيط المكثف لما سمته «افتتاح سوق العراق» بدأ في يوليو/تموز. دقّق مستشارو بوش جيداً في جدول أعمال الكونجرس لمعرفة التوقيت الأفضل لإطلاق «حملة ضغط مكثفة» لكسب التأييد لمشروعهم. «بدأت الجهود في اليوم التالي لعيد العمال حيث اجتمع الكونجرس مجدداً فتلقّى زعماء الكونجرس الدعوات للحضور إلى البيت الأبيض ووزارة الدفاع الأمريكية للاستماع إلى موجز حول العراق من نائب

الرئيس ديك تشيني ووزير الدفاع دونالد رمسفيلد ومدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت. أثناء الإعداد لخطاب الرئيس الذي بُثَّ في 11 سبتمبر/أيلول 2002، استخف موظفو الاتصالات في البيت الأبيض بالعديد من المواقع واختاروا تمثال الحرية المنتصب في جزيرة أليس كخلفية للصورة. في اليوم التالي، وقف بوش في الأمم المتحدة مطالباً بقرار من مجلس الأمن يعطيه التفويض الدولي الذي يريده لشن الحرب. ليست مجرد صدفة، بالطبع، أن العمل على افتتاح سوق العراق تزامن مع الذكرى الأولى لهجوم تنظيم القاعدة على الولايات المتحدة.

ذكرت الواشنطن بوست أن البيت الأبيض أنشأ «مكتب الاتصالات العالمية» كي «ينسق رسالة السياسة الخارجية للإدارة ويشرف على صورة أمريكا في الخارج».⁽²⁾ في سبتمبر/أيلول، ذكرت التايمز اللندنية بأن مكتب الاتصالات العالمية سينفق 200 مليون دولار في «هجوم علاقات عامة كاسح ضدّ صدام حسين» موجّه نحو «الجمهور الأمريكي والأجنبي، خصوصاً في الدول العربية المتشككة من السياسة الأمريكية في المنطقة». الحملة ستعمل على استخدام «تقنيات الإعلان لإقناع المجموعات المهمة المستهدفة بضرورة إزالة الزعيم العراقي».⁽³⁾

«نحن نجمع أفراد الفرقة»، قال مدير اتصالات البيت الأبيض دان بارتليت في سبتمبر/أيلول 2002. «الفرقة»، كما فسرتها مارثا برانت من نيوزويك، هي إشارة إلى «أولئك الذين جلبوا لك الحرب في أفغانستان - أو على الأقل حملات العلاقات العامة التي رافقت ذلك... والآن عادوا واجتمع شملهم ليقوموا بجولة أخرى في العراق».⁽⁴⁾ مجموعة من الشبان الصاعدين والقادمين حديثاً إلى البيت الأبيض، هؤلاء هم «الفرقة» التي كانت تجتمع يومياً في مؤتمر صباحي لتخطيط الإستراتيجية الإعلامية التي تهدف للسيطرة على «الرسالة ضمن الإدارة بحيث لا يمكن لأحد - حتى نائب

الرئيس ديك تشيني - أن ينفرد بالعراق»، كتبت برانت. اللاعبون الرئيسيون كانوا بارتليت، مكتب مدير الاتصالات العالمي توكر إيسكيو، وجيمس ويلكنسن، النائب السابق لمدير الاتصالات والذي أعيد تعيينه بعد ذلك للعمل كناطق باسم الجنرال تومي فرانكس في مقر القيادة المركزية الأمريكية في قطر. ومن ضمن المشاركين المتكررين في جلسات التخطيط، الناطقة الأولى باسم وزارة الدفاع الأمريكية فيكتوريا ("توري") كلارك، مستشارة تشيني ماري ماتالين، والناطق بلسان وزير الخارجية كولن باول، ريتشارد باوتشر. مجلة بي آر ويك (أسبوعية العلاقات العامة)، وهي واحدة من أهم المطبوعات المتخصصة في مجال التجارة وصناعة العلاقات العامة، ذكرت أن وزير الدفاع الأمريكي دونالد إتش. رمسفيلد اعتمد أيضاً على مجموعة غير رسمية متخصصة في «الاتصالات الإستراتيجية» والضغط، بالإضافة إلى أخصائيين في العلاقات العامة ونافذين في الحزب الجمهوري لشحذ وتفعيل رسالة وزارة الدفاع الأمريكية. ذكرت التقارير أن كلارك، التي أدارت سابقاً مكتب شركة هيل أند نولتون للعلاقات العامة في واشنطن، هي التي ألّفت مجموعة رمسفيلد، والتي تضمّ ضمن أعضائها الناشطة الجمهورية والمديرة التنفيذية في مجال العلاقات العامة شيلا تايت، والناشطين في حقل الضغط السياسي تشارلي بلاك وتومي بوغز (المدافع أيضاً عن العربية السعودية)، والناشط الجمهوري الذي تحوّل إلى معلق صحفي ريتش غالين. المشاركون في تلك المجموعة «قدموا نصائح بين وقت وآخر لوزارة الدفاع الأمريكية حول تفعيل رسالة الوزارة»، كما ورد في تقرير لمجلة بي آر ويك. أحد مشاريع مجموعة رمسفيلد كان ربط أسباب مكافحة الإرهاب بالجهود الهادفة لإقناع الجمهور «بالحاجة إلى مهاجمة الدول المارقة» - ومن ضمنها العراق - والتي من المحتمل أن تؤوي الإرهابيين».⁽⁵⁾

شكوك جدية

في الوقت الذي كانت فيه إدارة بوش تدفع بكل ثقلها من أجل بدء الحرب، كان الدعم المحلي والدولي لمباشرة الحرب غير مطمئن. فإلى جانب المسلمين المستائين من الأعمال العسكرية الأمريكية الأخيرة في أفغانستان، بدأت الأصوات ترتفع من جهات عدّة محدّرة من أن السمعة الأمريكية بدأت تتآكل عالمياً. «في مواجهة استطلاعات للرأي العام أجراها دبلوماسيون وتبيّن شكوكاً أجنبية على نطاق واسع حول الدوافع الأمريكية»، كتب مراسل وكالة يونايتد برس إنترناشيونال ألي لاك، كانت الولايات المتحدة «تخطّط لهجوم علاقات عامة لكسب الدعم الدولي والحصول على تأييد زعماء الرأي الأجانب في حربها ضدّ العراق». كبدائية، مجموعة الدبلوماسية العامة من أجل العراق، «التي تضم بين أعضائها ممثلين من وكالة المخابرات المركزية، مجلس الأمن القومي، وزارة الدفاع الأمريكية، وزارة الخارجية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية»، خطّطت لنشر دليل وتنظيم اجتماع تفاعلي عبر الهاتف بهدف استقطاب «زعماء الرأي العام» في أوروبا والشرق الأوسط.⁽⁶⁾

انتخابات الكونجرس الفصلية التي تزامنت مع الحملة من أجل الحرب دفعت بعض المراقبين للتساؤل عما إذا كانت إدارة بوش جادة فعلاً أم أنها كانت تستغل الحديث عن الحرب فقط لصرف الانتباه عن القضايا الاقتصادية مثل الكساد وفضيحة إنرون. «إذا لم تكن قد نجحت في شيء آخر، فإن إدارة بوش نجحت في إثارة السؤال "هل ينبغي أن نهاجم العراق؟" وهو السؤال السياسي الأكثر إلحاحاً في الولايات المتحدة اليوم»، لاحظت مجلة بي آر ويك. وأضافت المجلة أن الأسئلة الأخرى كانت قد دُفعت إلى الخلفية، مثل «كيف نعاقب مجرمي الشركات الكبرى؟» «كيف نوازن بين الحريات المدنية والأمن القومي؟» «أين أسامة بن لادن؟» و«ماذا عن الإقتصاد؟».⁽⁷⁾

ملاحظات مماثلة أتت من جاك ليزلي، رئيس شركة ويبر شاندويك عبر العالم، وهي إحدى أكبر شركات العلاقات العامة في العالم. «هذه مسألة أفضل من الكثير من القضايا المحلية التي يمكن أن تكون في طبيعة الاهتمامات»، قال ليزلي الذي عمل كمستشار للبيت الأبيض منذ 11 سبتمبر/أيلول. «من نافع القول أن كل هذا ليس سوى [انحراف]، لكنهم يفضلون بالتأكيد أن يدور النقاش حول العراق بدلاً من القضايا الأخرى».⁽⁸⁾

«يقول كبار مسؤولي الحزب الجمهوري أن احتمال استمرار نقاشات الكونجرس حول العراق لأسبوعين إضافيين على الأقل سيتيح لحزبهم الاستفادة من ضيق الوقت المتوفر قبل انتخابات الخريف، مما يمنع بالتالي الديمقراطيين من محاولة الاستفادة من طرح قضايا الاقتصاد المتعثر والمشاكل الداخلية الأخرى كقضايا أساسية في الحملة الانتخابية»، كما جاء في تقرير لصحيفة النيويورك تايمز في 20 سبتمبر/أيلول 2002. «رسالة تذكير مميزة حول كيفية سيطرة الكلام عن الحرب على القضايا الأخرى التي يعتقد الديمقراطيون أن من مصلحتهم إثارتها وردت يوم الخميس، وذلك حين هبط معدل الداو جونز إلى 7.940 نقطة. وهذه هي النقطة الأدنى منذ يوليو/تموز الماضي، عندما اعتقد العديد من الديمقراطيين بأنّ الوضع الاقتصادي المقبل على الركود والتقارير عن الفساد في الشركات الكبرى كانا سيمهدان الطريق أمام الديمقراطيين للفوز والسيطرة على مجلسي النواب والكونجرس في آن معاً. وحين سُئل اليوم عما إذا كان الانخفاض الأخير في مؤشرات وول ستريت سيسحب التغطية التي يتمتع بها الجمهوريون، ردّ محلل إستراتيجي ديمقراطي كبير بتشاؤم عبر رسالة بالبريد الإلكتروني: "لا على الإطلاق. الحرب، الحرب، الحرب"».⁽⁹⁾

بالنسبة للعناصر البارزة ضمن إدارة بوش، على أية حال، الحرب على العراق ليست مسألة ثرثرة انتخابات فصلية فقط. المسألة برمتها أتت

كاستكمال لخطط ومناقشات بدأت قبل أكثر من عشر سنوات، بعد فترة قصيرة من نهاية الحرب الأولى التي قادتها الولايات المتحدة في الخليج الفارسي.

«جورج واشنطن العراقي»

في العام 1991، بعد بضعة أشهر على نهاية «عملية عاصفة الصحراء»، وقّع جورج إتش دبليو بوش، الذي كان رئيساً آنذاك، توجيهاً رئاسياً يقضي بأن تقوم وكالة المخابرات المركزية بعملية عسكرية سرية لإسقاط صدام حسين. وبناءً لذلك، استخدمت وكالة المخابرات المركزية مستشار العلاقات العامة جون دبليو ريندون لتنظيم حملات دعائية ضدّ صدام داخل العراق.

ريندون هو مستشار حملات انتخابية سابق لعدد من سياسيين الحزب الديمقراطي، ومن ضمنهم مايكل دوكاكيس وجيمي كارتر. شركة العلاقات العامة التي يملكها، مجموعة ريندون، متخصصة الآن في مساعدة العمليات العسكرية الأمريكية. وبالإضافة إلى العراق، تعمل مجموعة ريندون في الأرجنتين وكولومبيا وهايتي وكوسوفو وبنما وزمبابوي. بدأ ريندون العمل على العراق أثناء التهيئة والإعداد لـ«عاصفة الصحراء»، وذلك حين تسلم مبلغ 100 ألف دولار شهرياً ليقوم بأعمال دعائية بالنيابة عن الأسرة الكويتية الحاكمة⁽¹⁰⁾ (نجاحه في إقناع الكويتيين المحررين بالتلويح بالأعلام الأمريكية ذكر في مقدمة هذا الكتاب). خلال السنة الأولى، التي سبقت الحرب، من عقد ريندون مع وكالة المخابرات المركزية، أنفقت شركة العلاقات العامة التي يملكها أكثر من 23 مليون دولار على إنتاج أشرطة الفيديو والكتب الهزلية التي تسخر من صدام، بالإضافة إلى معرض فوتوغرافي جوال عن الأعمال الوحشية العراقية وبرنامجين إذاعيين منفصلين يبتّان الرسائل من الكويت إلى العراق، وذلك لخلخلة النظام وحضّ ضباط الجيش العراقيين على التمرد.⁽¹¹⁾

وفيما يُعتقد بأنه المشروع الأهم لمجموعة ريندون، ساعدت الشركة المذكورة عام 1992 على تنظيم المؤتمر الوطني العراقي، الذي يمثل المحاولة الرئيسية الأولى من قبل معارضي صدام حسين لتوحيد قواهم.⁽¹²⁾ وطبقاً لتقرير أوردته في فبراير/شباط 1998 محطة أي بي سي نيوز من مراسلها بيتر جينينغز، فإن ريندون هو الذي وضع الاسم للمؤتمر الوطني العراقي وحول 12 مليون دولار كتمويل سري من وكالة المخابرات المركزية للمؤتمر، وذلك بين عامي 1992 و1996.⁽¹³⁾ المؤتمر الوطني العراقي جمع في صفوفه الأكراد والعرب، السنة والشيعية، العلمانيين والإسلاميين، الليبراليين والديمقراطيين، القوميين التقليديين والضباط العسكريين السابقين. في أكتوبر/تشرين الأول 1992، تم تعيين أحمد الجبلي، صنيعة ريندون، رئيساً للمؤتمر.

الجبلي لديه ما يمكن تسميته ببساطة «ماضي ملون». ولد في بغداد عام 1945، وهو ابن عائلة شيعية تتمتع بصلات وثيقة مع الحكم الملكي الذي رُكّب في العراق من قبل لورانس العرب بعد الحرب العالمية الأولى. في الثالثة عشرة من عمره، اضطر الجبلي للهرب من البلاد مع عائلته عندما أُطيح بالحكم الملكي بانقلاب عسكري قاده عبد الكريم قاسم (بعد أربع سنوات، أدى اغتيال قاسم إلى تسلّم حزب البعث السلطة وتمهيد الطريق لصعود صدام حسين). ترعرع الجبلي في الأردن، لبنان، إنجلترا، والولايات المتحدة، والتحق بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا وجامعة شيكاغو، وعمل أستاذاً للرياضيات في الجامعة الأمريكية في بيروت قبل أن يؤسس بنك البتراء عام 1977، والذي أصبح ثاني أكبر بنك تجاري في الأردن. مهنته كمصرفي دامت 12 عاماً وانتهت عام 1989، حين وضعت الحكومة الأردنية، في حادثة ما زالت موضع خلاف، يدها على المصرف وضخّت فيه 164 مليون دولار لإنقاذه من انهيار مالي. هرب الجبلي من البلاد وحوكم غيابياً وحكم عليه بالسجن 22 عاماً مع الأشغال الشاقة بجرم الاختلاس والاحتيال والتجارة غير المشروعة بالعملة.

وحسب الرواية الأردنية للأحداث، تمكن الجلبلي من الهرب بأكثر من 70 مليون دولار.⁽¹⁴⁾

الجلبلي نفسه يروي القصة بشكل مختلف، مدعياً أنّ حكومة الأردن هاجمته لأسباب سياسية، وذلك لمنع من تمويل معارضي صدام حسين داخل العراق. من المحتمل أنّ يكون ذلك صحيحاً، إذ منذ ذلك الوقت كان الجلبلي ناشطاً ضمن المجموعات العراقية المعارضة وكان لديه اتّصال مع ريتشارد بيرل، مساعد وزير الدفاع في إدارة ريغان التي كانت دسائسها في الشرق الأوسط عديدة واستمرّت تحت إدارة بوش الحالية. «بالطبع، حقيقة أنّ الجلبلي ربما يكون حوكم لأسباب سياسية لا تعني بأنّه بريء من تهمة الاختلاس والاحتيال»، كتب المراسل روبرت دريفوس الذي كتب لمحة عن الجلبلي لصحيفة أمريكيان بروسبيكت في نوفمبر/تشرين الثاني 2002. «على أية حال، مزاعم الاختلاسات تلك لاحقة من حينها حيثما توجه».⁽¹⁵⁾

تحت قيادة الجلبلي، حاول المؤتمر الوطني العراقي أن يثبت وجوداً له شبه عسكري داخل العراق بهدف ملعن هو تشكيل حكومة مؤقتة وشنّ هجمات على المدن العراقية. على أية حال، وضمن أسلوب تواصل كي يبيّن طريقة قيادته للمؤتمر الوطني العراقي، تشاجر بسرعة مع عدد من مؤيديه. وطبقاً لما قاله ليث كبة، الناطق السابق باسم المؤتمر الوطني العراقي، فإنّ «أولوياته كانت كسب ود واشنطن بدلاً من مدّ اليد للعراقيين والعمل على وضع الأطروحات السياسية أو العمل على ما ينبغي أن يكون بمثابة جدول الأعمال الوطني».⁽¹⁶⁾ الخلافات الداخلية أدّت إلى انهيار تقريبي لتلك المجموعة، ولسنوات تلت، لم يعد الجلبلي موضع ثقة لدى وكالة المخابرات المركزية وإدارة كلينتون، التي أسقطت من حسابها المؤتمر الوطني العراقي وبدأت بتمويل مجموعة أخرى من المعارضة منافسة للمؤتمر الوطني العراقي هي حركة الوفاق الوطني العراقي. انتهت تلك المغامرة أيضاً بشكل فادح، وذلك حين

ألقت قوات صدام حسين القبض على عدد من أعضاء المؤتمر الوطني العراقي وأعضاء حركة الوفاق الوطني العراقي وقتلتهم.⁽¹⁷⁾

في ذلك الوقت، قرّرت عدة جهات في المخابرات الأمريكية والمؤسسة العسكرية بأنّ المؤتمر الوطني العراقي كان مضيعة للوقت. الجنرال أنتوني، الذي كان قائد القيادة المركزية الأمريكية تحت إدارة الرئيس كلينتون، أشار بسخريّة إلى الهجوم العسكري للمؤتمر الوطني العراقي على العراق وسماه بعملية «خليج الماعز» التي حلم بها «بعض القابعين في لندن ممن يرتدون الحرير ويضعون في معاصمهم ساعات رولكس».⁽¹⁸⁾ التدقيق المالي الذي أجرته وكالة المخابرات المركزية في أواسط التسعينات كشف أن الجلي متورط في تلاعب محاسبي بمال دافعي الضرائب الأمريكيين.⁽¹⁹⁾ على الرغم من ذلك، ظل الجلي يتردد باستمرار على أروقة السلطة في واشنطن. حتى أن بعض الدوائر - الصقور المؤيدين لإسرائيل الذين تمتد جذورهم إلى إدارة ريغان وإدارة بوش الأول والذين عُرفوا باسم «المحافظين الجدد» - كانوا يشيرون إلى الجلي بلقب «جورج واشنطن العراق».⁽²⁰⁾ والجلي من جهته عرف كيف يخبرهم ما يريدون سماعه، ويعدّهم بأنّ نظام صدام كان في مرحلته الأخيرة قبل السقوط، وأنّ المؤتمر الوطني العراقي يحظى بتعاطف ودعم واسع وله ركانز وعملاء داخل العراق، وأنه ستحدث عمليات هروب جماعية في صفوف القوات العراقية حالما تُبدي الولايات المتحدة عزمها على دعم حرب التحرير.

تاريخ مسجّل لنبوءات الحرب

الرصيد السياسي للجلي تحسّن عام 1997، وذلك حين وضع عدد من المحافظين الجدد البارزين «مشروع القرن الأمريكي الجديد»، الذي سعوا من خلاله من أجل مزيد من الإنفاق العسكري الأمريكي واتخاذ خطّ أشدّ صلابة ضدّ العراق.⁽²¹⁾ مؤسس ورئيس «مشروع القرن الأمريكي الجديد»، وليام

كريستول، كان رئيساً سابقاً لهيئة أركان نائب الرئيس دان كوايل ووزير التربية وليم بينيت (كلاهما من الأعضاء المؤسسين لمشروع القرن الأمريكي الجديد). كريستول كان معروفاً أكثر كمحرر لمجلة ويكلي ستاندارد، وهي مجلة ذات تأثير تعنى بالشؤون السياسية يملكها غول وسائل الإعلام اليميني روبرت مردوخ. العديد من مؤسسي مشروع القرن الأمريكي الجديد الآخرين احتلوا لاحقاً مواقع مهمة ضمن إدارة بوش الثاني. ومن هؤلاء الأعضاء:

- إليوت أبرامز، مساعد سابق لوزير الخارجية للشؤون الداخلية في عهد ريغان. أثناء تفجر فضيحة إيران-كونترا، اعترف أبرامز بأنه مذنب بجنحة الكذب مرتين على الكونجرس لكنه حصل لاحقاً على عفو من قبل إدارة بوش الأولى. أصبح لاحقاً رئيساً لـ«مركز الأخلاق في السياسة العامة» وعين بعد ذلك عضواً في مجلس الأمن القومي في إدارة جورج دبليو بوش.

- جب بوش، حاكم فلوريدا وشقيق الرئيس.
- نائب الرئيس ديك تشيني.
- الجنرالات المتقاعدين واين داوونينج، بستر غلوسون، وباري ماكافري (الذي شغل أيضاً منصب المسؤول عن مكافحة المخدرات في إدارة كلينتون).

- ستيف فوربز، ناشر ويليونير ومرشح جمهوري للرئاسة عامي 1996 و 2000.

- فرانسيز فوكوياما، مؤلف «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، وهو كتاب حظي بانتشار واهتمام واسع في التسعينيات يزعم أن سقوط الشيوعية شكّل مؤشراً على «نهاية التاريخ في حد ذاته: أي، النقطة الأخيرة من التطور الأيديولوجي للبشرية وبداية عولمة الديمقراطية الليبرالية الغربية كشكل نهائي للحكومة الإنسانية».

- الناطق السابق باسم مجلس النواب نيويت جنجريش.
- بروس بي جاكسن، نائب سابق للرئيس في شركة لوكهيد مارتن، والذي عمل أيضاً في السابق كمساعد لوزير الدفاع السابقين فرانك كارلوتشي وديك تشيني.
- روبرت كاغان، الكاتب السابق لخطابات وزير الخارجية الأسبق جورج شولتز في عهد الرئيس ريغان.
- جين كيرباتريك، مستشارة سابقة للبيت الأبيض ووزارة الدفاع الأمريكية في عهد الرئيسين السابقين ريغان وبوش.
- لويس ليبي، كبير مساعدي تشيني.
- كبير مستشاري وزارة الدفاع الأمريكية ريتشارد بيرل، والذي ساعد على تسويق حرب عام 1991 في الخليج من خلال عضويته في «لجنة السلام والأمن في الخليج».
- نورمان بودهوريتز، المحرر منذ مدة طويلة لمجلة كومنتري، التي تنشر من وقت لآخر بعض المقالات السياسية التي يكتبها مسؤولون من الإدارات الرئاسية الأمريكية المحافظة.
- وزير الدفاع دونالد رمسفيلد.
- بول وولفوفيتز، نائب رمسفيلد.
- مدير وكالة المخابرات المركزية السابق الذي تحوّل إلى مدافع سياسي جيمس ولزي، والذي مثّلت شركة المحاماة التي يملكها، شي أند غاردينر، المؤتمر الوطني العراقي.⁽²²⁾
- عام 1998 مارس واضعو مشروع القرن الأمريكي الجديد الضغط على الكونجرس للتصديق على مشروع «قانون تحرير العراق لعام 1998»، وهو القانون الذي جعل من «تغيير النظام» العراقي سياسة أمريكية رسمية

وصادق على صرف 97 مليون دولار كمساعدات للمجموعات العراقية المعارضة ومن ضمنها المؤتمر الوطني العراقي. في شهادته أمام الكونجرس في 25 فبراير/شباط 1998، حثّ بول وولفوفيتز الكونجرس على تمرير مشروع القانون كطريقة للتخلّص من صدام دون الحاجة لاستخدام قوات برية أمريكية. «ساعدوا الشعب العراقي على أزالته من السلطة»، قال وولفوفيتز. ثم أضاف، «على أية حال، - وأعتقد أن هذا مهم جداً - تُشير التقديرات إلى أن احتلال العراق بقوّات برية أمريكية سيُعطي صدام حسين مزيداً من التقدير والأهمية».⁽²³⁾

في ذلك الوقت، كان الهدف من تلك الكلمات طمأنة أعضاء الكونجرس. فكرة قيام الولايات المتّحدة بهندسة «تغيير النظام» ما زالت تعتبر راديكالية وخطرة، وولفوفيتز أراد أن يوضح بأنّه لا يطلب منهم التوقيع على فكرة أشد خطورة تقضي بانخراط أمريكا في شن حرب شاملة. على أية حال، بعد خمس سنوات، سيؤدي تنصيب جورج دبليو بوش والحالة التي تلت 9/11 وشن الحرب على الإرهاب إلى وضع وولفوفيتز ومحافظين جدد آخرين في مقعد قيادة السياسة الخارجية الأمريكية. بعد تسعة أيام على هجمات 11 سبتمبر/أيلول، أرسلت جماعة مشروع القرن الأمريكي الجديد رسالة مفتوحة إلى الرئيس بوش، ودعته ليس فقط إلى تدمير تنظيم القاعدة الذي يقوده أسامة بن لادن، بل لتوسيع الحرب بحيث تشمل العراق أيضاً، ولاتّخاذ إجراءات ضدّ إيران، سوريا، لبنان، والسّلطة الوطنية الفلسطينية.⁽²⁴⁾

حرب المعلومات

الحرب على الإرهاب أمّنت أيضاً عملاً جديداً لمجموعة ريندون. في أكتوبر/تشرين الأول 2001، ذكرت الصحف بأنّ وزارة الدفاع الأمريكية منحت ريندون عقداً مدته أربعة أشهر بقيمة 397 ألف دولار لمعالجة جوانب العلاقات العامة فيما يتعلق بالضربات العسكرية الأمريكية في أفغانستان.⁽²⁵⁾

بتاريخ 25 فبراير/شباط 2002، في فترة انتهاء عقد أفغانستان، ذكرت النيويورك تايمز أنّ وزارة الدفاع الأمريكية كانت تستعين بمجموعة ريندون للمساعدة في تأسيس وكالتها الدعائية الجديدة التي أسمتها «مكتب التأثير الاستراتيجي». تم حل «مكتب التأثير الاستراتيجي» رسمياً بعد ردّ الفعل العامّ وبعد أن ذكرت التايمز بأنه سيوزّد المراسلين الأجانب «بمواد إخبارية، وحتى أنه من المحتمل أن تكون تلك المواد غير صحيحة».⁽²⁶⁾ على أية حال، عقد ريندون مع وزارة الدفاع الأمريكية لم يلغ. حاولت الصحف إجراء مقابلات مع المستخدمين في مجموعة ريندون للاستفسار عن طبيعة عملهم، لكنهم رفضوا. «دعني أقول فقط بأنّ لدينا اتفاقية عدم كشف أسرار» موقّعة مع وزارة الدفاع، قالت الناطقة باسم ريندون جين سكلارز.⁽²⁷⁾

رفض ريندون لمناقشة نشاطاته جعل الأمر صعباً ولم يدع سوى التخمين لمعرفة المجال الكامل لعمله ومدى تدخّل شركته في العراق، لكن حادثة بعينها أثناء الحرب أحدثت خرقاً نادراً في جدار السرية. في 23 مارس/آذار 2003، قتل المصور التلفزيوني بول موران في شمال العراق في عملية نفذها مهاجم انتحاري، وذلك أثناء تأدية موران لمهمة إخبارية لصالح الشركة الاسترالية للبحث الإذاعي والتلفزيوني. نعيه، الذي نُشر في مسقط رأسه في بلدة أدليد في أستراليا، تضمن ملاحظة بأنّ نشاطات موران «تضمّنّت العمل لشركة علاقات عامة أمريكية متعاقدة مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في مجال الحملات الدعائية ضدّ الدكتاتورية... مؤسس الشركة جون ريندون طار من الولايات المتحدة إلى أستراليا لحضور جنازة السيّد موران في أدليد يوم الأربعاء. صديق مقرب، روب بوكان، قال أن وجود السيّد ريندون - مستشار لمجلس الأمن القومي الأمريكي - يبيّن مدى التقدير والاعتبار الذي يحظى به السيّد موران في الدوائر السياسية الأمريكية، بما في ذلك الكونجرس».⁽²⁸⁾

في مارس/آذار 2002، كتب سيمور هيرش في النيويورك تايمز أنّ مجموعات

مدعومة من المؤتمر الوطني العراقي «تقوم بعمليات تخريب داخل العراق، مستهدفة مصافي النفط وتجهيزات أخرى. آخر هجوم حدث في الثالث والعشرين من يناير/كانون الثاني، كما أخبرني مسؤول في المؤتمر الوطني العراقي، وذلك حين أصابت صواريخ أطلقها من سماءهم "منشقين أصليين" مجمع مصفاة البعجة الكبير الواقع شمال بغداد، مما تسبب في اشتعال النيران التي استمرت لأكثر من اثنتي عشرة ساعة». على أية حال، أضاف هيرش، «النزاع على مدى الفائدة المحتملة من الجليبي يُشغل الدوائر البيروقراطية». في أحد جانبي ذلك النزاع تقف «القيادة المدنية في وزارة الدفاع الأمريكية التي تصرّ باستمرار أن المؤتمر الوطني العراقي هو الوحيد الذي يمكن أن يقود المعارضة». وفي الجانب الآخر يقف «منتقدو المؤتمر الوطني العراقي الذين يلاحظون أنّ الجليبي، بالرغم من سنوات من الجهود المبذولة وملايين الدولارات من المساعدات الأمريكية، مكروه جداً اليوم بين العديد من العناصر والجهات في العراق».⁽²⁹⁾

على الرغم من تلك المخاوف، أضاف هيرش «بأنّ مؤيدي المؤتمر الوطني العراقي في الإدارة وحولها، ومن ضمنهم بول وولفوفيتز وريتشارد بيرل، اللذين يعتقدان، مثل الجليبي، بأنّ أيّ عرض للقوة سيسبّب ثورة فورية ضدّ صدام في العراق، وأنّ تلك الثورة ستتوسّع بسرعة».⁽³⁰⁾ وولفوفيتز وبيرل مالا إلى الجليبي جزئياً لأنه كان أحد بضعة أشخاص من أعضاء المعارضة العراقية الذين يشاركونهما رؤيتهما المستقبلية للعراق. في سبتمبر/أيلول 2002، ذكرت إنتلجنس أونلاين، وهي نشرة أخبار دولية للدبلوماسيين والسياسيين ومدراء الشركات، أن هناك «إنشقاق واضح» بين المؤتمر الوطني العراقي الذي يقوده الجليبي وبين المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وهو المجموعة الرئيسية الأخرى في المعارضة. المجموعتان اختلفتا على مسألة «كيفية الإمساك بثروة العراق النفطية. المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في

العراق، المدعوم من إيران، يعتقد بأن الثروة النفطية يجب أن تؤمّم وتدار لمصلحة طوائف البلاد المختلفة... أما المؤتمر الوطني العراقي، من جهته، فيرى وجوب تشكيل ائتلاف من شركات خاصة كي يبدأ باستكشاف واستخراج النفط. الائتلاف المذكور يتضمّن بعض أكبر شركات النفط في العالم، مثل شيفرون تكساكو، إكسون موبيل وبي بي» - بالإضافة إلى شركات نفط أخرى من فرنسا وروسيا، إذا وافقتا في مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة على التصويت لصالح قرار الحرب على العراق.⁽³¹⁾

في ديسمبر/كانون الأول 2002، كتب روبرت دريفوس أن إدارة بوش فضلت التحليل الذي قدّمه المؤتمر الوطني العراقي حول الثروة النفطية العراقية على التحليل الذي قدمته وكالة المخابرات المركزية. «حتى مع انشغالها بالاستعداد للحرب ضدّ العراق، اصطفت قوى وزارة الدفاع الأمريكية على جبهة ثانية: حربها ضدّ وكالة المخابرات المركزية»، كتب دريفوس. «وزارة الدفاع الأمريكية تمارس ضغطاً مستمراً للتأثير على الوكالة كي تضع تقارير استخباراتية أكثر مساندة للحرب على العراق... يقال بأن الروح المعنوية داخل أجهزة الأمن كانت منخفضة، مع تنامي المخاوف من فقدان الوظائف والضغط المتزايد لتبرير الدفع نحو الحرب». معظم المعلومات المزيفة المؤيدة للحرب أتت من المؤتمر الوطني العراقي، بالرغم من أنّ «معظم المتخصصين بشؤون العراق من ذوي التجربة الطويلة في التعامل مع السياسة الصاخبة لذلك البلد يعتبرون أن قدرات المؤتمر الوطني العراقي على جمع المعلومات الاستخباراتية تكاد تكون لا شيء تقريباً... منتقدو وزارة الدفاع الأمريكية يحذّرون من أن المعلومات الاستخباراتية التي قدمها المؤتمر الوطني العراقي قد تشكّل القرارات الأمريكية حول دخول الحرب ضدّ بغداد. في وكالة المخابرات المركزية وفي وزارة الخارجية، يُنظر إلى أحمد الجلبي، زعيم المؤتمر الوطني العراقي، على أنه رئيس لمنظمة فاسدة لا فائدة منها وهي

ماهرة في حشد الضغط وتأمين العلاقات العامة، وليس أكثر من ذلك».⁽³²⁾
 «استخبارات [المؤتمر الوطني العراقي] ليست موثوقة مطلقاً»، قال فنسنت كانيسترازو، أحد كبار مسؤولي وكالة المخابرات المركزية السابقين والخبير في مكافحة الإرهاب. «معظمها ليس سوى دعاية. معظمها يقول لوزارة الدفاع ما تريد سماعه. ومعظمها يهدف لدعم طموحات الجلبي الرئاسية الخاصة. وهم لم يقوموا بأي تمييز بين الاستخبارات والدعاية، ويستخدمون المخبرين المزعومين والفارين الذين يقولون ما يطلب منهم الجلبي أن يقولوه، [يختلفون] المعلومات المفبركة التي تتجه مباشرة إلى خطب الرئيس ونائب الرئيس».⁽³³⁾

لجنة احتلال العراق

في نوفمبر/تشرين الثاني 2002، فور انتهاء الانتخابات النصفية، بدأ موظفو البيت الأبيض بالعمل على تشكيل مجموعة جديدة، «لجنة تحرير العراق». لجنة تحرير العراق كانت في الحقيقة وجهاً آخر لمشروع القرن الأمريكي الجديد، فاللجنة المذكورة تضم العديد من نفس أعضاء «مشروع القرن الأمريكي الجديد» وتعمل بالتنسيق الوثيق مع «معهد أمريكي إنتربرايز»، وهو البؤرة الفكرية المحافظة التي استأجر منها «مشروع القرن الأمريكي الجديد» مقره ومكاتبه.⁽³⁴⁾

بيان مهمة «لجنة تحرير العراق» قال أن المجموعة «شُكِّلَت للترويج للسلام الإقليمي والحرية السياسية والأمن الدولي عبر استبدال نظام صدام حسين بحكومة ديمقراطية تحترم حقوق الشعب العراقي وتتوقف عن تهديد المجتمع الدولي».⁽³⁵⁾ ممثلو لجنة تحرير العراق أوضحوا بجلاء أنهم يريدون قلب نظام صدام حسين، بغض النظر عما يجده أو لا يجده مفتشو الأسلحة داخل العراق. «المشكلة في العراق ليست أسلحة صدام حسين فقط - المشكلة هي نظام صدام حسين»، كما جاء في موقع «لجنة تحرير العراق» على شبكة

الوب.⁽³⁶⁾ استعملت المجموعة لغة إنسانية في موقعها على شبكة الإنترنت وكافحت كي تظهر وكأنها جهد مشترك بين الحزبين، وذلك عبر إدراج بضعة أسماء لديمقراطيين من ذوي الحضور البارز كأعضاء في اللجنة، ومن ضمنهم جوزف ليبرمان وبوب كيربي. عموماً، وعلى أية حال، قيادات اللجنة ومنتسبها كانوا بالتأكيد من المحافظين ومن العاملين في المجال العسكري من ذوي الميول المتطابقة مع إدارة بوش. رئيس «لجنة تحرير العراق» راندي شوينمان وهو جمهوري يتمتع بصلات واسعة وكان مستشاراً عسكرياً وخبيراً في شؤون السياسة وعمل سابقاً كمستشار أمن قومي لعضوي مجلس الشيوخ ترينت لوت وبوب دول. كما أن شوينمان امتلك أيضاً شركة «أوريون إستراتيجيست»، وهي شركة علاقات عامة صغيرة لها ارتباطات وثيقة بالحكومة.⁽³⁷⁾

«لجنة تحرير العراق» قالت عن نفسها أنها «كيان مستقل»، لكنها خطّطت كي «تعمل بالتنسيق مع الإدارة»، كما ذكر بيتر سليفين في الواشنطن بوست. «في الوقت الذي كانت تبين فيه استطلاعات الرأي تراجع الحماس والتأييد لهجوم عسكري تقوده الولايات المتحدة على صدام حسين، كان المسؤولون الكبار يحثّون صنّاع الرأي على التركيز على ردود أفعال صدام حسين على قرار الأمم المتحدة المتعلق بالتفتيش عن الأسلحة - والتركيز على عيوبه القديمة والحديثة. كانوا يهدفون لاستعادة الزخم وتهيئة الأساس السياسي لإبعاده بالقوة عن الحكم، إذا دعت الضرورة».⁽³⁸⁾ وطبقاً لما قاله وزير الخارجية الأمريكي السابق جورج شولتز، الذي ترأّس المجموعة الاستشارية للجنة تحرير العراق، فإن اللجنة كانت «تحصل على الكثير من المساندة من البيت الأبيض». في 15 نوفمبر/تشرين الثاني، اجتمع أعضاء «لجنة لتحرير العراق» في البيت الأبيض مع مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس. صحيفة النيويورك تايمز قالت أنّ مجموعة «الصفور» المتشدّدة، «شكّلت

بموافقة ضمنية من البيت الأبيض»، وكانت تبحث عن تمويل إضافي لنشاطاتها التي تتضمن «الاتصال بالصحفيين، إقامة ولائم العشاء لمسؤولي الإدارة والاجتماع بالهيئات التحريرية» في كافة أنحاء البلاد.⁽³⁹⁾

«كما أنها تشجّع أعضائها أيضاً على إلقاء المحاضرات في مختلف أنحاء الولايات المتحدة، وخلق الفرص لاختراق الأسواق الإعلامية المحلية»، كما جاء في مجلة بي آر وييك. «أعضاء اللجنة كانوا قد أجروا مقابلات على قناة إم إس إن بي سي وقناة فوكس نيوز، وظهرت مقالاتهم في الواشنطن بوست والنيويورك تايمز».⁽⁴⁰⁾

«لجنة تحرير العراق» لم تكن المجموعة الوحيدة التي تدفع بشدة نحو الحرب علناً وعلى رؤوس الأشهاد. ذكرت مجلة بي آر وييك أيضاً أن ما سمي «مجموعة الدبلوماسية العامة من أجل العراق»، وهي مبادرة من وزارة الخارجية الأمريكية، كانت توفر التدريب الإعلامي للمعارضين العراقيين لكي يصبحوا قادرين على «المساعدة في تقديم الحجج لإدارة بوش بغية إزالة صدام حسين».⁽⁴¹⁾ تلقى العراقيون المناهضون لصدّام تدريباً لمساعدتهم ليظهروا في حالة جيّدة في برامج الحوارات ويلقوا الخطب ويكتبوا في زوايا الرأي في الصحف. «سنضعهم على الخطّ الأمامي من جبهة الفوز بقلوب وعقول العامة»، قال مسؤول في وزارة الخارجية واقتبس قوله في صحيفة لوس أنجلوس تايمز. «أن ينهض الأمريكيون ليتحدّثوا عن تغيير النظام في العراق، هذه مسألة؛ لكن المسألة تصبح مختلفة جداً حين يتحدث العراقيون عن ذلك».⁽⁴²⁾ بالإضافة إلى إعطاء النصائح حول «كيفية» التحدث بفعالية، أعطت وزارة الخارجية العراقيين المنشقين أيضاً الاتجاه الذي ينبغي أن يسلكوه فيما يقولون. «الرسالة هي الديمقراطية. إنّ الرسالة هي المطالبة بانتخابات حرة ومفتوحة. الرسالة التي نحملها هي ما لدينا في اللائحة الأساسية لحقوق الإنسان»، كما نقلت مجلة بي آر وييك عن الناطقة بلسان

وزارة الخارجية.⁽⁴³⁾

محمد أشيقر، العضو في هيئة «المنتدى العراقي للديمقراطية»، كان أحد المتدربين في وزارة الخارجية. «العراقيون في المنفى لم يستغلوا جيداً الفرص الإعلامية المتاحة»، أوضح أشيقر. «قد نتعثر وننتظر ونقول حسناً، أعني ما الفائدة - كل شخص يعرف أنه [صدام حسين] مجرم، إذن ما الفائدة إذا أضفنا فقط قصة أخرى أو جريمة أخرى؟ لكن لكل شيء حساب! ... إذا استمرينا بالطرق على نفس المسمار، فسيجد ذلك المسمار طريقه».⁽⁴⁴⁾

«سيرحب العراقيون بالقوات الأمريكية التي ستحررهم»، قال الجلي رئيس «المؤتمر الوطني العراقي» في مقابلة مع محطة إن بي سي في 21 مارس/أذار 2003، بعد فترة قصيرة من بداية الحرب. «أنا لا أعرف ما إذا كان هناك عدد كافٍ من أتباعي ليفعلوا ذلك الآن، لكنني أعتقد أنهم سيكونون سعداء لرؤية الأمريكيين الآتين لمساعدتهم في تحرير أنفسهم والتخلص من صدام»، أضاف الجلي.⁽⁴⁵⁾

ثّقوا بنا، نحن خبراء

بالإضافة إلى «لجنة تحرير العراق»، و«مشروع القرن الأمريكي الجديد» و«معهد أمريكي إنتربرايز»، شاركت عدة منظمات أخرى في الحملة المؤيدة للحرب. ومن ضمن الذين شاركوا «مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية»، «معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى»، «منتدى الشرق الأوسط»، «معهد هرسون» و«معهد هوفر»، وكلّ من تلك الأطراف يتداخل الواحد منها بالآخر من خلال العضوية والمصالح المشتركة. الأمر البارز المشترك بين تلك الجهات كان تعاونها مع شركة بينادور وشركاه التي تديرها إلينا بينادور، المولودة في البيرو التي أصبحت لغوية ماهرة بالتدريب. شركة بينادور وشركاه هي شركة علاقات إعلامية عالية المستوى عملت فيما يشبه وكيل الحجز للخبراء

في شؤون الشرق الأوسط والإرهاب. استطاعت بينادور تسليط الضوء بشدة على زبائنها ليتحدثوا في البرامج التلفزيونية الرئيسية وفي غير ذلك من مناسبات الحديث الأخرى، ونجحت في نشر ما يقولونه في كبريات الصحف. أدرجت في موقعها على شبكة الإنترنت العشرات من المتكلمين، والعديد منهم لعب دوراً بارزاً في تشكيل مسار النقاشات العامة حول السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. لائحة زبائنها تضمّنت:

- ماكس بووت، كاتب مقالات افتتاحية ومحرر في صحيفة الـوول ستريت جورنال ومؤلف كتاب «الحروب الوحشية من أجل السلام: الحروب الصغيرة وصعود القوة الأمريكية». وطبقاً لما جاء في مجلة ببلشير ويكلي، التي راجعت الكتاب، فإن «لديه سمعة كمجادل ناري الأسلوب وإمبريالي لا يخلج».
- أرناود دي بورشغريف، محرر في صحيفة الواشنطن تايمز اليومية المحافظة، وهي الصحيفة التي يملكها القسّ صن مايونغ موون زعيم ما يسمى «كنيسة التوحيد».⁽⁴⁶⁾ دي بورشغريف يدير أيضاً «المشروع العالمي للجريمة المنظّمة» في «مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية».
- ألكسندر هيغ الابن، وزير الخارجية الأمريكي السابق في عهد رونالد ريغان وعضو «معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى».
- تشارلز كراوثامر، معلق صحفي محافظ يساهم في بعض الصحف والمنشورات، ومن ضمنها الواشنطن بوست وويكلي ستاندارد.
- مايكل أي. ليدن، زميل آخر في «معهد أمريكان إنتربرايز» وشخصية بارزة في فضيحة إيران - كونترا في عهد إدارة ريغان، وهو الذي ساعد على التوسّط في عقد اتفاق الأسلحة السري الشهير بين الولايات المتّحدة وإيران.⁽⁴⁷⁾
- جوديث ميلر، مراسلة في صحيفة النيويورك تايمز.

▪ لوري ميلوري، مؤلفة «دراسة الإنتقام: حرب صدام حسين التي لم تكتمل ضد أمريكا»، والتي نشرت قبل سنة من هجمات 9/11 وزعمت فيها أن صدام حسين كان وراء تفجير 1993 لمركز التجارة العالمي. حين قادت الولايات المتحدة حرب الخليج الأولى، ميلوري وميلر اشتركتا في وضع كتاب بعنوان «صدام حسين والأزمة في الخليج».

▪ ريتشارد بيرل، مؤيد مخضرم لحرب واشنطن الباردة، وهو مستشار لدى إدارة بوش وزميل «معهد أمريكيان إنتربرايز» وعضو مؤسس في مجموعة «مشروع القرن الأمريكي الجديد».

مثل كل زبائن بينادور الآخرين ، دعمت لوري ميلوري بصوتها وقلمها الحرب على العراق عام 2003 - وهو موقف يتناقض تماماً مع الموقف الذي اتخذته عام 1987، حين انضمت إلى دانيال بيبس ليشتركا في تأليف مقالة لصحيفة نيوريبيليكان بعنوان «ادعموا العراق: حان الوقت لتميل أمريكا». مساندة العراق كانت السياسة الصحيحة، يجادل ميلوري وبابيس مدافعين عن وجهة نظرهما في ذلك الوقت، لأن «سقوط النظام القائم في العراق سيرزيد التأثير الإيراني كثيراً، مما يعرض إمدادات النفط للخطر، ويهدد الأنظمة الموالية لأمريكا في كافة أنحاء المنطقة، وسيخل بالتوازن العربي الإسرائيلي... مساعدة العراق عسكرياً قد تمهد لواشنطن الطريق الأفضل من أجل استعادة موقعها في طهران... العراق الآن هو الحامي الحقيقي للوضع الإقليمي الراهن... إذا كان ميلنا نحو العراق متبادلاً، علاوة على ما تقدم، فقد يؤدي ذلك إلى وضع القاعدة لعلاقة مثمرة على المدى الطويل».⁽⁴⁸⁾

أثناء العمل والانشغال بالاستعداد للحرب عام 2003، حظي زبائن بينادور بمقدار استثنائي من التركيز الإعلامي. فبالإضافة إلى الظهور في المنتديات الحوارية على شاشات التلفزة، مثل أي بي سي، إم إس إن بي سي، سي إن إن وفوكس نيوز، نشر هؤلاء الكتب والمقالات، وشهدوا أمام اللجان التابعة

للكونجرس، وظهروا كثيراً كضيواف في مآذب الغداء في واشنطن. «أعتقد أننا نستطيع القول بأمانة أننا استعملنا كل شخص من الموجودين على قائمتها»، قال تونكو فاراداراجان، محرر صفحة الرأي في صحيفة الـول ستريت جورنال، ثم أضاف أن بينادور كانت تستدعيه كل يوم تقريباً.⁽⁴⁹⁾

وكما لاحظ الصحفي البريطاني براين ويتيكير في أغسطس/آب 2002، فإن الاهتمام الذي حظي به هؤلاء كان ملفتاً جداً بالمقارنة مع الاهتمام الطفيف الذي أولته أجهزة الإعلام وصنّاع السياسة لأكثر من 1400 أستاذ جامعي متفرغ من المتخصصين في الدراسات الشرق أوسطية في الجامعات الأمريكية. «أولئك الذين يعملون لصالح مراكز اتخاذ القرار الأمريكي غالباً ما تُسبغ عليهم الألقاب ذات النمط الجامعي مثل "زميل متقدم"، أو "باحث"، لكن أبحاثهم مختلفة جداً عن الأبحاث التي تتم في الجامعات - فهي موجهة كلياً نحو رسم السياسة الحكومية»، قال ويتيكير. «ما لا يعرفه أحد خارج مراكز اتخاذ القرار، على أية حال، هو من الذي يدفع ثمن تلك الأبحاث التي تُشكّل مسار السياسة».⁽⁵⁰⁾

بالإضافة إلى العمل كوكيل حجز، ساعدت بينادور زبائننا على توضيب وإعداد رسائلهم الفكرية. عامي 2002 و2003، على سبيل المثال، نصحتهم بالتقليل من مقدار حماسهم لغزو الدول "ما عدا العراق". بينادور وعدد من زبائننا - ومن ضمنهم ليدن، بيرل، وبايبس - هم أعضاء أيضاً في «اللجنة الأمريكية لتحرير لبنان»، التي تدعو لاستعمال «القوة العسكرية الطاغية، غير المتكافئة وغير الجراحية» ضد الحكومات بما في ذلك إيران، ليبيا، سوريا والسودان.⁽⁵¹⁾ بعد فترة قصيرة من شن الحرب على العراق، في مارس/آذار 2003، أجرى جوهانغان من صحيفة نيويورك أوبزرفر مقابلة مع بينادور حول عملها ولاحظ بأن «عملها لم يكن فقط تلقي الاتصالات الهاتفية لصالح زبائننا، بل أحياناً المساعدة على تلميع الرسالة التي يؤدونها»:

«هناك بعض الأشياء التي يجب أن تذكرها على نحو مختلف فحسب، على نحو مختلف قليلاً»، قالت بينادور. وقد وصفت اجتماعاً تم مع منظمة جديدة كانت تخطط لمعرفة أي نظام من الأنظمة الخطرة سيكون التالي بعد التدخل الأمريكي في العراق.

«قالوا أن جدول أعمالهم هو معرفة من سيكون التالي بعد العراق»، قالت. ثم أضافت، «وأنا قلت، "أنا لا أعتقد أن ذلك هو الموقف الصحيح، لأن طرح سؤال "من هو التالي؟" يوحي بأنكم تطلبون مزيداً من الحروب!». وقلت، لذلك يمكنك أن تسأل، "ما هي الخطوة التالية؟ ماذا سيحدث في المرة القادمة؟"، لذلك جعلتهم يغيرون طريقة طرح بعض الشيء.

«أنظر، إنها مجرد كلمة صغيرة»، قالت، «لكنها تحدث فرقاً كبيراً. وما لم نقوم بتغيير طريقة الطرح، فسيصاب الناس بالخوف. وتلك ليست هي النقطة المطلوبة. أنا أعتني فقط بالتفاصيل الصغيرة. أحاول العمل على تفادي وقوع الناس في مشكلة وأحاول جعل التواصل أسهل قليلاً».⁽⁵²⁾

عودة المكبوتين

في هذه الأثناء، قبل يومين من انهيار نظام صدام حسين في بغداد، ذكرت النيويورك تايمز أن «المؤتمر الوطني العراقي» - المنظمة التي اختارت لها الاسم بمنتهى العناية وشكلتها مجموعة ريندون قبل 11 عاماً - عادت إلى البلاد. «مئات المقاتلين العراقيين المناوئين لصدام حسين نقلوا جواً إلى جنوب العراق لمحاربة بقايا جيشه، والأكثر أهمية من ذلك، ليكونوا بمثابة الطليعة لجيش وطني جديد»، كما جاء في مقالة النيويورك تايمز.⁽⁵³⁾

«هؤلاء المواطنين العراقيين الذين يريدون الكفاح من أجل عراق حر، هم الذين سيصبحون الأساس والنواة للجيش العراقي الجديد بعد تحرير العراق»، قال الجنرال بيتر بيس، نائب رئيس هيئة الأركان المشتركة.⁽⁵⁴⁾

«القوات العراقية الحرة»، التي ترتدي اللباس الصحراوي العسكري الأمريكي والتي نُقلت جواً إلى قاعدة جوية أمريكية مؤقتة قرب الناصرية، لم تكن قوات التحرير المثالية التي تتخيلها. أولاً، لم تكن هناك أية تقارير تُثبت أنهم انخرطوا في أي معركة حقيقية، أو أنهم كانوا قادرين حتى على ذلك. مراسل صحيفة نايت ريدر، سودارسان راغافان وصفهم على النحو التالي: كانوا من الصغار الذين لم يتجاوزوا الثامنة عشرة ومن المسنين الذين تجاوزوا الخامسة والخمسين. نصفهم تقريباً أتى من الولايات المتحدة، بريطانيا، إيران، النرويج، كندا، الأردن، وعدد من الدول الأخرى. حفنة منهم جاءوا مع نسائهم وأطفالهم.

بعضهم فقد أسنانه ولحيته شهباء. آخرون بطونهم متدلية وينفثون دخان السجائر بينما ينبح العرفاء بالأوامر.

«هؤلاء ليسوا "فيرماخت" (قوات مسلحة، بالألمانية)»، قال زاب سيثنا، كبير مستشاري زعيم «المؤتمر الوطني العراقي» أحمد الجبلي، بالإشارة إلى الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية. وأضاف، «لكن معنوياتهم عالية، طاقتهم مرتفعة».

[القوات العراقية الحرة] هي الجناح العسكري للمؤتمر الوطني العراقي، إحدى المجموعات الست التي تتنافس على قيادة العراق الجديد. الجبلي، المصرفي اللندني، يظل قابلاً في مخزن مبرد في القاعدة العسكرية وإلى جانبه ابنته تامارا المتخرجة من هارفارد ومساعدية.

بعد قيامهم بدورية في قرية مجاورة، أحاط المقاتلون المبتهجون بالجبلي وغنّوا: «الدم يسري في أرواحنا. نحن سنعوّضك، يا دكتور جبلي».⁽⁵⁵⁾

الجبلي، الذي كانت عودته تلك هي الفرصة الأولى لدخوله بغداد منذ خروجه إلى المنفى عام 1958، أقام مقراً عاماً له في «نادي الصيد»، وهو مربع خاص كان سابقاً النادي الخاص لعدي ابن صدام حسين. «لست مرشحاً لأي

منصب في الحكومة المؤقتة»، قال الجليبي. وأضاف، «دوري هو أن أعيد بناء العراق».⁽⁵⁶⁾ على أية حال، وبالتزامن مع ذلك، بدأ مكتبه يأخذ بهارج وصفات الحكومة المنتظرة، حيث بدأت حشود المراجعين تأتي طالبة الوظائف والخدمات. «يعتقدون أن الجليبي، الذي عاد إلى الوطن في الأسبوع الماضي بعد سنوات طويلة قضاها في المنفى، هو رجل أمريكا في بغداد»، كما جاء في الواشنطن بوست. «الجليبي يبدو أكثر من راغب للعب هذا الدور. فهو يقضي وقته في اجتماعات مع وفود من زعماء العشائر ورجال الأعمال وحتى مع أعضاء في نظام صدام حسين المخلوع، وهؤلاء جميعاً يحاولون حل مشاكلهم. السلطة التي يتصرف على أساسها الجليبي ليست واضحة، لكن أيضاً، لا شيء واضح في العراق المضطرب عقب الحرب. لديه ضابط اتصال من القيادة المركزية للجيش الأمريكي، مما يشير إلى أنه لم يفقد رعاية وزارة الدفاع الأمريكية».⁽⁵⁷⁾

بعد أن تلاشت الحرب، بدأ اسم الجليبي بالبروز في مزيد من الأمكنة. قيل أن مسؤولين كبار في نظام صدام حسين كانوا يستسلمون إلى أعضاء المؤتمر الوطني العراقي المرتبطين بوحدات الشؤون المدنية الأمريكية. في مدينة الموصل، قالت النيويورك تايمز، «بدأت الأحزاب السياسية العراقية بفتح المكاتب الجديدة هذا الأسبوع. لكن مجموعة واحدة فقط [الجليبي] تشارك جنود القوات الخاصة الأمريكية الإقامة في القاعدة العسكرية، ولديها جيش خاص دربه الأمريكيون ويقوم بحراسة مستشفى محلي إلى جانب القوات الأمريكية».⁽⁵⁸⁾

في مايو/أيار، قال مساعد الجليبي، فرانسيز بروك - المستخدم السابق لدى مجموعة ريندون - أن الجليبي قد يرضخ، بعد كل شيء، أمام الضغط الشعبي ويوافق على أن يصبح رئيساً للعراق». «جورج واشنطن رفض ذلك عدة مرات»، قال بروك، دون سخرية على ما يبدو. وأضاف، «لن أفاجأ إذا أقنعه

الشعب العراقي». ⁽⁵⁹⁾ في 5 مايو/أيار، سمّى الجنرال الأمريكي جاي غارنر الجليبي كأحد خمسة عراقيين يحتمل أن يُعينوا كنواة لحكومة جديدة مؤقتة. ⁽⁶⁰⁾

3. أكاذيب حقيقية

خلال مؤتمر صحفي موجز، بعد أسبوعين على هجمات 11 سبتمبر/أيلول الإرهابية، جرى حوار بين وزير الدفاع دونالد رمسفيلد وأحد المراسلين، وهو حوار يستحق أن نقتبس منه بعض التفاصيل. ضمن سياق «الحرب على الإرهاب»، سأل المراسل، «هل ستكون هناك أية ظروف، باعتبارك ستشرف على هذه الحملة، يُعطى فيها الإنز لأحد في وزارة الدفاع ليكذب على وسائل الإعلام لزيادة فرص نجاح عملية عسكرية ما أو لتحقيق مكاسب أخرى على خصوصك؟».

أجاب رمسفيلد:

بالطبع، هذا يستحضر عبارة وينستون تشرشل المشهورة عندما قال - حسناً، لا تقتبس مني ذلك. لا أريد أن يقتبس مني أحد، لذلك لا تقتبس مني - قال رمسفيلد، أحياناً تكون الحقيقة ثمينة جداً إلى درجة أن يصبح

من الضروري أن تكون مصحوبة بحراسة من الأكاذيب، كان [تشرشل] يتحدث عن تاريخ الغزو وموقع الإنزال، وفي الحقيقة، كانوا مشغولين ليس فقط في أن لا يتحدثوا عن تاريخ الإنزال في النورماندي أو موقعه، وما إذا كان سيتم على شاطئ النورماندي أو في شمال بلجيكا، في الحقيقة كانوا مشغولين بخطة التشويش على الألمان وتضليلهم بالنسبة لمكان حدوث الإنزال. وكان لديهم جيش مزيف بقيادة الجنرال باتن، وشيء واحد آخر. ذلك جزء من التاريخ. وأنا أرويه فقط كخلفية.

الجواب على سؤالك هو لا. أنا لا أستطيع تخيل حالة كتلك. أنا لا أتذكر أبداً بأنني كذبت على الصحافة. وأنا لا أنوي ذلك. ويبدو لي بأنه لن يكون هناك ثمة سبب لذلك. هنالك العشرات من الطرق كي تتجنب وضع نفسك في موقع يضطرك للكذب. وأنا لا أفعلها. وهي [فيكتوريا كلارك] لن تفعلها أيضاً. والعميد كيجلي لن يفعلها.

المراسل: هل ينطبق ذلك على كل شخص في وزارة الدفاع؟
رمسفيلد: لا بد وأنت تمزح. (ضحك).^(١)

بعد أشهر قليلة، ذكرت النيويورك تايمز أن مجموعة جديدة ضمن وزارة الدفاع الأمريكية، «مكتب التأثير الإستراتيجي»، كانت «تضع الخطط لتقديم المواد الإخبارية، التي من المحتمل أن تكون ملفقة، إلى المنظمات الإعلامية الأجنبية». «مكتب التأثير الإستراتيجي» الذي يرأسه العميد سايمون بي. ووردين، كانت لديه ميزانية بملايين الدولارات و«بدأ بتوزيع اقتراحات سرية تدعو إلى شن حملات عدوانية لا تستعمل أجهزة الإعلام الأجنبية والإنترنت فقط، بل العمليات العسكرية السرية أيضاً»، كما ذكرت صحيفة التايمز. «يتصور الجنرال ووردين مهمة واسعة تتراوح من الحملات "السوداء" التي تستعمل التشويش والنشاطات السرية الأخرى إلى الشؤون العامة "البيضاء" التي تعتمد على البيانات الصحفية الموثوقة، كما قال المسؤولون في وزارة

الدفاع الأمريكية. «الحملة تبدأ من أشد البرامج السوداء سواداً وصولاً إلى البرامج البيضاء الأشد نصاعة»، قال أحد كبار مسؤولي وزارة الدفاع الأمريكية.⁽²⁾

الاقتراحات المذكورة سببت جدلاً حتى ضمن المؤسسة العسكرية، حيث أبدى منتقدوها قلقهم من أنها قد تقوّض مصداقية وزارة الدفاع الأمريكية وتمحو الحدود الفاصلة بين العمليات العسكرية السريّة والعلاقات العامة. علاوة على ذلك، المعلومات المضلّلة المزروعة في الوسائل الإعلامية الأجنبية يمكن أن تنشر وتذاع وتصل إلى المشاهدين الأمريكيين. أثار تقرير التايمز ضجة في الكونجرس وأدّى إلى ظهور افتتاحيات صحفية غاضبة. خلال أسبوع، أغلق البيت الأبيض «مكتب التأثير الإستراتيجي»، وأنكر وجود أية نية لاستعمال التضليل على الإطلاق. وزير الدفاع دونالد رمنسفيلد زعم أنّه «لم ير حتى قانون إنشاء المكتب»، وذلك بالرغم من أنّ المدير المساعد لشؤون العمليات في «مكتب التأثير الإستراتيجي» قال عكس ذلك.⁽³⁾

في الحقيقة، بدا رمنسفيلد شديد الاهتمام حول الإبقاء على وظائف المكتب الذي يزعم أنه لم ير أبداً قانون إنشاءه. بعد تسعة أشهر، أبدى الملاحظة التالية على متن الطائرة التي أقلته إلى تشيلي: «ثم كان هناك «مكتب التأثير الإستراتيجي». قد تتذكّر ذلك. أوه، يا إلهي، أليس ذلك فظيلاً، ستنطبق السماء على الأرض. في اليوم التالي ذهبت وقلت لهم حسناً، إذا كنتم تريدون القضاء على هذا الشيء، حسناً، أنا سأسلمكم الجثة. هناك الاسم. يمكنكم أن تأخذوا الاسم، لكنني سأتابع القيام بكلّ شيء تتطلب الضرورة القيام به، وقد فعلت».⁽⁴⁾

أم كل الأكاذيب

تشويه الحدود بين الحقيقة والأسطورة لم يبدأ بالتأكيد مع إدارة بوش الحالية. التضليل كان جزءاً من الحرب على الأقل منذ أيام الأسكندر العظيم، الذي ألقى الدروع الهائلة الحجم في أعقاب قواته المتراجعة لإقناع العدو بأن جنوده كانوا عمالقة. إن قصة خدعة الأسكندر الصغيرة تُدرّس عادة في اليوم الأول من أيام تدريب الجنود الذين يتلقون التدريب على عمليات الحرب النفسية (التي تُختصر في أغلب الأحيان بمصطلح «العمليات النفسية»).

جاء في إحدى الوثائق العائدة للقوات الجوية الأمريكية، والتي ترجع إلى العام 1998 وتحمل عنوان «العمليات المعلوماتية»، أن «العمليات المعلوماتية تنطبق على مختلف أنواع العمليات العسكرية، من السلام إلى جميع أنواع النزاعات... ومن المهم التشديد على أن "حرب المعلومات" هي عبارة عن بنية تعمل عبر الطيف، من السلام إلى الحرب، وذلك من أجل إتاحة التنفيذ الفعال لمسؤوليات القوة الجوية... تنفيذ العمليات المعلوماتية يتم عبر الهواء والفضاء وعبر الإنترنت ويمر عبر طيف النزاع» (لاحظ الخطاب المزدوج المتعلق بتصنيف "السلام" باعتباره "عملية عسكرية").

«العمليات المعلوماتية» تتضمن أقساماً مختلفة بعنوان «العمليات النفسية»، «الحرب الإلكترونية»، «هجوم المعلومات»، «التضليل المضاد» و«الخدع الحربية». في عالم اليوم، تذكر الوثيقة أن «هناك بنية تحتية معلوماتية متنامية تتجاوز الصناعة وأجهزة الإعلام والجيش وتتضمن كيانات حكومية وغير حكومية في آن معاً. ويمكن تعريف تلك البنية باندماج شبكات وتقنيات المعلومات المدنية والعسكرية... في الواقع، إذاعة الأخبار، البيان الدبلوماسي، والرسالة العسكرية التي تطلب تنفيذ عملية ما، كلّها تعتمد على [بنية تحتية معلوماتية عالمية]». في هذه البيئة، العمليات النفسية «مصممة لحمل معلومات ومؤشرات محددة إلى الزعماء والمشاهدين الأجانب للتأثير على عواطفهم،

دوافعهم، تفكيرهم الموضوعي، وفي النهاية التأثير على سلوكهم»، فيما تؤدي «الخدع الحربية إلى تضليل الأعداء وتجعلهم يتصرفون وفقاً للأهداف التي تناسب مطلق تلك الخدع». وبالتالي، تقول الوثيقة في اقتباس عن صحيفة صن تزو الإستراتيجية العسكرية الصينية، «جميع الأعمال الحربية تعتمد على الخداع».⁽⁵⁾

انتزاع الأطفال الخدج من الحاضنات

قصة «انتزاع الأطفال الخدج من الحاضنات» من قبل الجنود العراقيين ساعدت على حشد الرأي العام ودعمه للحرب الأمريكية الأولى في الخليج. هذه القصة صدّقها الناس على نحو واسع حينما رويت ولم يكذبها أحد حتى بعد أن انتهت الحرب. ومنذ ذلك الحين، تحرّى الصحفيون ومنظمات حقوق الإنسان حقيقة تلك القصة فاستنتجوا أنّ القصة كانت مزيفة. وبعد انكشاف زيفها، أصبحت تلك القصة مضرراً للمثل في سوء التدبير ضمن مجتمع العلاقات العامة نفسه، وذلك بالرغم من أن الكثير من الناس ما زالوا يعتقدون بأنّ القصة صحيحة.

بعد 2 أغسطس/آب 1990، وهو تاريخ احتلال الكويت من قبل العراق، احتاجت الولايات المتحدة للقيام بهجوم التفافي سريع. في ذلك الوقت، كان صدام حسين حليفاً لأمريكا لأكثر من عقد من الزمن تقريباً، وذلك على الرغم من الإدانات المتكررة بحقه من الجماعات الدولية لحقوق الإنسان.

قامت شركة هيل أند نولتون، وهي أكبر شركة للعلاقات العامة في العالم، بدور العقل الموجه لحملة علاقات عامة هائلة لإقناع الأمريكيين بضرورة مساندتهم للحرب لاسترداد ذلك البلد من العراق.⁽⁶⁾ معظم المال الذي أنفق على حملة تسويق الحرب أتى من الحكومة الكويتية التي أصبحت حكومة منفى، والتي وقّعت عقداً مع هيل أند نولتون بعد تسعة أيام من زحف جيش صدام إلى الكويت. قامت شركة هيل أند نولتون بإنشاء مجموعة «مواطنون

من أجل الكويت حر»، وهي واجهة لمجموعة علاقات عامة كلاسيكية صُممت خصيصاً لإخفاء التمويل المالي للحملة من قبل الحكومة الكويتية بالتواطؤ مع إدارة بوش. خلال الأشهر الستة التالية، حوّلت الحكومة الكويتية مبلغ 11.9 مليون دولار لصالح مجموعة «مواطنون من أجل الكويت حر»، التي استطاعت الحصول على مصادر تمويل أخرى من 78 فرداً كويتياً فتجمع لديها مبلغ إجمالي مقداره 17.681 مليون دولار. عملياً ذهبت ميزانية المجموعة بأكملها تقريباً - مبلغ 10.8 مليون دولار - إلى هيل أند نولتون على شكل أجور وأتعاب خدمات.⁽⁷⁾

الوثائق المحفوظة لدى وزارة العدل الأمريكية بيّنت أن 119 مديراً تنفيذياً لدى هيل أند نولتون في 12 مكتباً عبر الولايات المتحدة كانوا يشرفون على سير عمل قضية الكويت. رتبت شركة العلاقات العامة المذكورة لزائرين كويتيين مقابلات مع أجهزة الإعلام ونظّمت «اليوم الوطني للكويت الحر» وعقدت اجتماعات عامة أخرى، ووزّعت الكثير من المعلومات والبيانات الصحفية، وساعدت في توزيع أكثر من 200 ألف نسخة من كتاب أُعدّ على عجل حول الأعمال الوحشية العراقية بعنوان «اغتصاب الكويت» وأوصلت نسخاً من ذلك الكتاب إلى الصحفيين المؤثرين والجنود الأمريكيين.⁽⁸⁾ حجم وكثافة حملة هيل أند نولتون أدهشت حتى مجلة أوداير بي آر سيرفس ريبورت، وهي إحدى أهم المنشورات في مجال صناعة العلاقات العامة. ناشر المجلة جاك أوداير كتب أن هيل أند نولتون «لعبت دوراً في الشؤون الدولية لم يسبق أن لعبت مثله شركة علاقات عامة. هيل أند نولتون استخدمت تشكيلة مذهلة من وسائل تشكيل الرأي العام والتقنيات لكي تساعد على إبقاء الرأي العام الأمريكي إلى جانب الكويتيين... والتقنيات التي استخدمتها تتراوح من المؤتمرات الصحفية المكثفة التي تعرض عمليات تعذيب وانتهاكات أخرى من قبل العراقيين، إلى توزيع عشرات آلاف القمصان القصيرة التي

كُتب عليها "حرّروا الكويت"، إلى وضع الملصقات الكبيرة في المباني الجامعية عبر الولايات المتحدة».⁽⁹⁾

كلّ حدث إعلامي كبير يحتاج إلى ما يسمّيه الصحفيون ووكلاء الدعاية والإعلان على حد سواء «الخطّاف». الخطّاف المثالي يصبح العنصر المركزي في القصة مما يجعلها جذيرة بالنشر، وهو يثير لدى القارئ أو المستمع ردّ فعل عاطفي قوي ويلتصق بذاكرته. بالنسبة للحملة الكويتية، ظهر الخطّاف في 10 أكتوبر/تشرين الأول 1990، حين عقد «المؤتمر التحضيري لحقوق الإنسان» في الكونجرس جلسة استماع في مبنى الكابيتول، وهي الجلسة التي أتاحَت الفرصة الأولى لتقديم العرض الرسمي لانتهاكات العراق لحقوق الإنسان. ظاهرياً، كانت تلك الجلسة تشبه الإجراءات الرسمية في الكونجرس، لكن المظاهر كانت خدّاعة. وبالرغم من أن عضوي الكونجرس توم لانتوس وجون بورتر ترأّسا جلسات «المؤتمر التحضيري لحقوق الإنسان»، إلا أنها لم تكن لجنة رسمية تابعة للكونجرس. بضعة مراقبين فقط لاحظوا أهمية هذا التفصيل. أحد هؤلاء كان جون ماك آرثر، مؤلف «الجبهة الثانية»، الذي يظل أفضل كتاب كُتب عن تلاعب وسائل الإعلام أثناء حرب الخليج الأولى. لاحظ ماك آرثر أن «المؤتمر التحضيري لحقوق الإنسان ليس لجنة من لجان الكونجرس، لذلك فهو غير مقيد بالضوابط القانونية التي تجعل الشاهد يتردّد قبل أن يكذب». ثم أضاف أن «الكذب تحت اليمين أمام لجنة تابعة للكونجرس جريمة؛ أما الكذب تحت غطاء السريّة أمام مؤتمر تحضيري فيعتبر علاقات عامة فقط».⁽¹⁰⁾

الشهادة الأكثر تأثيراً عاطفياً أتت في 10 أكتوبر/تشرين الأول وقدمتها فتاة كويتية في الخامسة عشرة من عمرها، وقد تم تعريف تلك الفتاة باسمها الأول فقط: «نيرة». وطبقاً لمداوولات المؤتمر التحضيري، فقد اتّفق على إبقاء الاسم الكامل للمدعوة نيرة طي الكتمان للحوّول دون الأعمال الانتقامية التي

قد يقوم بها العراقيون ضدّ عائلتها في الكويت الواقع تحت الاحتلال. من بين دموعها ونشيجها، وصفت ما رآته بعينها في أحد المستشفيات في مدينة الكويت. شهادتها المكتوبة مرّرت إلى وسائل الإعلام ضمن رزمة دعائية جاهزة أعدتها مجموعة «مواطنون من أجل كويت حر». «تطوّعت للعمل في مستشفى العدان» قالت نيرة. ثم أضافت، «وبينما كنت هناك، رأيت الجنود العراقيين وقد جاءوا إلى المستشفى بأسلحتهم، ثم دخلوا إلى الغرفة حيث... كان الأطفال الخدّج في الحاضنات. أخرجوا الأطفال الخدّج من الحاضنات، وأخذوا الحاضنات، وتركوا الأطفال الخدّج يموتون على الأرضية الباردة». استمرت في روايتها تلك زاعمة أنّ ذلك قد حدث لـ«مئات الأطفال الخدّج».⁽¹¹⁾

ثلاثة أشهر مرّت بين شهادة نيرة وبداية الحرب. خلال تلك الأشهر، تكرّر سرد قصة انتزاع الأطفال الخدّج من حاضناتهم وأعيدت مراراً وتكراراً. الرئيس بوش نفسه روى القصة. وقد اعتُبرت تلك القصة حقيقة في شهادة أمام الكونجرس، وعلى شاشات التلفزة وفي برامج الحوارات الإذاعية، وفي مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. منظمة العفو الدولية كرّرت تلك المزاعم في تقريرها عن حقوق الإنسان الصادر في شهر كانون الأول/ديسمبر 1990، وذكرت أن «أكثر من 300 طفل حديث الولادة ذُكر أنهم ماتوا بعد أن انتزعهم الجنود العراقيون من الحاضنات، التي نهبوا بعد ذلك».⁽¹²⁾

«من بين جميع الاتّهامات التي قدّمت ضدّ الدكتاتور»، قال ماك آرثر، «لم يكن لأي منها تأثير على الرأي العام الأمريكي أكثر مما فعله اتهام الجنود العراقيين بأنهم انتزعوا 312 طفلاً حديث الولادة من حاضناتهم وتركوهم ليموتوا على أرضيات المستشفى الباردة في مدينة الكويت».⁽¹³⁾

في «المؤتمر التحضيري لحقوق الإنسان»، على أية حال، أخفقت هيل أند نولتون وعضو الكونجرس لانتوس في اكتشاف أن نيرة ليست سوى واحدة من أعضاء الأسرة الكويتية الحاكمة. في الحقيقة، والدها هو سعود ناصر

الصباح، سفير الكويت في الولايات المتحدة، الذي جلس يستمع في الغرفة السمعية أثناء شهادتها. «المؤتمر التحضيري لحقوق الإنسان» أخفق أيضاً في اكتشاف أن نائب رئيس هيل أند نولتون، لوري فيتز بيغادو، هو الذي ابتدع شهادة نيرة ودرّبها عليها.⁽¹⁴⁾

بعد الحرب، حاول محققو حقوق الإنسان التأكد من صحة رواية نيرة فلم يعثروا على أي شهود أو أدلة تُثبت صحتها. جون مارتن مراسل أي بي سي نيوز تونايت زار مستشفى العدان وقابل الدكتور محمد مطر، مدير النظام الأساسي للرعاية الصحية في الكويت، وزوجته الدكتورة فايزة يوسف، التي كانت تدير وحدة التوليد في مستشفى الأمومة. وقد قالوا أن اتهامات نيرة لا أساس لها. في الواقع، كان هناك عدد لا يتجاوز أصابع اليد من الحاضنات في الكويت إجمالاً، وبالتأكيد ليس «المئات» كما زعمت نيرة، ولم ير أحد جنوداً عراقيين يسحبون الأطفال الخدج من الحاضنات. «أعتقد أنه شيء للدعاية فقط»، قال الدكتور مطر.⁽¹⁵⁾

التقرير الصحفي الذي أعده مارتن دفع منظمة العفو الدولية إلى إجراء تحقيق منفصل، وهي التي كانت قد قبلت قصة «انتزاع الأطفال الخدج من حاضناتهم» حين قدّمت نيرة شهادتها. محققو منظمة العفو الدولية وجدوا أن «لا دليل موثوق» يؤيد القصة وتراجعوا عن تقريرهم السابق.⁽¹⁶⁾ «أصبحنا على قناعة... أن القصة المزعومة حول موت الأطفال الخدج بتلك الطريقة لم تحدث على النحو الذي ذكرت فيه بشكل أولي، هذا إذا كانت قد حدثت في الأصل»، قال الناطق باسم منظمة العفو الدولية.⁽¹⁷⁾

«ميدل إيست ووتش»، وهي منظمة أخرى لحقوق الإنسان، أجرت أيضاً تحرياتها حول القصة واستنتجت بأنها كانت خدعة. المدير المساعد لمنظمة «ميدل إيست ووتش»، عزيز أبو حمد، الذي قاد بعد الحرب تحقيقاً استمر لثلاثة أسابيع في الكويت، ذكر أن «البحث الخاص والشامل الذي أجرته

ميدل إيست ووتش أظهر عدم وجود أي دليل يؤيد تلك المزاعم. «بعد تحرير الكويت، زرنا كلّ المستشفيات الكويتية التي قيل أن تلك الحوادث جرت فيها. قابلنا الأطباء والمرضات والمدراء ودققنا في سجلات المستشفيات. زرنا المقابر أيضاً وتفحصنا سجلات مكاتب تسجيل الموتى. ورغم أننا وجدنا دلائل كافية على أعمال وحشية عراقية في الكويت، إلا أننا لم نعثر على أي دليل يؤيد الزعم بأن الجنود العراقيين سحبوا أطفالاً خدّج من الحاضنات وتركوهم ليموتوا. الشهود الحكوميون الكويتيون الذين أكدوا أثناء الاحتلال العراقي للكويت صحة قصة الحاضنات إما أنهم غيروا رواياتهم أو أنكروها. إن اختلاق الروايات المزيفة حول الأعمال الوحشية يسبب أذى عميقاً لأوضاع حقوق الإنسان. إن ذلك يحوّل الانتباه عن الانتهاكات الحقيقية التي ارتكبتها القوات العراقية في الكويت، بما في ذلك قتل المئات وحجز آلاف المواطنين الكويتيين وغير الكويتيين، الذين لا يزال المئات منهم مفقودين».⁽¹⁸⁾

خدمة الحقيقة المطلقة

لماذا تُلّفَق القصص حول الأعمال الوحشية حين يقدّم نظام صدام حسين العديد من أمثلة القصص الصحيحة؟ ليس هناك نقص في الأدلة التي تثبت بأنّه دكتاتور وحشي مسؤول عن تعذيب وموت الآلاف - في الحقيقة، مئات الآلاف من الناس الأبرياء.

أحد التفسيرات قد يكون هو أن تلك القصص حول «قتلة الأطفال الخدّج» هي بمثابة المشبك للدعاية الحربية. خلال الحرب العالمية الأولى، على سبيل المثال، نشر الفرنسيون والبريطانيون قصصاً (لم تُوثّق أو تتبين صحتها) تزعم أنّ الجنود الألمان طعنوا طفلاً في الثانية من عمره و«قطعوا ذراعي الطفل الرضيع الذي تعلّق بثياب أمّه» - وهي قصة تمت زخرفتها أكثر حين نشرت صحيفة فرنسية رسماً تعبيرياً يصوّر الجنود الألمان وهم يأكلون يدي الطفل».⁽¹⁹⁾

إذا كان هدف مخططي الحرب الأمريكيين هو تعليق علامة «قاتل الأطفال» حول عنق صدام، إذًا، كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك بأمانة. نسبة النساء والأطفال هي 75 بالمائة من الأشخاص الذين لقوا حتفهم، والمقدّر عددهم بخمسة آلاف شخص، حين هاجمت قوات صدام بالغازات السامة المواطنين العراقيين الأكراد في قرية حلبجة عام 1988. المشكلة هي أن أحداث حلبجة وغيرها من حالات استخدام الأسلحة الكيميائية حدثت في الوقت الذي كان فيه العراق يتلقى الدعم العسكري والاقتصادي من الولايات المتحدة. «بكل المقاييس، السجل الأمريكي فيما يتعلق بحلبجة مخزٍ جداً»، قال جوست آر. هيلترمان من منظمة «هيومن رايتس ووتش»، والذي أجرى تحقيقاً واسعاً حول حادثة حلبجة. في الحقيقة، وزارة الخارجية الأمريكية غطت النظام العراقي إلى درجة أنها «أمرت دبلوماسيها بالقول أن إيران تتحمل جزءاً من المسؤولية. ونتيجة لهذا السلوك السفسطائي المذهل أخفقت المجموعة الدولية في حشد الإرادة اللازمة لإدانة العراق بقوة لارتكابه أفعالاً شنيعة مثل الهجوم الإرهابي على مركز التجارة العالمي».⁽²⁰⁾

أثناء الإعداد للحرب عام 1990، حادثة حلبجة الوحشية ورضوخ وزارة الخارجية كانا طازجين جداً بحيث كان من الصعب على إدارة بوش الأولى إقناع أحد بأن غضبها على العراق كان أخلاقياً محضاً ومخلصاً. إعلان الحقيقة كان سيؤدي إلى طرح الكثير من الأسئلة الصعبة. معسكر مؤيدي الحرب أراد إعلان الحقيقة حول طبيعة نظام صدام حسين، لكنه كان يسعى لحماية نفسه من التدايعات الكاملة لتلك الحقيقة، لذلك تطلب الأمر استخدام ما يسميه تشرشل أو رمسفيلد «الحقيقة التي تحرسها الأكاذيب».

لذلك، أثناء الاستنفار لشن «عملية عاصفة الصحراء»، تجنبت إدارة بوش الأولى ذكر حادثة حلبجة، وكذلك المراسلون نادراً ما ذكروها. وقد بين البحث في قاعدة بيانات أخبار موقع LexisNexis أن حلبجة ذُكرت في 188 خبراً في

الولايات المتحدة عام 1988 (السنة التي جرت فيها الحادثة). ومن الجدير بالذكر أن تلك الحادثة نادراً ما ذُكرت في السنوات اللاحقة - ذُكرت في 20 خبراً عام 1989، وفي 29 خبراً فقط عام 1990، وهي السنة التي غزا فيها صدام الكويت. بين احتلال الكويت في 2 أغسطس/آب 1990، ونهاية «عملية عاصفة الصحراء» في 27 فبراير/شباط 1991، حظيت حلبجة بما مجموعه 39 إشارة فقط في وسائل الإعلام. خلال العقد التالي، لم يتجاوز متوسط الإشارات إلى حلبجة في الأخبار معدل 16 إشارة في السنة. وأثناء الانتخابات الرئاسية عام 2000، أصبح المعدل 10 إشارات فقط. لم تبدأ القصة بالظهور ثانية بالفعل في أجهزة الإعلام الأمريكية حتى سبتمبر/أيلول 2002، عندما بدأت إدارة جورج دبليو بوش بتكثيف جهودها الرامية إلى دفع الرأي العام إلى تأييد الحرب على العراق. بعد ذلك، بدأت الإشارات بالتزايد بشكل حاد. حادثة حلبجة ذُكرت 57 مرة في شهر فبراير/شباط 2003 وحده. في مارس/آذار، الشهر الذي بدأت فيه الحرب، ذُكرت 145 مرة. في هذه الأثناء، بعد مرور 15 عاماً تقريباً، تلاشت الذكريات وبهتت، وأصبح من المأمون التحدّث عن تسميم المواطنين العراقيين بالغاز على يد صدام. بضعة صحفيين فقط ممن كتبوا عن حلبجة في العامين 2002 و2003 كلفوا أنفسهم مشقة القول أن صدام ارتكب أسوأ أعماله الوحشية حين كان والد الرئيس يطره بالمساعدات المالية.

النمط كان مختلفاً جداً فيما يتعلق بقصة نيرة حول «انتزاع الأطفال الخدج من الحاضنات». وطبقاً لنفس قاعدة بيانات LexisNexis، حظيت قصة انتزاع الأطفال الخدج من الحاضنات بما مجموعه 138 إشارة في الأخبار خلال الأشهر السبعة الممتدة بين احتلال الكويت ونهاية «عملية عاصفة الصحراء». بعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب، بدأ الصحفيون بفضح الرواية الحقيقية حين زاروا المستشفيات الكويتية وأخبرهم موظفو

المستشفيات أنّ القصة كانت ملفقة. بعد عام 1992، اختفت القصة بشكل كامل تقريباً، حيث ذُكرت بمعدل وسطي يقل عن 10 إشارات في السنة خلال العقد التالي. على أية حال، قصة «انتزاع الأطفال الخدج من الحاضنات» عادت للظهور على السطح سريعاً في ديسمبر/كانون الأول 2002، وذلك حين عرض تلفزيون «إتش بي أو» دراما وثائقية تستند إلى «قصة واقعية» عنوانها «مباشر من بغداد»، أعادت إلى الأذهان تفاصيل مغامرات بيتر أرنيث ومراسلي سي إن إن الآخرين أثناء «عملية عاصفة الصحراء». فيلم «مباشر من بغداد» تضمّن مشاهد مسجلة لنيرة وهي تقدم شهادة الزور الشهيرة تاركة الانطباع لدى المشاهدين بأن القصة كانت صحيحة. واستجابة للاحتجاجات التي قدمتها منظمة مراقبة وسائل الإعلام FAIR، اضطرت محطة تلفزيون «إتش بي أو» إلى إضافة تنصّل من المسؤولية في نهاية الفيلم، تعترف فيه بأن «تلك المزاعم التي تقول أن الجنود العراقيين انتزعوا الأطفال الخدج من الحاضنات... لم تحدث أبداً».⁽²¹⁾ بالطبع، لم يقرأ تلك الإشارة التي تتنصل من المسؤولية سوى القليل فقط من أولئك المشاهدين الذين قرعوا كلّ النصوص المنزلة على الشاشة في نهاية الفيلم. قبل إضافة إشارة التنصّل تلك، راجع الناقد التلفزيوني في الواشنطن بوست توم شالس مادة فيلم «مباشر من بغداد» وكتب، «الرعب الذي حلّ بالكويت استعيد بقوة عبر المسلسل الذي قدّمه [منتج سي إن إن روبرت] واينر وفريقه حين توجّهوا إلى الكويت للتحقق من المزاعم التي ذُكرت حول قيام القوّات العراقية بانتزاع الأطفال الخدج من الحاضنات أثناء عمليات السلب التي مارسوها - هل تذكرون القصة؟»⁽²²⁾.

قد يكون من غير المنصف أفراد شالس بالذكر لدوره في «التذكير» بحادثة لم تحدث أبداً. حكاية نيرة حول الحاضنات هي بكل بساطة مزيد من الإيضاح للمبدأ المعروف منذ وقت طويل من قبل متخصصي الدعاية، وهو

المبدأ الذي يقول أن تكرار سرد الأكاذوبة يجعلها مقبولة أحياناً على نحو واسع كحقيقة لا شك فيها.

آثار الرصاص

في استطلاع للرأي أجراه «مركز بيو للبحوث» في تشرين الأول/أكتوبر 2002، قال 66 بالمائة من الأمريكيين أنهم يعتقدون أن صدام حسين متورط في هجمات 11 سبتمبر/أيلول على الولايات المتحدة، بينما عبّر 79 بالمائة عن اعتقادهم بأنّ العراق يمتلك، أو على وشك امتلاك، أسلحة نووية. نفس الاستطلاع تحرّى عن السبب في تأييد الكثير من الناس للحرب فوجد أن السبب الرئيس كان اعتقادهم بأنّها ستخفّض احتمالات التهديد الإرهابي. السبب الرئيس الذي أورده 25 بالمائة من مؤيدي الحرب يتعلّق بتصوراتهم حول صدام حسين أو طبيعة نظامه («شرير»، «مجنون»، «يقمع مواطنيه»). على أية حال، أكثر من ضعفي ذلك العدد - 60 بالمائة - أوردوا أسباباً تتعلّق بمخاوفهم الناجمة عن أحداث 9/11 (التخلّص من أسلحة الدمار الشامل، منع الإرهاب المستقبلي).⁽²³⁾

في يناير/كانون الثاني 2003، أجرت صحيفة نايت ريذّر استطلاعاً منفصلاً للرأي خاصاً بها. «ثلثي المستجيبين للاستطلاع قالوا بأنّهم يعتقدون بأنّ لديهم إلمام جيد بالقضايا المتصلة بالأزمة العراقية، لكن الاستجواب الدقيق كشف وجود فجوات كبيرة في تلك المعرفة»، قالت الصحيفة في تقييمها لنتائج الاستطلاع المذكور. «على سبيل المثال، نصف الذين شملهم الاستطلاع قالوا أن واحداً أو أكثر من خاطفي الطائرات في 11 سبتمبر/أيلول كانوا مواطنين عراقيين. في الحقيقة، لم يكن أيّ منهم عراقياً». علاوة على ذلك، «الجمهور المطلع، من بين الجمهور ككل، هو أقلّ تشدّداً إلى حدّ كبير فيما يتعلق بالحرب على العراق. أولئك الذين يبدون بأنهم الأكثر معرفة حول حالة العراق هم الأقلّ ميلاً لدعم العمل العسكري، سواء أكان ذلك بحجة إزاحة صدام من السلطة أو لنزع سلاح العراق».⁽²⁴⁾

تلك الفجوة بين الحقيقة والرأي العام ليست صدفة. إذا امتك الجمهور فهماً أكثر دقة للحقائق، فمن المحتمل أن ينظر مزيد من الناس إلى «الحرب الاستباقية» على العراق باعتبارها عملاً غير حكيم ولا مبرراً له. الأفكار الخاطئة لدى الجمهور تكوّنت تقريباً بنفس الطريقة التي جُعِلت فيها قصة انتزاع الأطفال الخدج من الحاضنات مقبولة كحقيقة لا غبار عليها: من خلال سلسلة متواصلة من المزاعم والتلميحات التي أطلقتها إدارة بوش وأعضاء مراكز البحث والمعلّقين المؤيدين للحرب، والبيانات التي كانت، كما سنرى لاحقاً، مزيفة أو مضلّة في أغلب الأحيان والتي كان الغرض منها الإيحاء بأن العراق يشكل خطراً وشيكاً.

قتابل بغداد

من بين كل الحجج التي ساقتها إدارة بوش تبريراً للحرب على العراق، كانت الحجة الأقوى هي زعمها أن العراق يمتلك أو قد يمتلك أسلحة الدمار الشامل. العراق في الحقيقة كان يمتلك أسلحة كيميائية وبيولوجية أثناء شن «عملية عاصفة الصحراء» (الكثير منها زوّدت بها الولايات المتحدة ودول غربية أخرى)، وقد استعمل الأسلحة الكيميائية في هجمات الإبادة التي شنتها على مواطنيه وعلى الشعب الإيراني.⁽²⁵⁾ كما أن صدام حسين حاول أيضاً تطوير الأسلحة النووية.⁽²⁶⁾ وقد أجبره الضغط الدولي بعد «عملية عاصفة الصحراء» على تدمير الكثير من الأسلحة الموجودة في الترسانة العراقية، لكن النظام العراقي لم يتمكن من تقديم المستندات التي تثبت أنه دمرها بالكامل، لذلك، من المحتمل جداً أن بعضها لا يزال موجوداً.⁽²⁷⁾

إحدى المسائل التي تثير السخرية الحادة في النقاش الدائر حول العراق هي أن دعاية صدام حسين نفسه ربما ساعدت على تعزيز التصوّرات بأنه يشكل تهديداً وشيكاً. وكما لاحظ الكاتب المسرحي الفرنسي البارز جان أنويه حين قال أن «الدعاية سلاح ناعم؛ يمكنك الإمساك به لفترة طويلة جداً،

لكنه يتحرك كالأفعى، ويلدغ في الاتجاه الآخر». بعد هزيمة العراق في نهاية عاصفة الصحراء، تم تفكيك الكثير من أسلحته المحظورة، كما يقول مراسل الواشنطن بوست بارتن غيلمان، الذي كتب تقارير كثيرة وموسعة حول نشاطات لجنة الأمم المتحدة الخاصة (أونسكوم) وتحقيقاتها حول الأسلحة العراقية. على أية حال، حدث ذلك ليس لأن شخصية صدام تحسنت فجأة، بل لأنه أراد الظهور بمظهر المنصاع بحيث يتمكن من الإبقاء على الأسباب التي تتيح له القدرة على إنتاج أسلحة مماثلة في المستقبل. «استخدموا الأسلحة الكيميائية على نطاق واسع في الحرب العراقية الإيرانية، لذلك لا يستطيعون القول بأنهم لا يملكون ذلك البرنامج»، قال غيلمان. وأضاف أنهم «قرروا التضحية بأسلحتهم الكيميائية الأقدم والأقل تطوراً. كانت متوفرة بكمية تسمح بذلك. نظّموا استعراضاً عظيماً حين جلبوها إلى الأونسكوم. وضعت الأونسكوم الديناميت بين تلك الأسلحة وفجّرتها ودفنتها في الحفر بحيث شعر الجميع بأنهم كانوا يحرزون تقدماً كبيراً. لكنّ العراقيين كانوا أيضاً يتلفون ملفاتهم بعناية شديدة ليتأكدوا من أن الأسلحة الكيميائية الأخرى المتطورة، وأن الوجود الكلي للبرنامج البيولوجي، وأن بعض معداتهم الصاروخية، وأن وجود أيّ برنامج لتطوير الأسلحة النووية بالمطلق، أنها جميعاً قد أخفيت بعناية تامة».⁽²⁸⁾

عام 1995، على أية حال، هرب إلى الأردن الرجل المسؤول عن برامج الأسلحة المتقدمة في العراق - حسين كامل، صهر صدام - وبحوزته معلومات دقيقة وهامة سببت صدمة لمفتشي الأسلحة وأدت إلى اتباع أساليب أشد صرامة في التفتيش عن الأسلحة. عند هذه النقطة، يقول غيلمان، «واجه العراق مشكلة كبيرة، لأنه اضطر إلى تقديم تفسيرات جديدة لكلّ ذلك. والتفسير الذي قدّمه العراقيون كان: "نحن مصدومون، مصدومون لاكتشافنا أن حسين كامل كان طوال ذلك الوقت يخفي، من وراء ظهورنا، كلّ أنواع

الأسلحة والمستندات. اكتشفناها في مزرعة الدجاج التي يملكها، وها هي أمامكم. يمكنكم مصادرتها كلها". وقد سلّموا للأونسكوم مليون صفحة من المستندات التي كُشف عنها حديثاً، والتي تفضح الكثير من برامج الأسلحة البيولوجية والكثير من برامج الأسلحة الكيميائية وتكشف كيفية اختفاء بعض المواد، وتثبت وجود معدات الصواريخ والمواد النووية».⁽²⁹⁾

أثناء الاستعداد للحرب، استشهد الرئيس بوش وغيره من مسؤولي الإدارة بانشقاق حسين كامل مراراً وتكراراً كدليل على أن العراق لم ينزع أسلحته وأن عمليات التفتيش لم تكن فعّالة. «استغرق الأمر أربع سنوات بالنسبة للعراق ليعترف أخيراً بأنه أنتج أربعة أطنان من غاز الأعصاب القاتل، "في إكس"، قال كولن باول في 5 فبراير/شباط 2003 أثناء العرض الذي قدّمه أمام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. وأضاف باول أن «الاعتراف جاء فقط بعد أن حصل المفتشون على الوثائق والمستندات بعد انشقاق حسين كامل». نائب الرئيس ديك تشيني قال أنّ قصّة كامل «يجب أن تكون بمثابة رسالة تذكير للجميع بأننا حصلنا في أغلب الأحيان على معلومات حول أسلحة العراق كنتيجة للانشقاقات أكثر مما حصلنا عليه من نظام التفتيش نفسه». كان ذلك كله صحيحاً، بل هو أكثر من صحيح، لكن كانت هناك مشكلة واحدة فقط. ذلك أن حسين كامل أخبر مستجوبيه أيضاً بأنّ أسلحة العراق الفعلية كانت قد دُمّرت كلها بعد فترة وجيزة من نهاية حرب الخليج الأولى. وفي 3 مارس/أذار 2003، كتب جون باري تقريراً لمجلة نيوزويك حول حصوله على نسخة من محضر استجواب حسين كامل الذي أجرته معه المحققة نيكيتا سميدوفيتش من لجنة الأونسكوم والمحقق موريتسيو زيفيريرو من الوكالة الدولية للطاقة الذرية، حيث أخبر كامل المفتشين بأنه «بعد حرب الخليج، دُمّر العراق كل مخزونه من الأسلحة البيولوجية والكيميائية، بالإضافة إلى الصواريخ المعدّة لنقل تلك الأسلحة». وقال أن كلّ ما تبقى «هو المخططات

التي أخفيت وأقراص الحواسيب وصور الأفلام الدقيقة» ونماذج الإنتاج. تم تدمير الأسلحة سرّاً لإخفاء وجودها عن المفتشين، على أمل أن يتم استئناف الإنتاج يوماً ما بعد أن ينتهي التفتيش. وكالة المخابرات المركزية والمخابرات البريطانية إم 16 روتا نفس القصة، قال باربي في تقريره، وأضاف أن «المساعد العسكري الذي انشق مع كامل... أيد مزاعم كامل حول تدمير مخزون أسلحة الدمار الشامل».⁽³⁰⁾ الجزء المقتطف التالي من نسخة محضر الاستجواب يروي القصة:

سميدوفيتش (فيما يتعلق بالأسلحة البيولوجية): هل تم تدمير الأسلحة وملحقاتها؟
كامل: لم يبق شيء.

سميدوفيتش: هل حدث ذلك قبل أم بعد أن بدأ التفتيش؟
كامل: بعد زيارات فرق التفتيش. أنت قمت بدور مهم في العراق بهذا الخصوص. يجب أن لا تقلل من قدر نفسك. أنت فعّال جداً في العراق... سأل سميدوفيتش عن برنامج أسلحة العراق الكيميائية التي تتضمن غازات «في إكس».

كامل: وضعوه في القنابل خلال الأيام الأخيرة من الحرب العراقية الإيرانية. لم تُستخدم بعد ذلك والبرنامج أُنهى.
 أثناء حرب الخليج (عملية عاصفة الصحراء)، لم تكن هناك نية لاستعمال الأسلحة الكيميائية لأن قوة التحالف كانت ساحقة... أعطينا التعليمات بعدم إنتاج أسلحة كيميائية. وأنا لا أتذكر أن استثنافاً لإنتاج السلاح الكيميائي قد حصل قبل حرب الخليج. ربّما كان إنتاجاً ضمن الحد الأدنى فقط. لكن لم يكن هناك قرار باستعمال الأسلحة الكيميائية خوفاً من الانتقام. أدركوا بأنّه إذا استُعملت الأسلحة الكيميائية، فإن الانتقام سيكون نووياً... كلّ الأسلحة الكيميائية دُمّرت. أمرتُ بتدمير كلّ الأسلحة

الكيميائية. كلّ الأسلحة - الحيوية، الكيميائية، الصاروخية، والنووية - كلها دمّرت.⁽³¹⁾

بالطبع، لا يمكن الاعتماد على الفارين من العراق واعتبارهم صادقين 100 بالمائة، ولكن مع ذلك فإنّ الفجوة واسعة جداً بين ما قاله حسين كامل والطريقة التي اتبعها المسؤولون في إدارة بوش لوصف ما اكتشفوه وأعلنوه للرأي العام. علاوة على ذلك، أدّى انشقاق كامل إلى تكثيف الجهود لإيجاد وتدمير المكونات الباقية من برنامج أسلحة العراق. وبالنظر إلى التاريخ السابق للنظام فيما يتعلق بإخفاء وتدمير المعلومات، من المستحيل التأكد تماماً مما إذا كانت الأسلحة كلها قد دمّرت حين غادر مفتشو الأونسكوم العراق عام 1998. المفتشون أنفسهم، كل بمفرده، توصّلوا إلى نتائج مختلفة. سكوت ريتز، مفتش الأونسكوم الذي استقال احتجاجاً على ما اعتبره تنفيذاً ناقصاً للتفتيش، اعتبر لاحقاً أن التفتيش قد نجح في التخلّص من معظم الأسلحة. تقيّمه، الذي نشر في صحيفة بوسطن غلوب في يوليو/تموز 2002، كان كما يلي:

رغم أننا لم نكن قادرين أبداً على تقديم ضمانات حقيقية بنسبة 100 بالمائة بخصوص إزالة أسلحة العراق المحرّمة، إلا أننا تأكدنا بنسبة 90 إلى 95 بالمائة من مستوى نزع السلاح. هذا الرقم يأخذ في الحسبان التدمير أو التفكيك لكلّ مصنع رئيسي ارتبط بتصنيع أي أسلحة ممنوعة، وكلّ العناصر الهامة في معدات وأجهزة الإنتاج، بالإضافة إلى معظم الأسلحة والمواد التي أنتجها العراق.

باستثناء مادّة الخردل، كلّ المواد الكيميائية التي أنتجها العراق قبل عام 1990 كان مفعولها سينتهي تلقائياً خلال خمس سنوات... والأمر نفسه ينطبق أيضاً على المواد البيولوجية، التي كان سيبطل مفعولها بسبب العوامل الطبيعية بعد ثلاث سنوات من تاريخ صنعها. التفتيش والمراقبة

الفعالة، التي طبقت بالكامل من 1994 إلى 1998 بدون أية عرقلة هامة من جانب العراق، لم تؤد إلى اكتشاف أي دليل على متابعة النشاطات المحرمة أو الجهود من قبل العراق لإعادة تكوين تلك القدرة التي كانت قد أزيلت خلال التفتيش.

وعلى العكس تماماً من هذه النتائج، تقوم إدارة بوش بتقديم التخمينات فقط، وقد أخفقت في تقديم أي معلومات تفصيلية تستند إلى أدلة حقيقية لتعزيز ادعاءاتها المتعلقة باستمرار ملكية العراق أو استمرار جهوده لامتلاك أسلحة الدمار الشامل. حتى الآن لم يستطع أحد أن يحمل إدارة بوش المسؤولية عن إحجامها - أو عدم قدرتها - على تقديم مثل تلك الأدلة.⁽³²⁾

تجدر الإشارة إلى أن وجهة نظر ريتر كانت مثيرة للجدل ومختلفة عن التقييم الذي قدمه عدد من مفتشي الأسلحة الآخرين. والتأكد مما إذا كان العراق يمتلك مواداً كيميائية وأسلحة بيولوجية استدعى خوض حرب ستعتمد في النهاية على ما ستجده الولايات المتحدة بالفعل حيث يقوم الجنود الأمريكيون بتفتيش ذلك البلد بأكمله. وفيما يتعلق بالأسلحة النووية، على أية حال، توجد أدلة واضحة جداً بأن إدارة بوش منغمسة في التفسيرات الانتقائية وتشويه الحقائق المسجلة.

هنا أيضاً، لا أحد يعارض أن صدام رغب بامتلاك الأسلحة النووية وقام بمحاولات نشطة لتطويرها قبل حرب الخليج الأولى. على كل حال، أدت الحرب وعواقبها إلى تدمير أية وسائل كان قد امتلكها، أضف إلى ذلك عمليات التفتيش اللاحقة عن الأسلحة، والتي جعلت الأمر صعباً عليه لاستئناف البرنامج (إخفاء برنامج أسلحة نووية أصعب بكثير من إخفاء الجهود الرامية لتطوير المواد الكيميائية والأسلحة البيولوجية). تشويه الحقائق الذي مارسه إدارة بوش يتضمن التالي:

في 7 سبتمبر/أيلول 2002، استشهد بوش بتقرير الوكالة الدولية للطاقة الذرية حيث قال انه قد ثبتت بأن العراقيين كانوا على وشك تطوير وإنتاج الأسلحة النووية. «أود أن أذكركم بأنه حين ذهب المفتشون إلى العراق أول مرة ومنعوا، وقد منعوا مؤخراً من الدخول، صدر تقرير عن الذرية - الوكالة الدولية للطاقة الذرية - يقول بأنهم كانوا على بعد ستة أشهر من تطوير وامتلاك السلاح النووي»، قال بوش. ثم أضاف، «أنا لا أدري ما هو الدليل الإضافي الذي نحتاجه». ⁽³³⁾ في الحقيقة، لا وجود لمثل ذلك التقرير. الوكالة الدولية للطاقة الذرية أصدرت تقريراً عام 1998، تقريباً في الفترة التي مُنع فيها مفتشو الأسلحة من الدخول إلى العراق، لكن ما جاء في ذلك التقرير كان الآتي: «استناداً إلى كلّ المعلومات الموثقة المتوفرة حتى الآن، لم تجد الوكالة الدولية للطاقة الذرية أي إشارة إلى أن العراق قد حقق أهداف برنامجه الرامية إلى إنتاج الأسلحة النووية أو أن العراق لا يزال يحتفظ بقدرته المادية على إنتاج مواد نووية لأغراض عسكرية أو أنه حصل سرّاً على مثل تلك المواد». ورداً على خطاب بوش، قال الناطق الأول باسم الوكالة الدولية للطاقة الذرية مارك غاوزدكي، «لا يوجد أبداً تقرير كهذا صادر عن هذه الوكالة». ⁽³⁴⁾

في 12 سبتمبر/أيلول 2002، مخاطباً الأمم المتحدة، تحدث بوش بتشاؤم عن العراق وقال أن «شهيتّه مستمرة» للحصول على القنابل النووية، وأشار إلى شراء النظام العراقي لآلاف أنابيب الألمنيوم ذات القوة العالية، حيث قال إنها «ستعمل لتخصيب اليورانيوم من أجل إنتاج الأسلحة النووية». ⁽³⁵⁾ في الحقيقة، الوكالة الدولية للطاقة الذرية قالت في تقييمها الصادر في يناير/كانون الثاني 2003، إن حجم الأنابيب أقلقها من حيث كونه مناسب لتخصيب اليورانيوم، لكنّ تلك الأنابيب مماثلة لتلك التي استعملها العراق سابقاً لتصنيع مواسير المدفعية التقليدية. ⁽³⁶⁾ بالرغم

من ذلك، كرّر كولن باول قصة شحن أنابيب الألبنوم في خطابه أمام الأمم المتحدة في 5 فبراير/شباط 2003.

- في 7 أكتوبر/تشرين الأول 2002، في خطاب إلى الأمة، حذر بوش من أنّ العراق لديه أسطول متزايد من الطائرات التي تطير بلا طيار والتي يمكن تجهيزها بالمواد الكيميائية أو الأسلحة البيولوجية واستخدامها «في مهمات تستهدف الولايات المتحدة». في الحقيقة، تفتقر تلك الطائرات إلى القدرة على الطيران إلى مدى يوصلها إلى الولايات المتحدة.⁽³⁷⁾
- في نفس الخطاب، ذكر بوش أيضاً أنه عام 1988 بيّنت معلومات قدمها مهندس نووي عراقي كان يشغل منصباً رفيعاً وفر من العراق، أن صدام حسين، بالرغم من وعوده العلنية، طلب الاستمرار بتطوير برنامج العراق النووي.⁽³⁸⁾ بيان بوش أشار ضمناً إلى أنّ هذه المعلومات حديثة كما كانت عام 1998. في الحقيقة، العالم النووي الفار الذي أشار إليه هو خضر حمزة، والذي تقاعد في الحقيقة من البرنامج النووي العراقي عام 1991 وفر من البلاد عام 1995.⁽³⁹⁾ كما أن بوش أهمل أيضاً الإشارة إلى أن حسين كامل، الذي فر من العراق في وقت سابق واستجوب من قبل محققي الأونسكوم، كما ذكرنا سابقاً، قد أخبر المحققين في المقابلة نفسها أنه يعتبر خضر حمزة «كذاب محترف».⁽⁴⁰⁾
- أخيراً، في خطاب حالة الاتحاد في ربيع 2003، استشهد بوش بالوثائق المزعومة التي تبين أنّ العراق حاول شراء 500 طن من اليورانيوم من النيجر. على أية حال، حقق مسؤولو الوكالة الدولية للطاقة الذرية في تلك الوثائق وتوصلوا إلى أنها مزيفة تماماً. قام فريق من الخبراء القانونيين بفحص تلك الوثائق ووافقوا بالإجماع على أنها مزيفة.⁽⁴¹⁾ عضو الكونجرس هنري واكسمان (ديمقراطي - كاليفورنيا)، والذي صوّت لصالح مبادرة حرب بوش، أزعجته تلك الاكتشافات وعبر عن قلقه في

رسالة إلى البيت الأبيض قال فيها إنَّ وكالة المخابرات المركزية حدّثت عام 2001 من أن تلك الوثائق مزيفة. وقد جاء في رسالة واكسمان قوله إن «تلك الحقائق تطرح أسئلة مزعجة». وأضاف، «يبدو أنه في نفس الوقت الذي كنتم فيه، وزير الدفاع رمسفيلد، والمسؤولين في وزارة الخارجية، تستشهدون بجهود العراق الرامية للحصول على اليورانيوم من أفريقيا، كجزء حاسم من القضية المبنية ضدّ العراق، اعتبر المسؤولون في المخابرات الأمريكية أن هذا الدليل بالضبط غير مؤكد. إذا كان ذلك صحيحاً، فهو مزعج جداً: إنه يعني بأنّ إدارتكم طلبت من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، ومن الكونجرس، ومن الشعب الأمريكي الاعتماد على المعلومات التي علم خبرائكم أنفسهم أنها لم تكن موثوقة».⁽⁴²⁾

فكرة أن أسلحة الدمار الشامل العراقية تشكّل تهديداً وشيكاً تتناقض أيضاً بطريقة غريبة مع مستوى الرد الباهت لإدارة بوش على الأخبار التي تفيد أن كوريا الشمالية قد طوّرت بالفعل أسلحة نووية وامتلكت الوسائل اللازمة لضرب الولايات المتحدة بتلك الأسلحة. «كوريا الشمالية لديها 100 صاروخ من تلك التي يبلغ مداها 1000 كيلومتر»، قال السيناتور الأمريكي بوب غراهام (ديمقراطي - فلوريدا) في مقابلة تلفزيونية في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2002. «إنهم يعملون الآن على صواريخ ذات مدى كافٍ يتيح لها الوصول إلى الساحل الغربي للولايات المتحدة. لديهم سلاحان نوويان اليوم، و... يمكن أن يبدعوا بإنتاج المزيد من الأسلحة النووية. بالمقابل، فيما يتعلق بصدام حسين، ليس لدينا أسباب كافية للاعتقاد بأنّ لديه أسلحة نووية، بالرغم من أنّه يجاهد للحصول عليها. وقدراته محدودة نسبياً، من حيث المدى والعدد، ومن حيث الأسلوب والاستخدام لتلك الأسلحة. لذلك، إذا وضعتما، كوريا الشمالية والعراق، في الميزان وطرحت السؤال التالي، من الذي يشكّل

اليوم التهديد الأخطر لشعب الولايات المتحدة الأمريكية، أنا أجيب على السؤال: كوريا الشمالية».⁽⁴³⁾

غراهام، الذي ترأس لجنة المخابرات التابعة لمجلس الشيوخ، حيرته التقديرات المتناقضة التي قدمتها وكالات مختلفة حول العراق حين طلب في يوليو/تموز 2002 من وكالة المخابرات المركزية تقديم تقرير حول إمكانية استخدام صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل. وحين طرح هذا السؤال مباشرة، أجاب شاهد رفيع المنصب في وكالة المخابرات المركزية بأنّ الإمكانية «منخفضة» خلال «المستقبل المنظور». ⁽⁴⁴⁾ ومثل العديد من التحليلات التي تضاربت حول دوافع للحرب، مرّ هذا البيان الصادر عن وكالة المخابرات المركزية دون أن يحظى باهتمام كبير.

إسقاط القنبلة

الفجوة بين الخطابات والحقيقة حول أسلحة العراق أصبحت واضحة جداً مع انطلاق الحرب في مارس/أذار 2003. فحين سحقت القوات الأمريكية القدرة العسكرية العراقية، تحدث المسؤولون الأمريكيون والكويتيون تحت جنح الظلام حول التقارير القائلة بأنّ العراق أطلق صاروخين من صواريخ سكود الممنوعة على المواقع الأمريكية داخل الكويت. لم يتسبب أيّ من الصاروخين بإيقاع إصابات، لكن المئات من الصحف وغيرها من أجهزة الإعلام الأخرى أسهبت في الحديث جدياً حول الهجوم المزعوم بصواريخ سكود. «الصواريخ التي أطلقها صدام حسين على القوات الأمريكية في الكويت يبدو أنها نفس الأسلحة التي إمّا أنه ادّعى عدم امتلاكها أو وافق على تدميرها»، قالت وكالة الأسوشيتد برس في تقرير لها في 21 مارس/أذار 2003. «الدفعة الأولى من الصواريخ كانت في آن واحد الخبر اليقين حول أسلحة العراق الخفية ورسالة تذكير بأنّ صدام لا يزال يملك القدرة على إطلاق صواريخ تحمل رؤوساً حربية مجهزة بمواد كيميائية أو بيولوجية».⁽⁴⁵⁾

انتهت هذه الجولة من التحذيرات حين اضطر المسؤولون الأمريكيون والكويتيون لسحب ادّعاءاتهم السابقة حول استخدام العراق لصواريخ السكود.⁽⁴⁶⁾ مع نهاية الحرب، كان العراق قد استطاع إطلاق 20 صاروخاً فقط سقطت بعيداً عن أهدافها المقصودة. معظمها سقط في مياه الخليج أو في الصحراء ولم يتسبب بإحداث أية خسائر. واحد منها فقط تسبب بإصابات طفيفة حين سقط أمام مركز تسوق كويتي.⁽⁴⁷⁾ العدد الكلي للأسلحة الممنوعة التي استخدمها العراق أثناء الحرب بكاملها هو صفر تقريباً.

في شهر سبتمبر/أيلول 2002، حُمنَ تقرير بريطاني بأنّ العراق قد يمتلك بحدود 20 صاروخاً من صواريخ سكود المحظورة. وإذا كان ذلك التخمين صحيحاً، فسيكون العدد أقل من ربع صواريخ السكود الـ 88 التي أطلقها العراق أثناء «عملية عاصفة الصحراء». وحتى لو كان صدام حسين لا يزال يملك صواريخ سكود، قال اختصاصي الأسلحة جون كليرووتر، فمن المشكوك فيه أن تلك الصواريخ لا تزال صالحة، ملاحظاً أن العراقيين لم يكونوا قادرين على إطلاق واختبار الصواريخ أو الحصول على قطع الغيار اللازمة لها منذ أكثر من عقد من الزمن. «تلك الصواريخ لها صلاحية تخزين قصيرة»، قال كليرووتر، الذي ألف ثلاثة كتب حول الأسلحة النووية وصواريخ كروز. «كلما طال الزمن دون اختبارها، كلما تدنّت لديك الثقة بفعاليتها».⁽⁴⁸⁾

الترسانة المفترضة التي تتألف من 20 صاروخ سكود تبدو أيضاً متواضعة جداً بالمقارنة مع عدد الصواريخ الحقيقية التي أطلقتها الولايات المتحدة على بغداد مباشرة في اليوم الأول من حملة القصف التي سميت «الصدمة والترويع». القوات الأمريكية والبريطانية بدأت الحرب بإطلاق 3500 صاروخ توماهوك. ومع نهاية نهاية الحرب، كانت قد أطلقت 800 صاروخ توماهوك، وأكثر من 14000 قذيفة ذكية موجّهة بدقة وعدد غير محدّد من القنابل

العنقودية. (49)

العراق والقاعدة

فكرة التحالف بين القاعدة والعراق كانت غير محتملة، وذلك نظراً لكرهية أسامة بن لادن الزمنية لنظام صدام حسين «الكافر» والمعروفة جيداً قبل 11 سبتمبر/أيلول. معظم التخمينات العامة حول الصلة بين القاعدة والعراق كانت تستند إلى اجتماع مزعوم بين محمد عطا، أحد خاطفي الطائرات في 9/11، ومسؤولين من المخابرات العراقية والذي يفترض أن يكون قد حدث في العاصمة التشيكية براغ، بين 8 و11 أبريل/نيسان 2001.

التقارير حول ذلك الاجتماع أتت أولاً في أكتوبر/تشرين الأول 2001 من مسؤولين تشيكيين، وذلك أثناء فترة حمى التخمينات التي تلت الهجمات الإرهابية. وطبقاً لما قاله وزير الداخلية التشيكي، فإن عطا التقى بأحمد خليل إبراهيم سمير العاني، القنصل الثاني في السفارة العراقية. وحسب ما جاء في تقارير المخابرات التشيكية، على أية حال، فإن الأساس الواقعي للقصة كان واهياً منذ البداية. المصدر الوحيد للرواية هو لاجئ عربي عازب ولم يقدم تلك المعلومات إلا بعد 9/11، حين ظهرت صور عطا في صحف براغ المحلية. وكما ذكرت النيويورك تايمز في ديسمبر/كانون الأول 2001، فإن القصة المزعومة ربما كانت بكل بساطة حالة خطأ في تحديد الهوية، باعتبار أن العاني «كان يعمل في تجارة السيارات وكثيراً ما يجتمع مع تاجر سيارات مستعملة ألماني يشبه كثيراً السيد عطا».⁽⁵⁰⁾

مكتب التحقيقات الفدرالي الأمريكي قام بإجراء تحقيق دقيق وشامل في تلك القصة. «استعرضنا حرفياً مئات الآلاف من الأدلة ودققنا في كل سجل استطلعنا الوصول إليه»، قال روبرت مولر مدير مكتب التحقيقات الفدرالي في خطاب له في أبريل/نيسان 2002 في سان فرانسيسكو. كشفت السجلات أن عطا كان في أوائل أبريل/نيسان في فرجينيا بيتش بولاية فرجينيا، أثناء

وقت اجتماعه المفترض مع العاني في براغ.⁽⁵¹⁾

بعد أن أجرى تحقيقاته الخاصة المنفصلة، وضع الرئيس التشيكي فاتسلاف هافل نهاية لتلك القصة. ذكرت التايمز عام 2002 أن هافل «أبلغ البيت الأبيض بشكل هادئ إنه استنتج عدم وجود دليل يؤكد التقارير السابقة التي تقول إن محمد عطا، زعيم الهجوم الذي حدث في 11 سبتمبر/أيلول، التقى بمسؤول مخابراتي عراقي في براغ». هافل فعل ذلك بشكل هادئ وبعيداً عن الأضواء «لتجنب إحراج» المسؤولين التشيكيين الآخرين الذين سبق وأن أكدوا مصداقية تلك القصة. «اليوم، يقول مسؤولون تشيكيون آخرون بأن لا دليل لديهم أن السيد عطا كان حتى في البلاد في أبريل/نيسان 2001»، قالت التايمز في تقريرها.⁽⁵²⁾

على الرغم من انعدام أي دليل موثوق يؤكد أن اجتماع عطا مع العراقيين قد حدث بالفعل، وأصل مسؤولو إدارة بوش ترويح تلك الإشاعة، ولعبوا لعبة حساسة تعتمد على التلميحات التي تشبه الكذب. في فبراير/شباط 2002، على سبيل المثال، قابل مراسل صحيفة سان فرانسيسكو كرونيكل روبرت كولير نائب وزير الدفاع بول وولفوفيتز، المدافع البارز عن الحرب على العراق. «هل رأيت أي دليل مقنع يربط بين العراق والقاعدة أو شبكتها الدولية»، سأل كولير.

«يتم تصنيف الكثير من هذه المواد حالياً وأنا لا أستطيع حقاً الدخول في مناقشتها»، قال وولفوفيتز، ثم أضاف، «نحن نعلم أيضاً أن هناك أشياء لم يتم توضيحها... مثل اجتماع محمد عطا مع المسؤولين العراقيين في براغ. لقد تبين لاحقاً أن الحقيقة هي...».

«التي أصبحت الآن مجرد مزاعم، صحيح؟»، قال كولير. «هناك بعض الشكوك فيها»، قال وولفوفيتز.

«هذا يقودك مرة أخرى إلى المناطق السرية»، أجاب وولفوفيتز. «أعتقد أن

المسألة، التي أعتقد أنها جوهرية، والتي تبدو منطقية في سؤالك، هي أننا ننتظر برهاناً لا يرقى إليه أي شك. أعتقد أن السياسة المنطقية يجب أن تكون، نحن لا نستطيع تحمّل انتظار الحصول على البرهان الذي لا يرقى إليه أي شك،» أضاف وولفوفيتز.⁽⁵³⁾

أداء وولفوفيتز يمثل كيفية معالجة الإدارة لقصة «عطا في براغ». باستخدام الإشارات المبهمة حول المعلومات «المصنّفة»، تفادى وولفوفيتز الدخول في التفاصيل، ورفض تقديم برهان مقنع محتماً بالقلق البيروقراطي من احتمال الاستغلال القانوني لما قد يقوله. هذا النمط من الكلام استمرّ في عدد متنوع من التصريحات اللاحقة:

- في مايو/أيار 2002، استشهد وليام سافير، المعلق الصحفي المحافظ في النيويورك تايمز وأحد صقور الحرب على العراق، بما قاله «أحد كبار مسؤولي إدارة بوش» الذي لم يسمّه، والذي قال له «لا يمكنك بأي شكل من الأشكال الجزم بصحة أو زيف التقرير التشيكي حول الاجتماع الذي حدث عام 2001 بين عطا والعراقيين. التشيكيون يؤكدونه، ونحن ما زلنا نعمل على متابعته والتحقق من التوقيت والمكان».
- في يوليو/تموز 2002، أعلن دونالد رمسفيلد في مؤتمر صحفي بأنّ العراق كانت تربطه «علاقة» بالقاعدة، لكن تلك العلاقة تدنّت لتصبح أكثر تحديداً.⁽⁵⁴⁾ وفي الشهر التالي، نقلت لوس أنجلوس تايمز عن مقابلة مع «أحد كبار مسؤولي إدارة بوش» الذي لم تسمّه هو الآخر حتى الآن، نقلت عنه قوله إن الدليل على اجتماع عطا في براغ «يتعثر»، بالإضافة إلى أننا «سننكّم أكثر حول هذا الموضوع».⁽⁵⁵⁾
- في سبتمبر/أيلول 2002، اقتبست مطبوعة تجارية إيطالية عن مستشار وزارة الدفاع ريتشارد بيرل قوله إن عطا اجتمع شخصياً مع صدام حسين نفسه. «اجتمع محمد عطا بصدام حسين في بغداد قبل 11

سبتمبر/أيلول»، قال بيرل. وأضاف، «لدينا برهان على ذلك، ونحن متأكدون من أنه لم يكن هناك لقضاء إجازة فحسب».⁽⁵⁶⁾ (منذ ذلك الحين، لم يُسمع شيء مطلقاً عن «البرهان» المزعوم).

▪ في 8 سبتمبر/أيلول 2002، أُجريت مقابلة مع نائب الرئيس ديك تشيني في برنامج «قابل الصحافة». «كانت هناك تقارير»، قال تشيني، وأضاف إن «ذلك يشير إلى أنه كانت هناك عدة اتصالات على مرّ السنين. لقد رأينا ارتباطات مع الخاطفين، بالطبع، محمد عطا، الذي كان قائد الخاطفين، سافر على ما يبدو إلى براغ في عدة مناسبات. وفي مناسبة واحدة على الأقل، لدينا تقرير عن اجتماعه في براغ مع مسؤول كبير في المخابرات العراقية، وذلك قبل أشهر قليلة من الهجوم على مركز التجارة العالمي».⁽⁵⁷⁾

▪ «نحن نعلم أنّ العراق وشبكة القاعدة الإرهابية لديهما عدو مشترك»، قال بوش نفسه في خطابه إلى الأمة في 7 أكتوبر/تشرين الأول 2002. وفي نفس الخطاب، ذكر أيضاً أن «أحد الزعماء الكبار في تنظيم القاعدة قد تلقى العلاج الطبي في بغداد هذا العام». على أية حال، لم يذكر بوش أنّ الإرهابي المشار إليه، أبو مصعب زرقاوي، لم يعد موجوداً في العراق وأنه لا دليل ثابت يؤكد أن حكومة صدام حسين علمت بوجوده هناك أو أنها أجرت اتصالاً به. في حملة انتخابية جرت بعد أسبوع من ذلك، قال بوش إنّ صدام «هو رجل يودّ، حسب تقديري، أن يستعمل القاعدة كجيش متقدم».⁽⁵⁸⁾

مثل قصة انتزاع الأطفال الخدّج من الحاضنات التي روتها نيرة، اكتسبت قصة عطا في براغ مصداقيتها في عقول الجماهير من خلال التكرار المستمر. كلّ همسة جديدة من مطّلع على الأمور ضمن فريق بوش أنتجت غلّة جديدة من افتتاحيات الصحف والإشاعات والتخمينات على شبكة الإنترنت. وقد تم

ذلك بكل بساطة عن طريق ذكر العراق والقاعدة معاً في نفس الجملة، مراراً وتكراراً، وهكذا مرّت الرسالة. سيق الناس إلى الاعتقاد بأنّ لا دخان بلا نار. لكن، في الحقيقة، كان هناك دخان فقط.

مرحلة تقديم الأدلة الورقية

محاولة تلفيق الأدلة على وجود صلة بين العراق والقاعدة هي لبّ الفضيحة التي انفجرت في إنجلترا في فبراير/شباط 2003، وذلك بعد الكشف عن أن معظم الملف الذي نشرته الحكومة البريطانية حول العراق يعتمد في الحقيقة على معلومات مسروقة. الملف البريطاني، الذي قدّم على أنه تحليل أجّرته وكالة المخابرات البريطانية إم 16، بعنوان «العراق - بنيتة التحتية القائمة على الإخفاء والتضليل والتخويف»⁽⁵⁹⁾ استشهد به كدليل ضدّ العراق وزير الخارجية الأمريكي كولن باول في 5 فبراير/شباط وهو يخاطب مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة. «أنا ألفت انتباه زملائي إلى الورقة المهمة التي وزعتها المملكة المتحدة... والتي تصف بعناية شديدة النشاطات التضليلية العراقية»، قال باول.⁽⁶⁰⁾

بعد قراءته للوثائق، قال الأستاذ في جامعة كامبردج غلين رانغوالا، «وجدت الأمر مبالغاً تماماً حين أدركت بأنني كنت قد قرأت أغلبها من قبل» في مجلة «دورية الشرق الأوسط للشؤون الدولية»، وهي مطبوعة توزّع أيضاً عبر الإنترنت. كشفت التحقيقات الإضافية أن معظم محتويات الملف البريطاني المؤلف من 19 صفحة (الصفحات من 6 إلى 16) كان في الحقيقة قد انتزع من أطروحة عنوانها «شبكة المخابرات والأمن العراقية: دليل وتحليل»،⁽⁶¹⁾ كتبها الدكتور إبراهيم المراشي، وهو طالب متخرج يعيش في كاليفورنيا.⁽⁶²⁾ في الحقيقة إن الملف المذكور لم تُعدّه وكالة إم 16، بل إن الذي أعده هو المساعد الأصغر للسيد ألاستير كامبيل، السكرتير الصحفي الأول لرئيس الوزراء البريطاني توني بليز.⁽⁶³⁾ بعد مواجهتهم بنصوص الأطروحة التي قدّمها

المراشي، شعر مساعداً بلير بالخرج واعترفوا بأنهم في تسرعهم لإعداد التقرير على عجل، استنسخوا مادته دون إذن منه أو إشارة إلى المصدر، إلى حد الإبقاء على أخطائه المطبعية كما هي.⁽⁶⁴⁾ أطروحة المراسي التي هي أبعد ما تكون عن آخر المعطيات، استندت في الغالب على الوثائق العراقية التي تعود للعام 1991 أو حتى قبل ذلك - وهي معلومات عمرها أكثر من عقد من الزمن. وقد بيّنت التحقيقات الإضافية أن أجزاء أخرى من الملف البريطاني اقتطعت من نشرة جين إنتليجينس ريفيو، وهي جزء من سلسلة منشورات جين التجارية الموجهة للجنود والمقاتلين العسكريين. واحدة من مقالات نشرة جين كتبها كين غوس. واثنان من تلك المقالات كتبهما شون بوين، المحلل الذي عارض الحرب على العراق.⁽⁶⁵⁾

الملف كان «بشكل واضح جزءاً من حملة رئيس الوزراء الدعائية»، قال تشارلز هايمن، محرر نشرة جين وورلد أرميز. «دوائر المخابرات لم تكن متورطة - وقد اتصل بي شخصان اليوم ليقولا، "أنظر، ليس لنا علاقة به".⁽⁶⁶⁾» «عندما انفجرت الفضيحة في أجهزة الإعلام البريطانية، بدت إدارة بلير عاجزة في أحسن الأحوال، وفي أسوأ الأحوال، غشاشة»، كما لاحظت نشرة جين إنتليجينس دايجست، التي جاء فيها، «في الحقيقة، معظم البيانات الواردة في التقرير موثوقة ودقيقة. ما كتبه الدكتور إبراهيم المراسي وشون بوين وكين غوس - الكاتبان اللذان نشرتا مقالتهما سابقاً في «دورية الشرق الأوسط للشؤون الدولية» وفي نشرة جين إنتليجينس ريفيو - تُسخ كله إلى الملف البريطاني حول العراق - وهم جميعاً يحظون بالاحترام والتقدير كمحللين متخصصين في هذا المجال. والأكثر إثارة للجدل، على أية حال، هو المسار الذي تم اتباعه لإعادة كتابة أو تحريف تلك المواد من أجل تقوية مزاعم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بأن العراق يدعم الإرهاب الدولي». ⁽⁶⁷⁾

هنالك سبب معين دفع مستشاري توني بلير لتجنّب تكليف وكالة

الاستخبارات البريطانية بمهمة وضع التقرير. في الحقيقة، اختلف محللو وكالة الاستخبارات البريطانية إم 16 مع الموقف العام المعلن لبليز، وقد عبّروا عن موقفهم ذاك بتسريب تقرير المخابرات البريطانية الرسمي إلى محطة تلفزيون البي بي سي، وذلك في اليوم الذي ألقى فيه كولن باول خطابه أمام الأمم المتحدة. تقرير إم 16 المسرّب نقض بشكل واضح الموقف المعلن للحكومة. وقد جاء في التقرير التأكيد على عدم وجود صلات معروفة بين العراق وشبكة القاعدة، لأن أهداف أسامة بن لادن «تتناقض إيديولوجياً مع العراق بصيغته الراهنة».⁽⁶⁸⁾

أثناء خطاب باول أمام الأمم المتحدة، تحدّث أيضاً عن معسكر في شمال شرق العراق، تشرف عليه وتديره مجموعة أنصار الإسلام الإرهابية الإسلامية، ووصف ذلك المعسكر بأنه «مصنع إرهابي للمواد الكيميائية والسموم». وعندما زار لوك هاردينغ مراسل صحيفة الأوبزرفر البريطانية اليومية، الموقع المذكور بعد ثلاثة أيام، على أية حال، أبلغ الصحيفة عن عدم العثور على «أي شيء من ذلك». وقد وصف الموقع المشار إليه بأنه «موقع عسكري رثّ في أسفل جبل كبير يغطيه الثلج»، وقال هاردينغ إنّ الموقع كان عبارة عن «مجموعة من الأبنية الخرسانية البسيطة المدمرة التي كانت موجودة في أسفل تلّ منحدر معشوشب. وراء السلك الشائك، وفي الفناء الذي تتناثر فيه أجزاء وشظايا الصواريخ التي أطلقت على المعسكر، توجد بضعة بيوت خرسانية فارغة. هناك مخبز. وليس هناك أي إشارة إلى وجود الأسلحة الكيميائية في أي مكان - لا يوجد سوى رائحة النفط الأبيض والدهن الحيواني النباتي المستعمل في الطبخ». أضاف هاردينغ بأنّ سكان بلدة خورمال، التي تبعد حوالي خمسة كيلومترات عن المعسكر، كانوا خائفين من ضربة عسكرية أمريكية عندما بدأت الحرب، «ذلك أن السيّد باول سمّى بلدتهم كموقع مزعوم للأسلحة الكيميائية».⁽⁶⁹⁾ وفي الحقيقة، قُصفت بلدة

خورمال بصواريخ كروز الأمريكية في عطلة نهاية الأسبوع الأولى التي تلت بداية الحرب على العراق، فقتل في ذلك القصف 45 قروياً⁽⁷⁰⁾.

أنماط الإرهاب العالمي

في التقرير السنوي لوزارة الخارجية حول «أنماط الإرهاب العالمي»، والذي صدر في مايو/أيار 2003، توجد قراءة تتناقض بشكل مثير للاهتمام مع مزاعم إدارة بوش بأن العراق كان يشكل رأس الحربة في التهديد الإرهابي العالمي.

وطبقاً لما جاء في تقرير «أنماط الإرهاب العالمي»، فإن دور العراق كدولة راعية للإرهاب يشمل كونه «البلد العربي الإسلامي الوحيد الذي لم يُدن هجمات 11 سبتمبر/أيلول ضد الولايات المتحدة».⁽⁷¹⁾ كما أن العراق وفّر ملجأً آمناً لعدد من المنظمات الفلسطينية المرتبطة بالانتفاضة، مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. الجماعات الإرهابية الأخرى التي قيل أن العراق يدعمها تتضمن حزب العمال الكردستاني ومجاهدي خلق. في الحالتين الأخيرتين، تحتاج تهمة الارتباط بالإرهاب إلى بعض التدقيق. حزب العمال الكردستاني هو حزب سياسي ماركسي يطالب بانفصال الأكراد عن تركيا، وقد أعلن رسمياً عن تخليه عن الكفاح المسلح منذ العام 1999.⁽⁷²⁾ أما جماعة مجاهدي خلق فهي قوة فدائية مسلحة تحاول إسقاط النظام الإيراني. وفي جميع تلك الحالات، الدعم العراقي لتلك المجموعات يعكس حالة التنافس وعدم الاستقرار بين العراق وجيرانه ولا يختلف بشكل كبير جداً عن أنواع الدعم الذي تقدمه الحكومات الأخرى في المنطقة للجماعات الإرهابية.⁽⁷³⁾ وفي الحقيقة، وحسب ما جاء في تقرير «أنماط الإرهاب العالمي»، فإن إيران، وليس العراق، «ظلت هي الدولة الأكثر نشاطاً في دعم الإرهاب عام 2001» - وهي الصفة التي تحملها إيران منذ سنوات طويلة. لكن، إذا كان الحال كذلك، لماذا إذاً كان ذلك التسرع في شن الحرب على العراق؟

حتى تقرير وزارة الخارجية تأثر بشدة بذلك الهيجان. وبينما أدان التقرير المذكور حول «أنماط الإرهاب العالمي» الإرهاب الذي تدعمه إيران والعراق والخصوم القدماء الآخرين لأمريكا، أثنى على الحلفاء مثل العربية السعودية، التي يقول إنها «لعبت أدواراً قوية في التحالف الدولي ضد الإرهاب، بالإضافة إلى إدانتها العلنية لهجوم 11 سبتمبر/أيلول. وقد اتخذت تلك الحكومات خطوات إيجابية لإيقاف تدفق تمويل الإرهاب. ويعترف التقرير بأن القوانين التي تحظر تسريب الأموال للإرهابيين «لم تفرض بشكل دقيق في الماضي»، لكنه يقول إن السعوديين «وافقوا على التعاون».⁽⁷⁴⁾

والملفت للنظر في ذلك كله، بالطبع، هو أن 15 من الخاطفين الـ 19 الذين قادوا الطائرات في 11 سبتمبر/أيلول كانوا مواطنين سعوديين، والصلات بين بعض السعوديين والقاعدة يمكن إثباتها بسهولة أكبر من إثبات الصلة بين العراق والقاعدة.⁽⁷⁵⁾ أسامة بن لادن وشبكته الإرهابية يتبعان مدرسة مذهبية إسلامية متشددة عقائدياً تختلف بالتأكيد وبشكل كبير عن العقيدة العلمانية لحزب البعث الذي يقوده صدام حسين.

«من المفيد أن نعلن صراحة وبشكل واضح ما لم يقله الناطقون الرسميون باسم الحكومة الأمريكية»، قال تقرير «تمويل الإرهاب» الذي أصدره في تشرين الأول (أكتوبر) 2002 «مجلس العلاقات الخارجية». «لسنوات طويلة كان الأفراد والمنظمات الخيرية في العربية السعودية هي المصدر الأكثر أهمية للأموال التي تصل إلى تنظيم القاعدة. والأمر ليس مفاجئاً جداً باعتبار أن العربية السعودية تمتلك المقدار الأعظم من الثروة في المنطقة؛ المواطنون السعوديون والمنظمات الخيرية السعودية كانت سابقاً المصدر الرئيس لتمويل المجاهدين [الأصوليين الإسلاميين الذين قاتلوا الاحتلال السوفييتي لأفغانستان]؛ وقد شكّل المواطنون السعوديون النسبة المئوية الأعلى دائماً من بين أعضاء تنظيم القاعدة؛ وركزت الرسالة السياسية للقاعدة لمدة طويلة على

القضايا التي تهمّ المواطنين السعوديين، وبشكل خاص أولئك المتشددین منهم⁽⁷⁶⁾.

في نوفمبر/تشرين الثاني 2002، تحرّى مكتب التحقيقات الفدرالي حول دفعات مالية خيرية تلقاها طالبان سعوديان يدرسان في الولايات المتحدة. ابتداء من أوائل عام 2000، تلقى الطالبان مبلغ 3500 دولار شهرياً حيث وفّرا المساعدة لبعض خاطفي الطائرات في 9/11. أحد الطالبين الذين استلما الأموال أنفق بعضها في إقامة حفل ترحيب بالخاطفين بعد وصولهم إلى سان دييغو، دفع لهم إيجار الشقة وقدم الضمانات ليقطنوا في شقة مجاورة لشقته. الطالب الآخر، المعروف بتعاطفه مع القاعدة، صادق المختطفين أيضاً قبل أن يرتكبوا عملهم السيئ. في حفلة أقيمت بعد الهجمات، «احتفل ذلك الطالب بأبطال 11 سبتمبر/أيلول»، وتحدّث علناً حول «ذلك اليوم المجيد والرائع».⁽⁷⁷⁾

الجهة السعودية المتبرعة لم ترسل المال إلى الخاطفين مباشرة، وليس هناك دليل يؤكد أنه كان لديها أي علم مسبق بمخططاتهم. بالرغم من ذلك، تبدو رغبة إدارة بوش لقبول التفسيرات السعودية متناقضة على نحو مدهش مع الحماس الذي أبدته إدارة بوش لمتابعة كلّ خيط بسيط قد يصل بين العراق والقاعدة. لقد عالجت الإدارة الأخبار المتعلقة بالتبرعات السعودية عبر حثّ الناس على ألا يستبقوا النتائج. وقد ردّ الناطق باسم البيت الأبيض آري فليتشر على الأخبار بالقول إن «العربية السعودية شريك جيد في الحرب على الإرهاب لكن يمكنها أن تفعل المزيد».⁽⁷⁸⁾

البحث عن القتلة الحقيقيين

العديد من الصحفيين المحقّقين - ومن ضمنهم جويل ماوبري من مجلة ناشيونال ريفيو المحافظة،⁽⁷⁹⁾ ومراسل البي بي سي اليساري غريغ بالاست [مؤلف كتاب «أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها» - صدر بالعربية عن الدار العربية للعلوم]،⁽⁸⁰⁾ وفريق استقصائي من بوسطن هيرالد⁽⁸¹⁾ - وجدوا

أدلة على الصلة بين بعض السعوديين وتمويل القاعدة. ماشيو ليفيت، وهو باحث متقدّم في دراسات الإرهاب في «معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى»، يقول بأنّ معظم تمويل القاعدة أتى من منظمات خيرية سعودية.⁽⁸²⁾ جاء في تقييم استخباراتي كندي أُعد في 25 يوليو/تموز 2002، أنّ الأفراد في العربية السعودية «كانوا يتبرعون بمبلغ 1 إلى 2 مليون دولار شهرياً من خلال المساجد ودروب جمع التبرعات». ⁽⁸³⁾ في أغسطس/آب 2002، أقام 600 شخص من أفراد عائلات ضحايا 11 سبتمبر/أيلول، الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «اتحاد عائلات ضحايا 9/11 لتفليس الإرهاب»، أقاموا دعوى قضائية للمطالبة بمبلغ 1 تريليون دولار كتعويض تدفعه الأطراف التي يزعمون أنها ساعدت في تمويل الإرهاب الدولي. بحلول شهر مارس/آذار 2003، انضم أكثر من 3100 مدعٍ آخر إلى الدعوى التي تطالب بإدانة قائمة من المدعى عليهم من ممالي الإرهاب تضم سبعة بنوك دولية وثمانية منظمات خيرية إسلامية وعدد من السعوديين، بالإضافة إلى حكومة السودان.⁽⁸⁴⁾ لكن المحامي رون موتلي، المحامي الرئيس في الدعوى، قال إنّ إدارة بوش لم تقدّم أي مساعدة. وبعد ثلاثة اجتماعات مع عدد من المسؤولين في وزارة الخارجية، قال المحامي المذكور، «استلمنا صفر من الأوراق، وتلقينا صفر من المساعدة».⁽⁸⁵⁾

التعاون السعودي في التحقيقات التي أعقبت 9/11 كان باهتاً أيضاً. فقد ذكرت صحيفة بوسطن هيرالد في ديسمبر/كانون الأول 2001 إنّ بالرغم من أن المشتبه بقيامهم بأعمال إرهابية كانوا قد اعتقلوا في أكثر من 40 بلداً بعد 11 أيلول (سبتمبر)، إلا أنه لم يعلن عن شيء من ذلك في العربية السعودية. الولايات المتحدة بالكاد همست حول انعدام التعاون هذا، وذلك خوفاً من عرقلة ما وصفه مراسلو بوسطن هيرالد جوناثان ويلز، جاك مايرز، وماجي ملفهيل «مجموعة استثنائية من الأعمال التجارية السعودية الأمريكية التي، إذا جمعت معاً، تساوي العشرات من بلايين الدولارات».⁽⁸⁶⁾ وقد استشهد

أولئك المراسلون بأمثلة من كبار المسؤولين في إدارة بوش الذين «استفادوا كثيراً من التعامل مع السعوديين»، ومن ضمنهم:

- شركة نائب الرئيس ديك تشيني السابقة، هاليبرتون، التي جنت أكثر من 174 مليون دولار من العمل في تطوير حقول النفط ومشاريع أخرى للسعوديين.

- مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس العضو السابق لمدة طويلة في مجلس إدارة شركة شيفرون، التي كانت لديها أعمال مكثفة مع السعوديين. حتى أن شيفرون سمّت إحدى ناقلات النفط التي تملكها على اسم رايس.

- والد الرئيس، جورج إتش. دبليو بوش، الذي عمل في منصب كبير مستشاري مجموعة كارليل، التي لديها استثمارات مالية في شركات الدفاع الأمريكية والتي تعاهد معها السعوديون لتجهيز وتدريب قواتهم المسلحة.⁽⁸⁷⁾

«إنها علاقة من الطراز القديم المثمر التي تقوم على أساس "سأحكّ لك ظهرك، فتحكّ لي ظهري". وفي هذه العلاقة لديك مسؤولون أمريكيون سابقون، رؤساء سابقون، مساعدون للرئيس الحالي، وصفّ طويل ممن تربطهم علاقات وثيقة بالسعوديين، هؤلاء الذين يعتبرون أعمدة المجتمع والدوائر الرسمية الأمريكية»، قال تشارلز لويس من «مركز السلامة العامة». وأضاف، «لا أحد يريد عزل السعوديين، ونحن راغبون أساساً في إهمال الحقائق غير المناسبة التي إن لم نتجاهلها فقد تجعل دمنّا يغلي. نحن نبدو أساساً غائبين».⁽⁸⁸⁾

روابط الإدارة الأمريكية مع السعوديين عبر مجموعة كارليل معقّدة بشكل خاص. كارليل، وهي شركة استثمارية مساهمة، تحتل المرتبة الحادية عشرة بين أكبر الشركات الأمريكية في مجال المقاولات العسكرية والصناعات

الدفاعية الأمريكية، وإحدى أكبر شركات ما يسمى «شبكات الأولاد الكبار» في عالم الأعمال الحديث، والتي تضم في صفوفها النخبة من السياسيين السابقين إلى جانب المستثمرين السعوديين من ذوي الثروات الفاحشة وغيرهم من المستثمرين الرئيسيين الآخرين. رئيس مجموعة كارليل هو فرانك سي. كارلوتشي، وزير الدفاع السابق في عهد رونالد ريغان وزميل الدراسة المتقدم لوزير الدفاع الحالي دونالد ريسفيلد. قائمة مستخدمي كارليل تضم أسماء مسؤولين حكوميين من الصف الأول في الولايات المتحدة وبلدان أخرى، بما في ذلك رئيس الوزراء البريطاني السابق جون ميجر، وزير الخارجية الأمريكي السابق جيمس أي. بيكر الثالث، ومدير ميزانية البيت الأبيض السابق ديك دارمان. السياسيون السابقون يعملون في مجموعة كارليل كمستنزل المطر، فهم يستخدمون سمعتهم واتصالاتهم للمساعدة في تزيت عجلات عقود الأسلحة وغيرها من الصفقات الهائلة التي تتم على مستويات عالية. «الباب الدوار كان منذ فترة طويلة حقيقة ثابتة في الحياة في واشنطن، لكن كارليل أعطت ذلك الباب دورة جديدة»، قالت مجلة فورتن في مارس/آذار 2002. «بدلاً من أن يكسحوا في العمل في شركة تجارية أو مؤسسة استشارية مقابل مبلغ تافه لا يتجاوز 250 ألف دولار في السنة، يستطيع المسؤولون الحكوميون السابقون الحصول على مبالغ طائلة عن طريق الحصول على نسبة من الصفقات التي تعقدها الشركات الكبرى. العديد من المسؤولين الحكوميين السابقين الذين التحقوا بمجموعة كارليل - خصوصاً كارلوتشي، بيكر، ودارمان - جمعوا الملايين من الدولارات».⁽⁸⁹⁾

في 5 مارس/آذار 2001، ذكر ليزلي واين في النيويورك تايمز أن جورج بوش الأب خصص بعضاً من وقته أثناء حملة ابنه الانتخابية الرئاسية «لكي يجري بعض الاتصالات ويتحدث عن شؤون الأعمال التجارية الأمريكية - السعودية. السيد بوش ذهب كسفير متجول، لكن ليس لصالح الحكومة

الأمريكية... وعلى أصدقاء الموسيقى العسكرية والسجاد الأحمر والاستقبالات الرسمية، كان السيد بوش و[وزير الخارجية السابق] جيمس أي. بيكر الثالث يستغلان اتصالاتهما وعلاقاتهما الحكومية القوية لترسيخ وتوسيع مصالحهما التجارية كممثلين لمجموعة كارليل، وهي شركة مساهمة خاصة رأسمالها 12 بليون دولار ومقرها في واشنطن استغلت قائمة بأسماء مجموعة من المسؤولين الحكوميين السابقين من ذوي المناصب العليا، معظمهم من إدارتي بوش وريغان، فحولتهم إلى آلة لجمع النقود». وقد لاحظوا أن بوش الأب كان يتلقى مبلغاً يتراوح بين 80 ألف و 100 ألف دولار لكل خطاب يلقيه ضمن نشاطاته التي يقوم بها لصالح كارليل، وأن الشركة ساعدت عام 1990 بوش الابن أيضاً بوضعه ضمن مجلس إدارة شركة كاترير التي تقدم الخدمات لشركات الطيران وتملكها شركة كارليل».⁽⁹⁰⁾

بعض المستثمرين في مجموعة كارليل هم أفراد من عائلة أسامة بن لادن، والذين كان عدد منهم يزاول أعماله في الولايات المتحدة يوم الهجوم في 11 سبتمبر/أيلول. بالرغم من أن العائلة تبرأت منه وأدانت نشاطاته الإرهابية علناً، إلا أن استثمارات العائلة البالغة 2 مليون دولار في مجموعة كارليل تثير التساؤل والعجب. وبناء لطلب حملة الأسهم الآخرين، باعت عائلة بن لادن حصتها في كارليل فوراً بعد 9/11.⁽⁹¹⁾ ولمعالجة جوانب العلاقات العامة المتعلقة بصلتها المثيرة للجدل بعائلة بن لادن، تعاقدت مجموعة كارليل مع كريس أولمان، المسؤول السابق في «المكتب الأمريكي للإدارة والميزانية»، والذي كان يشغل منصب نائب الرئيس للاتصالات المتعلقة بالشركات.⁽⁹²⁾ عائلة بن لادن بدأت بالبحث عن شركة علاقات عامة خاصة بها، فتقرّبت من ستيفن غولدشتاين وشركة العلاقات العامة التي يملكها واسمها أنتنشن أمريكا. غولدشتاين، اليهودي والموالي لإسرائيل، توصل إلى خلاصة مفادها أنه اختير جزئياً بسبب موقفه الديني والسياسي.⁽⁹³⁾ لذلك رفض التعاون

معهم، فانتقلت عائلة بن لادن إلى شركتي العلاقات العامة هولين ميز وشركاه،⁽⁹⁴⁾ ودبليو إم سي كوميونيكاشن التي يرأسها الرئيس السابق لشركة هيل أند نولتون ديفيد واين-مورغان. «تأكدنا منهم وليس لهم صلات بالإرهاب»، قال واين-مورغان.⁽⁹⁵⁾

السعودية اتجهت أيضاً إلى شركات العلاقات العامة بحثاً عن المساعدة بعد 11 سبتمبر/أيلول. بعد ثلاثة أيام على هجوم 9/11 وقّعت عملاق العلاقات العامة بورسون-مارستيلير اتفاقية لتوفير «استشارات وإدارة أزمة» لصالح المملكة ولنشر الإعلانات في النيويورك تايمز لإظهار دعم السعودية للولايات المتحدة في الأزمة التي تمر بها.⁽⁹⁶⁾ في نوفمبر/تشرين الثاني، بدأت المملكة بدفع مبلغ 200 ألف دولار شهرياً لشركة علاقات عامة أخرى هي كورفيز كوميونيكاشن ومؤسستها الفرعية باتن بوغز. خلال التسعة أشهر الأخيرة من عام 2002 فقط، ذكرت مجلة أودوير بي آر دايلي أن كورفيز تلقت 20.2 مليون دولار من المملكة. «ذلك المبلغ تجاوز الرقم المسجل سابقاً وقدره 14.2 مليون دولار الذي دفعته مجموعة «مواطنون من أجل كويت حر» لشركة هيل أند نولتون أثناء فترة الستة أشهر من حشد التأييد لحرب الخليج الأولى عام 1990»، كما جاء في مجلة أودوير بي آر دايلي. ساعدت شركة كورفيز السعوديين على إعداد جبهة الدفاع الخاصة بهم، والتي سُميت «التحالف من أجل السلام والعدالة»، الموصوفة في السجلات الحكومية الخاصة بشركات العلاقات العامة كمنظمة أمريكية تهتم بشؤون عملية السلام في الشرق الأوسط. رتبت كورفيز المقابلات الإعلامية لشخصيات سعودية لتتحدث مع أبرز الشخصيات في الإعلام الأمريكي، بمن فيهم تيد كوبيل، بيل بلانت، بولا زان، أندريا ميتشيل، آرون براون، كريس ماثيوز وبيل أوراييلي.

شركة هيل أند نولتون للعلاقات العامة راودت السعوديين أيضاً من خلال مدير الحسابات في هيل أند نولتون جيم كوكس الذي تبرع بمقابلة صحفية

متزلفة لصحيفة أراب نيوز التي يملكها سعوديون. وفي تلك المقابلة التي وصفتها أراب نيوز بأنها «كلام صريح ومباشر»، قال كوكس بأن «العربية السعودية لديها مجموعة من الأصدقاء المطلعين، الذين يحترمونها ويقدرونها فيما يتعلق بعلاقات العمل والخصوصية الثقافية للمملكة. المشكلة هي أن تلك المجموعة من الأصدقاء صغيرة جداً. وهي مجموعة تتألف أساساً من أوساط الصناعيين ورجال الأعمال، وتنحصر تحديداً ضمن أولئك الذين تربطهم علاقات وعقود عمل مع المملكة». وبسبب حقيقة أن أغلبية خاطفي الطائرات في أحداث 9/11 كانوا من السعوديين، قال كوكس إن المملكة تواجه «هذا العائق الهائل من عدم التصديق والذي ينبغي التغلب عليه». لكن من هو الملووم؟ «ليسوا السعوديين، وليست الحكومة، وهو ليس أي شخص آخر بالتحديد. إنه بكل بساطة العالم الذي نعيش فيه». هيل أند نولتون وقّعت صفقات تزيد قيمتها عن 77 ألف دولار في الشهر مع شركات مملوكة من قبل الدولة السعودية من ضمنها الشركة السعودية للصناعات الأساسية وشركة أرامكو السعودية، وهي شركة النفط الأكبر في العالم. شركة علاقة عامة أخرى، مجموعة غالغير، التي يرأسها المحلل السياسي الجمهوري جيمي غالغير، وقّعت صفقة بمبلغ 300 ألف دولار لمدة عام واحد في أوائل عام 2003 لمساعدة شركة كورفيز كوميونيكاشن في حملة علاقاتها العامة لصالح المملكة.

مكتب المحاماة باتن بوغز، التابع لشركة كورفيز، وزّع على الصحفيين وأعضاء الكونجرس وثائق تُظهر السعوديين كشركاء في الحرب على الإرهاب وأنهم هم أنفسهم ضحايا الإرهاب.⁽⁹⁷⁾ في الغالب الأعم، على أية حال، بقيت الوثيقة بعيدة عن الخوض في التفاصيل، وفضّلت بدلاً من ذلك الاعتماد على تصريحات تشيد بالملكة منقولة عن مسؤولين أمريكيين من ضمنهم جورج دبليو بوش، دونالد رمسفيلد، الناطقة باسم وزارة الدفاع الأمريكية توري

كلارك، الناطق باسم وزارة الخارجية ريتشارد باوتشر، كولن باول، السكرتير الصحفي للبيت الأبيض آري فليتشر والجنرال تومي فرانكس.⁽⁹⁸⁾ أحياناً كان السعوديون هم أسوأ الأعداء لأنفسهم في حرب العلاقات العامة. في ديسمبر/كانون الأول 2001، على سبيل المثال، تعرّض وزير سعودي للانتقاد عندما اتّهم علناً «اللوبي الصهيوني واليهودي» بتنظيم ما سمّاه «هجوم إعلامي مكثّف» ضدّ المملكة الصحراوية.⁽⁹⁹⁾

وكما أن الدعاية الأمريكية لها تأثير محدود في الشرق الأوسط، كذلك وجد هجوم العلاقات العامة الخاطف الذي شنته السعودية أذناً صمّاً في الغالب في الولايات المتّحدة. بالرغم من أن أغلب الوكلاء الأمريكيين الذين يعملون في خدمة السعوديين لديهم ارتباطات بالحزب الجمهوري، إلا أن بعض النقاد الأكثر قسوة على المملكة كانوا من المحافظين مثل المعلق الصحفي في صحيفة وول ستريت جورنال وليام ماكغورن وعضو الكونجرس دان بيرتن (جمهوري-إنديانا)، الذي عقد جلسة استماع في الكونجرس في أكتوبر/تشرين الأول 2002 للبحث في بعض التهم الموجهة للسعودية. وقد قال بيرتن بأنّ وزارة الخارجية الأمريكية امتنعت عن الضغط على المملكة. التردّد الأمريكي في إثارة بعض المسائل المتعلقة بالسعودية جعل بيرتن يتساءل عما إذا كان «لدينا العزم للتعامل بحزم مع العربية السعودية في القضايا الأخرى التي تتراوح بين محاربة الإرهاب والجهود المبذولة ضد العراق».

شركة كورفيز للعلاقات العامة ساعدت السعوديين في مسألة التخلّص من التهم، مما دفع بيرتن لإصدار مذكرة جلب لسجلات شركة العلاقات العامة المذكورة. وحين ادّعى السعوديون بأنّ ذلك يعتبر انتهاكاً للأعراف الدبلوماسية التي ترعاها اتفاقية فيينا، ردّ بيرتن برسالة قاسية، قال فيها أنّ الاتفاقية «لا تشمل المواطنين الأمريكيين الذين يختارون بيع خدماتهم على

شكل علاقات عامة / والسنة مأجورة تدافع عن مصالح أجنبية. على العكس من ذلك، قانون تسجيل وكلاء الأجانب، الذي سنّه الكونجرس عام 1937، يوضح بأنّ نشاطات مثل هؤلاء "الدعائيين"، بما في ذلك الوثائق والمستندات التي يضعونها، ستصبح خاضعة "للكشف والإعلان غير المشروط" بحيث يستطيع الشعب الأمريكي أخذ العلم الكامل بكل من هوية الدعائيين وطبيعة النشاطات التي يمارسونها نيابة عن سادتهم الأجانب».

4. الخطاب المزدوج

«في وقتنا الحاضر، تعتبر الخطابة والكتابة السياسية بمثابة الدفاع عن ما لا يمكن الدفاع عنه»، كتب جورج أورويل عام 1946. «أمر مثل استمرار الحكم البريطاني في الهند، حملات التطهير والإبعاد الروسي، إلقاء القنابل الذرية على اليابان، يمكن في الحقيقة الدفاع عنها، لكن فقط باستخدام الحجج الوحشية جداً التي يعجز أكثر الناس عن تحملها، والتي لا تتطابق مع الأهداف المعترف بها من قبل الأحزاب السياسية. وهكذا، ينبغي على اللغة السياسية أن تتضمن مقداراً كبيراً من التلطيف واستجداء الأسئلة والإيحاء والغموض الغائب».⁽¹⁾

أورويل كان مراقباً فطناً للعلاقة بين السياسة واللغة. وهو في الواقع لم يخترع تعبير «الخطاب المزدوج»، لكنه أشاع ذلك المفهوم المركب من مصطلحين وسكّه في روايته العظيمة والمشهورة 1984. استخدم أورويل

مصطلح «الخطاب المزدوج» لوصف طريقة تفكير متناقضة تتيح للناس قول الأشياء التي تعني نقيض ما يعتقدونه بالفعل. استخدم أيضاً تعبير «ذروة الأخبار» لوصف الكلمات «المبنية عمداً لتؤدي أغراضاً سياسية: أي، بمعنى آخر، الكلمات التي ليس لها فقط مفهوم سياسي محدد في كلّ حالة، بل التي يراد منها فرض موقف عقلي مرغوب على الشخص الذي يستخدمها».⁽²⁾

على سبيل المثال، لنأخذ العبارة المشهورة حالياً، «محور الشر»، التي استخدمها أولاً الرئيس بوش في 29 يناير/كانون الثاني 2002، في خطابه عن حالة الاتحاد. ميّز بوش إيران والعراق وكوريا الشمالية باعتبارها «محوراً للشر»، يسلّح نفسه لتهديد السلم العالمي. وعبر سعيها لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، تشكّل تلك الأنظمة خطراً شديداً ومتزايداً. وقد تضع تلك الأسلحة في أيدي الإرهابيين وتزوّدهم بالوسائل التي تمكنهم من تحقيق كراهيتهم. وهؤلاء ربما يهاجمون حلفاءنا أو يحاولون ابتزاز الولايات المتحدة».⁽³⁾

مفهوم «المحور»، بالطبع، يستدعي في ذهن الذكريات حول «قوات المحور» في الحرب العالمية الثانية ويؤدي الغرض المطلوب بتهينة الجمهور لتقبّل شن الحرب ضدّ الدول التي تنتمي إلى المحور المزعوم. على أية حال، هذا الاستخدام للتعبير هو استخدام مضللّ. وهو يقترح إنشاء تحالف أو اتحاد بين الدول التي تواجه خطراً داهماً بالضبط بسبب مواقفها ومصالحها المشتركة - خطراً أشدّ وأهم من الخلافات والتفاصيل الجزئية. في الحقيقة، إيران والعراق كانا خصمين لدودين لعقود من الزمن، وليس هناك أي نمط من أنماط التعاون بين كوريا الشمالية والدولتين الأخريين.

كي تقول إنّ تلك الدول «شريرة» فالأمر يعتمد من جانب على خلفيتك الدينية، ومن جانب آخر على موقفك السياسي. لا شك أن إيران والعراق وكوريا الشمالية لديها سجل حافل بكلّ أنواع الانتهاكات المروعة لحقوق الإنسان، بالرغم من أن إيران لا تزال تشهد حالياً مخاضاً ديمقراطياً داخلياً

(وهي عملية قد تتعرقل بسبب احتلال العراق الذي قد يؤجج نيران الأصولية الإسلامية). إن أفراد تلك الدول ودمغها بصفة الشرّ، على أية حال، يدعو إلى التساؤل عن السبب الذي منع إدارة بوش من أن تضيف إلى محور الشر، بناء على نفس المقاييس، دولاً أخرى حليفة للولايات المتحدة وتنتهك حقوق الإنسان، أو البلدان التي تمتلك الأسلحة النووية، مثل الصين أو فرنسا أو إسرائيل - دون الحاجة لذكر الهند وباكستان، اللتين اقتربتا مؤخراً من احتمال استخدام ذلك السلاح. في الواقع، «محور الشرّ» تعبير اختير لوصم بعض البلدان بشكل انتقائي بغرض تبرير الأعمال العسكرية ضدّ تلك البلدان.

استعمال بوش لتعبير «محور الشرّ» أثار عدداً من النكات، مثل الأخبار الهزلية المضحكة في موقع SatireWire.com. تقول إحدى تلك النكات أنه «بعد أن رُجرت ومُنعت من الانضمام إلى "محور الشرّ"، أعلنت ليبيا والصين وسوريا اليوم أنّها شكّلت "محور أقطاب الشرّ". كما أن «كوبا والسودان وصربيا أعلنت بأنّها شكّلت "محور البعض من الشرّ"، و«بلغاريا وأندونيسيا وروسيا أسّست "محور الشرّ غير المطلق، لكن المرفوض عموماً»⁽⁴⁾. وبالرغم من أنها مجرد نكات، إلا أن هذا التعبير لعب دوراً مؤثراً في خلق الإطار الذي من خلاله أدرك الجمهور مشكلة الإرهاب وطرح من خلاله السؤال عما إذا كان ينبغي شن الحرب على العراق.

تحالف المجبرين

إذا كان للأشرار «محور»، فالأخيار لديهم «تحالف الراغبين»، وهو التعبير المفضّل لدى كولن باول والمسؤولين الأمريكيين الآخرين، وقد تكرر استخدام هذا التعبير دون تمحيص في أغلب الأحيان في كبريات الصحف ومحطات التلفزة الرئيسية، كما سنناقش ذلك لاحقاً في الفصل 6 «حرب الأثير». كلمة «التحالف» تحاول استعادة الشعور بالوحدة الدولية التي تألّفت عام 1991،

حين أقنعت إدارة بوش الأولى الأمم المتحدة بتأمين الغطاء الشرعي لتحالف دولي واسع مكون من الدول التي شاركت في الحرب التي أخرجت العراق من الكويت.

إدارة بوش الحالية قارنت مراراً وتكراراً بين مستوى وهدف الدعم الدولي لعملياتها العسكرية في العراق وبين التحالف الذي خاض حرب الخليج الأولى. «التحالف ضد العراق، الذي أطلق عليه اسم «عملية تحرير العراق»، واسع ومتزايد»، قال وزير الدفاع دونالد ريمسفيلد في مؤتمر صحفي في 20 مارس/ آذار 2003. «هذا ليس عملاً أحادي الجانب، كما يُشار إليه في أجهزة الإعلام. في الحقيقة، التحالف الحالي أوسع من التحالف الذي تشكل أثناء حرب الخليج عام 1991».⁽⁵⁾ وكما أوضح غلين كيسلر في الواشنطن بوست، كانت تلك البيانات مجرد «مبالغات، وذلك طبقاً لتقييم خبراء مستقلين ومراجعة الأرقام المتعلقة بالنزاعين».

ما سمي «تحالف الراغبين» لم يكن تقريباً سوى حملة أمريكية-بريطانية، حيث لم تكن هناك عملياً أية مساهمة عسكرية من أي بلد آخر سوى أستراليا. والزعم بأن التحالف في هذه الحرب أكبر من ذاك الذي تشكل في حرب 1991 هو مجرد «أكذوبة واضحة»، قال إيفو إتش. دالدر، المسؤول السابق في إدارة كلينتون والذي دعم الحرب ضد العراق. وأضاف أنه «حتى حلفاؤنا العظام إسبانيا وإيطاليا وبلغاريا لم يقدموا قوات عسكرية».⁽⁶⁾

من ضمن الدول التي شاركت في حرب 1991 لكنها رفضت ذلك عام 2003 العديد من الدول الرئيسية في أوروبا والشرق الأوسط وأجزاء أخرى من العالم: البحرين، مصر، فرنسا، ألمانيا، اليونان، المغرب، قطر، العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة. وقد جندت الولايات المتحدة بدلاً من تلك البلدان بلداناً أخرى مثل ألبانيا، أذربيجان، جمهورية الدومنيكان، السلفادور، أرتيريا، إثيوبيا، كازاخستان، جزر المارشال، مأكرونيزيا، نيكاراغوا، بالاو

(مجموع سكانها 18766 نسمة)، رواندا وأوغندا وأوزبكستان. وبالمقارنة مع حرب الخليج الأولى، القليل جداً من الدول المشاركة في تحالف 2003 قدّمت المال أو التجهيزات أو الجنود. بدلاً من ذلك، عرضت دعماً رمزياً، مثل الدعم السياسي أو الإذن باستخدام مجالها الجوي كمبرر للطائرات الحربية الأمريكية. وبدلاً من تقديم الدعم المادي، في الحقيقة، طلبت العديد من الدول الحصول على مساعدات مالية كبيرة أو دعم أمريكي آخر - مثل الدخول إلى منظمة حلف شمال الأطلسي - نظيراً لما قدمته من مساندة.

بحلول تاريخ الشروع في تلك الحرب، أعدت الولايات المتحدة على عجل قائمة تضم 30 دولة من الدول التي كانت راغبة بتسميتها علناً كمؤيدة للحرب، وادعت أن لديها قائمة تضم 15 دولة أخرى تدعم الحرب سرّاً لكنها تتمنى أن تبقى مجهولة - والتي وصفها النقاد بسخرية بأنها «تحالف الغير راغبين في تسميتهم». حتى في الدول التي كانت راغبة في إعلان اسمها كمساندة للحرب، كان الناس في تلك الدول في الغالب معارضين للحرب. وطبقاً لاستفتاء لآراء الشعب البريطاني في يناير/كانون الثاني 2003، ظل 68 بالمائة غير مقتنعين بالحاجة للحرب. في إسبانيا 80 بالمائة معارضون للحرب، كذلك كان 73 بالمائة في إيطاليا، 79 بالمائة في الدانمارك، 67 بالمائة في جمهورية التشيك، 82 بالمائة في هنغاريا و63 بالمائة في بولندا.⁽⁷⁾

معارضون نبلاء

الخطاب المزدوج رافق الحرب منذ آلاف السنين. البروفيسور الإنجليزي وليام لوتز عثر على أمثلة مبكرة عن ذلك تعود إلى عهد القيصر يوليوس، الذي وصف غزوه الوحشي والدموي لبلاد الغال باعتباره نوعاً من «التهدئة». لوتز قال أن «الجيش يدرك تماماً أن سبب وجوده هو شنّ الحرب، والحرب تعني قتل الناس وتعني مقتل الجنود الأمريكيين أيضاً». «لأن حقيقة الحرب ونتائجها قاسية جداً، يتّجه العسكر بالغريزة تقريباً نحو الخطاب المزدوج عند

مناقشة الحرب».⁽⁸⁾ الخطاب المزدوج يقترح في أغلب الأحيان قضية نبيلة لتبرير الموت والدمار. وإذا تحدثنا بطريقة عملية، لا يستطيع بلد ديمقراطي شنّ الحرب دون الحصول على الدعم الشعبي من مواطنيه. والأسطورة المحبوبة جيداً، والمبثوثة عبر وسائل الإعلام الجماهيري، يمكنها جلب ذلك الدعم حتّى عندما تبدو القضية النبيلة نفسها مربية بالنسبة لبقية العالم.

«الأسماء الرمزية» التي تستعمل لتمييز الحروب أصبحت أيضاً جزءاً من عملية الدعاية والتسويق التي تهدف إلى إظهار الحرب بمظهر نبيل. فبدلاً من الإشارة إلى غزو بنما بكل بساطة على أنه حرب أو احتلال، أصبح ذلك الغزو «عملية القضية العادلة» (لاحظ أيضاً أن كلمة «عملية» اللطيفة أصبحت جزءاً من المصطلحات البديلة لمصطلح الحرب). الحرب في أفغانستان سمّيت أصلاً «عملية العدالة المطلقة»، وهي العبارة التي أشعرت المسلمين بالإهانة، إذ أنهم قالوا إنّ الله وحده يمكنه تحقيق العدالة المطلقة، لذلك تراجع المخطّطون العسكريون قليلاً وسمّوها «عملية الحرية الدائمة».⁽⁹⁾ بالنسبة لغزو واحتلال العراق، اختاروا اسم «عملية تحرير العراق». في مجلة بي آر ويك، تخصّص المعلق الصحفي بول هولمز أهمية ذلك التعبير. «من المحتمل، كما أفترض، أنّ تحرير العراق هو المنتج الأساسي في هذه الحملة»، كتب هولمز، «لكن الإدّعاء بأنّ ذلك هو كلّ شيء ليس سوى نوع من التضليل الثقافي في الغالب».⁽¹⁰⁾ على أية حال، كانت وظيفة تلك العبارة هي أن تتحول إلى إطار لفظي فعّال. شبكات التلفزة المختلفة، ومن ضمنها فوكس نيوز وإم إس إن بي سي استعملت عبارة «عملية تحرير العراق» كشعار للخط الإخباري الخاص بالحرب، حيث تظهر تلك العبارة مجسّمة على نمط الشعارات الثلاثية الأبعاد مصحوبة بصور الأعلام وغير ذلك من الرموز الوطنية الأخرى. العبارات الأخرى المفضّلة لدى إدارة بوش - «نزع سلاح العراق»، «قوّات التحالف»، «الحرب على الإرهاب»، «أمريكا تردّ» - ظهرت كثيراً على شاشات التلفزة

ضمن شرائط بصرية ورسومات وضمن نصوص الأخبار المنزلة في أسفل الشاشة، مما يؤدي إلى تكرار وتعزيز النقاط الرئيسية في حديث الحكومة حول ضرورة دعم ومساندة الحرب.

الفرسان المنقذون

يتم أحياناً اختيار اللغة بناء على قدرتها على تفادي إيصال المعاني البسيطة التي يتحدث عنها الكاتب. ويمكن العثور على العديد من الأمثلة حول ذلك في تقرير «إعادة بناء السياسة الدفاعية الأمريكية: الاستراتيجيات والقوات والمصادر للقرن الجديد»، الذي نشره عام 2000 واضعو «مشروع القرن الأمريكي الجديد»، الذي يشكل أعضاؤه، كما ذكرنا سابقاً في الفصل الثاني، الدماغ المركزي للسياسة الخارجية لإدارة بوش. والتقرير المذكور، الذي انتقد في الخارج باعتباره مخططاً للهيمنة الأمريكية على العالم، بدأ بالقول إن الولايات المتحدة في الوقت الحاضر هي القوة العظمى الوحيدة «التي لن تواجه أي منافس عالمي. واستراتيجية أمريكا الكبرى يجب أن تهدف للإبقاء على هذا الموقع المميز وترسيخه أكثر في المستقبل بقدر الممكن». ولتحقيق ذلك الهدف، أوصى التقرير بتأسيس قواعد عسكرية أمريكية دائمة في الشرق الأوسط وفي مناطق أخرى من العالم حيث لا توجد حالياً مثل تلك القواعد، بما في ذلك جنوب شرق أوروبا وأمريكا اللاتينية وجنوب شرق آسيا. وقال التقرير أيضاً إن القوات العسكرية يجب أن تسعى «للسيطرة على المساحات الدولية المشتركة في الفضاء وفضاء الاتصالات»، وتمهد الطريق لخلق وحدات عسكرية جديدة - القوات الفضائية الأمريكية - التي ستكون مهمتها السيطرة على الفضاء». بالإضافة إلى ذلك، تحدث التقرير عن «الحاجة إلى تطوير جيل جديد من الأسلحة النووية... أسلحة نووية أكثر أماناً وفعالية» ينبغي «توفيرها من أجل استهداف المخابئ الآمنة والعميقة جداً تحت الأرض التي يبنيها العديد من خصومنا المحتملين».⁽¹¹⁾ بالطبع، تبدو

هذه الأفكار متطرفة إذا ما أعلنت بشكل واضح وصريح، لذلك اضطروا واضعو «مشروع القرن الأمريكي الجديد لإيجاد اللغة التي تخفف وتلين معانيها.

ذكر تقرير «مشروع القرن الأمريكي الجديد» أن الولايات المتحدة بحاجة إلى أن تقوم بواجبات "شرطي المنطقة"، وهو الدور المرتبط بتشكيل البيئة الأمنية في المناطق الحرجة من العالم». وعبارة «واجبات شرطي المنطقة» هي الطريقة المبهمة للقول أن الجنود الأمريكيين الذين يحتلون بلداناً أجنبية هم شرطة الحيّ الودودين. «تشكيل البيئة الأمنية» هي لغة مؤدبة تعني عملياً السيطرة على الغير بقوة السلاح، و«المناطق الحرجة» طريقة لطيفة للإشارة إلى «البلدان التي نريد السيطرة عليها». بنفس الطريقة، الأسلحة النووية الأمريكية - التي يمكن تسميتها «أسلحة الدمار الشامل» إذا امتلكها طرف آخر - وصفت في التقرير بأنها «الرادع النووي الأمريكي»، بينما وصفت الصواريخ العابرة للقارات بأنها «خندق الدفاع عن الوطن الأمريكي». كيف «يدافعون» عنا؟ عن طريق «توفير قاعدة أمنة لبسط القوة الأمريكية حول العالم».

لفك رموز عبارات كهذه، من المفيد التوقف قليلاً بين حين وآخر ومحاولة تخيل وقع تلك العبارات على أولئك الذين لا يعيشون في الولايات المتحدة. ولإنجاز هذه المهمة، تخيل بكل بساطة أن بلداً ما غير الولايات المتحدة - الاتحاد السوفيتي السابق، العراق، أو حتى إيطاليا أو الهند - أصدر وثيقة تتحدث عن استعمال الصواريخ من أجل «توفير قاعدة أمنة لبسط القوة الإيطالية حول العالم» و«الحيلولة دون صعود قوة عظمى جديدة منافسة». الخطاب المزدوج مكن «مشروع القرن الأمريكي الجديد» من أن يكون صريحاً وغامضاً في آن واحد، وذلك حين يتحدث عن تحقيق «السلام الأمريكي» الذي «ينبغي أن يكون قائماً على أساس التفوق العسكري الأمريكي المطلق»، عبر

نشر القوات الأمريكية في كافة أنحاء العالم لتكون بمثابة «خط الدفاع الأول» عن «حدود الأمن الأمريكي». منذ انهيار الإمبراطورية السوفييتية، يضيف مشروع القرن الأمريكي الجديد، «توسّعت تلك الحدود ببطء لكن بثبات... وخلال العقود التي تلت نهاية الحرب الباردة، شهد الخليج الفارسي والمنطقة المحيطة به زيادة متوالية في تواجد القوات المسلحة الأمريكية». أما إذا قام بلد آخر بتحقيق «زيادة متوالية» في عدد جنوده المنتشرين في كافة أنحاء العالم، فسننظر بالطبع إلى ذلك كمسألة مثيرة للقلق. وحيث يدور الحديث حول جنود أمريكيين، على أي حال، فهؤلاء ليسوا سوى «سلاح الفرسان المنتشر على الحدود الأمريكية الجديدة».

فيما يلي كيفية استعمال «مشروع القرن الأمريكي الجديد» للخطاب المزدوج للتعبير عن الفكرة القائلة بأنّ «سلاح الفرسان» يجب أن يصبح جيش احتلال دائم في الشرق الأوسط:

إن قيمة مثل تلك القواعد، من وجهة نظر أمريكية، هي قيمة فائقة إلى درجة أنها ينبغي أن تقضي حتى بإخراج صدام حسين من المشهد. وعلى المدى البعيد، ربّما أثبتت إيران أنها تشكّل تهديداً كبيراً للمصالح الأمريكية في الخليج كما كان العراق يهدد تلك المصالح. وحتى لو تحسّنت العلاقات الإيرانية الأمريكية، فإن الاحتفاظ بقواعد عسكرية متقدمة في المنطقة يظل عنصراً ضرورياً في إستراتيجية الأمن الأمريكي للمحافظة على المصالح الأمريكية البعيدة المدى في المنطقة.

إذا ترجمنا ما تقدم إلى لغة سهلة وبسيطة، فسيصبح كما يلي، «بغض النظر عن شكل الحكومة التي لديهم، نريد أن يكون جنودنا هناك بحيث يمكننا السيطرة على نفطهم». على أية حال، التحدّث بكلام صريح كهذا يعتبر نوعاً من المحرمات، لذلك يتحدّث الكتاب بأسلوب ملطّف، فيشيرون إلى جنود بدلاً من «قواعد عسكرية متقدمة» و«مصالح أمريكية بعيدة المدى» بدلاً من السيطرة على النفط.⁽¹²⁾

الصادم والمريع

الخطاب المزدوج يمكن أن يبدو أحياناً واضحاً وصريحاً جداً فيما هو يحجب المعنى الحقيقي الذي تجري مناقشته. على سبيل المثال، «الصدمة والترويع» كان هو التعبير الذي اختارته إدارة بوش للإعلان عن إستراتيجيتها من الضربات الجوية التقنية الهائلة لبغداد. وكمذهب حربي، ظهر هذا التعبير للمرة الأولى في كتاب وضعه عام 1996 الكاتبان الإستراتيجيان العسكريان هارلان كي. أولمان وجيمس بي. وايد ونُشر من قبل «برنامج أبحاث القيادة والسيطرة» التابع لمكتب مساعد وزير الدفاع في الولايات المتحدة⁽¹³⁾ والكتاب المشار إليه، والذي يحمل عنوان «الصدمة والترويع: إنجاز الهيمنة السريعة»، يصف «الصدمة والترويع» باعتبارها إستراتيجية «تستهدف التأثير على إرادة وإدراك ومفاهيم الخصم بدلاً من تحطيم قدرته العسكرية بكل بساطة». ويشير إلى عدّة أمثلة من هذه الإستراتيجية التي نجحت في الماضي، بما في ذلك:

- **إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناغازاكي:** «الغاية هنا هي أن تفرض نظاماً من الصدمة والترويع من خلال توجيه مستويات غير مفهومة تقريباً من الدمار الشامل الموجه مباشرة نحو التأثير على قطاعات واسعة من المجتمع، نخبه وعامته، وذلك بدلاً من الاستهداف المباشر للقوات المسلحة أو الأهداف الإستراتيجية حتى بأعداد وأنظمة محدودة نسبياً»، كتب أولمان ووايد.
- **إستراتيجية الحرب الخاطفة النازية في الحرب العالمية الثانية:** «في الحرب الخاطفة الحقيقية [هكذا]، لم تتحقق الصدمة والترويع من خلال الاستخدام الهائل للقوة النارية عبر جبهة واسعة ولا من خلال ممارسة مستويات هائلة من القوة. بدلاً من ذلك، كانت الغاية هي تطبيق مقادير جراحية دقيقة من القوة المركزة بإحكام لتحقيق الحد الأقصى من

الفعالية مع الاقتصاد في استخدام القدرة الكلية... إنَّ الدرس بالنسبة للولايات المتحدة وخصومها المستقبليين فيما يتعلق بمثال الحرب الخاطفة [هكذا] هو أنَّهم سيجدون فينا خصماً قادراً على استخدام قواتٍ متفوّقة تقنياً، تتميز بالتألق، والسرعة، والفعالية العالية في إنجاز الصدمة والترويع من خلال الاستخدام الدقيق للقوة».

وكما يتبيّن من هذه المقتطفات - وكما كتب المقدم الأمريكي مارك جي. كونفرزينو في مراجعته للكتاب المذكور آنفاً، وهي المراجعة التي كتبها عام 1998 ونشرتها دورية الكلية الحربية البحرية - يتبين أنَّ النصوص التي تتحدث عن الصدمة والترويع هي نصوص «تكرارية مشتّتة، وفي بعض الأحيان مفكّكة»⁽¹⁴⁾. (وهذا أمر متوقّع، كما لاحظ أورويل، ذلك أنَّ «العدو الأكبر للغة الواضحة هو النفاق. فحين تكون هناك فجوة بين حقيقة المرء وأهدافه المعلنة، يتحول الكلام إلى ما يشبه الكلمات الغريزية الطويلة والأسلوب المستفيض المسهب، فيصبح الكلام مثل سمك الحَبَّار المتدفّق من إناء مليء بالحبر»⁽¹⁵⁾). علاوة على ذلك، أضاف كونفرزينو، أنَّ «الدليل المستخدم لدعم مفهوم الصدمة والترويع غير متماسك. وقد أورد المؤلفان حججاً قوية لدعم نظرية الحرب الخاطفة التي تبنتها ألمانيا واعتبراها مثلاً على الصدمة والترويع، لكن من المؤسف، يبدو بوضوح أنَّ مؤلفي الكتاب ليست لديهما الخبرة والمعرفة الكافية باستراتيجية الجيش الألماني، ولم ينفكا عن التلظظ بالكلمة الألمانية blitzkrieg (الحرب الخاطفة)... وفي قفزة غير منطقية ولا مفهومة، تم تصنيف المحرقة النازية على أنَّها "سياسة دولة تعتمد الصدمة والترويع!"»⁽¹⁶⁾.

في يناير/كانون الثاني 2003، حين تحرّكت إدارة بوش نحو إعلان الحرب على العراق، عاد مؤلّف كتاب «الصدمة والترويع» هارلان كي. أولمان مرة أخرى للاستشهاد بمثال هيروشима حين شرح ذلك المفهوم لمحطة سي بي

إس نيوز. «لديك ذلك التأثير المستمر، وهو يشبه إلى حدٍّ ما استخدام الأسلحة النووية في هيروشима، والأمر لا يستغرق أياماً أو أسابيع بل دقائق» قال أولمان. وأضاف، «تكون أنت القائد الموجود في بغداد وفجأة، تتم إبادةك أنت و30 من كبار مساعديك في مقر القيادة. يمكنك أيضاً مسح المدينة. أعني بذلك أن تدمر شبكات الكهرباء والماء. خلال يومين، ثلاثة، أربعة، أو خمسة أيام يصبحون منهكين جسدياً وعاطفياً ونفسياً».⁽¹⁷⁾

خلال البداية الفعلية للحرب، على أية حال، قدّم القادة الإعلاميون والعسكريون نظرية «الصدمة والترويع» بعبارات وأوصاف صحيّة ونظيفة، زاعمين أنّ «القنابل الذكيّة» الموجهة بدقة الليزر ستتيح إمكانية قطع رأس الجيش العراقي دون إلحاق الأذى بالمدنيين والإبقاء على البنية التحتية للبلد سليمة. مزاعم مماثلة قيلت أثناء الحرب الأولى في الخليج الفارسي وتبيّن لاحقاً أنها مجرد مبالغات. ومثل النماذج الأخرى من الخطاب المزدوج، يتيح مفهوم «الصدمة والترويع» لمتبنيه إمكانية المصالحة الرمزية بين فكرتين متناقضتين.

من ناحية، يستخدم المدافعون عن هذه النظرية هذا التعبير للتخطيط لاستعمال القوة الهائلة والدمّرة. ومن ناحية أخرى، يركّزون على الأثر النفسي لتلك القوة مما يمكنهم من استعمال هذا التعبير مع إبعاد الجمهور عن التأمل المباشر للمعاناة الإنسانية الناجمة عن استخدام تلك القوة.

ضباب الحرب

في بعض الأحيان، يؤدي الخطاب المزدوج إلى عكس كلي لمعاني الكلمات. في مقال نُشر في مجلة بي آر ويك، لاحظ المعلق بول هولز «بأنّ الاستعمال اللغوي الأوروبي الأبرز كان التفسير الحديث لكلمة "صلة"، كما ظهر ذلك في الاختبار الذي واجهته الأمم المتّحدة فيما يتعلّق بصلتها، وفشلت فيه».

الصلة، في هذا السياق، تعني التأييد ووضع خاتم الموافقة على أي طلب تتقدم به أمريكا. إذا بدا لك ذلك غير ذي صلة، فربما كنت عاجزاً عن فهم مبدأ القوة التي تصنع الحق في العالم الذي نعيش فيه».⁽¹⁸⁾

في الأحوال الطبيعية، «الدبلوماسية» تعني الإشارة إلى العملية التي من خلالها تعبّر الدول عن رغبتها في حلّ خلافاتها بالطرق السلمية، عبر المفاوضات والمساومات. على أية حال، أثناء الانشغال بإعداد العدة للحرب، أصبحت «الدبلوماسية» تعني العملية التي من خلالها تمارس الولايات المتحدة الضغط على الدول الأخرى لتقديم الدعم والتأييد للحرب. وحين رفضت تلك الدول تلبية الطلب، أصبح ذلك «فشلاً للدبلوماسية».

بالطريقة نفسها، استخدمت إدارة بوش عبارة «الدفاع الوقائي» لوصف قرارها بالهجوم أولاً، دون وجود أعمال استفزازية علنية من الجانب العراقي - وهي عبارة يمكن استخدامها لتبرير مهاجمة من نريد على أساس أنهم قد يهاجمونا في يوم ما. لاحظ أيضاً استبدال كلمة «الحرب» بكلمة «الدفاع» - والاستخدام الدائم للخطاب المزدوج يرجع في الولايات المتحدة إلى العام 1947 حين تم استبدال اسم «وزارة الحرب» باسم «وزارة الدفاع».⁽¹⁹⁾

في بعض الأحيان اللغة نفسها تجعل المعاني ضبابية. «تغيير النظام»، عبارة أخرى وجدت طريقها إلى «مشروع القرن الأمريكي الجديد»، وهي عبارة تهدف إلى إلقاء صبغة من النظافة على المشروع الإمبريالي الهادف إلى إسقاط حكومة أجنبية عبر الغزو العسكري. وهذه العبارة تجعل العملية عقلانية وكفوءة ومرتبّة. وهي تجعل من الممكن التحدّث عن غزو العراق حتى من دون التفكير بالنتائج الإنسانية المرتبة على ذلك: الاغتيال والاحتلال أو مقتل آلاف الأبرياء. وفي الحقيقة كان هناك نقاش صغير في الولايات المتحدة قبل الحرب حول تلك الحقائق. لم تطرح أي أسئلة في الإدارة أو الكونجرس حول ما إذا كانت التكلفة الاجتماعية والإنسانية تبرر العمل العسكري فعلاً.

إن طرح مثل هذه الأسئلة لا يعني بالضرورة أنك تعارض القيام بعمل عسكري. من الممكن إثارة هذه القضايا والاستمرار بالمجادلة حول ما إذا كانت المنافع المتوقعة من غزو العراق وإسقاط حكومته تستحق التكاليف المترتبة على الغزو. في الولايات المتحدة، على أية حال، لم تحاول إدارة بوش تقديم مثل هذه الحجة. بدلاً من ذلك، استخدمت اللغة لتجنب الإفصاح عن الخسائر الناجمة عن الحرب.

الصحفي بوب كيمبر من صحيفة شيكاغو تريبيون ذكر أنَّ موظفين مدنيين وعسكريين اتحاديين تلقوا تعليمات من البيت الأبيض بوجوب الإشارة إلى احتلال العراق باعتباره «حرب تحرير». والقوات العراقية شبه العسكرية ينبغي تسميتها «فرق الموت».⁽²⁰⁾

حرب الحروب التي لا تنتهي

إن فكرة «الحرب على الإرهاب» نفسها تعتبر شكلاً من أشكال الخطاب المزدوج. وهي تعكس سلوكاً جديداً يكاد يصبح عاماً ويقضي باستخدام الحرب كمجاز واستعارة للإشارة إلى مختلف أنواع الأشياء التي ليست في الواقع حروباً على الإطلاق. «هل لاحظت أبدأ أننا في هذه البلد حين نواجه مشكلة من نوع ما، فنحن نعلن دائماً الحرب عليها؟» قال الممثل الكوميدي جورج كارلن مرة مازحاً. «الحرب على الأمية، الحرب على الأيدز، الحرب على التشرد، الحرب على المخدرات... نحن في الحقيقة لا نفعل شيئاً حيال ذلك كله، لكننا نعلن الحرب عليه».

تاريخ الحروب الأمريكية ذات الأهداف الملتبسة يبدأ فعلاً بالحرب العالمية الأولى، التي سُوِّت لدى الأمريكيين باعتبارها «الحرب لإنهاء الحرب» و«الحرب لجعل العالم آمناً وديمقراطياً». اليوم، بعد قرن تقريباً، نستطيع أن نرى كم كانت تلك الشعارات فارغة في الحقيقة. عادة، الذين يشنون الحروب

المجازية يدركون منذ البداية بأنّ النصر، كما هو مفهوم في الحروب الحقيقية، لن يتحقق. انتشار المخدرات، الفقر، المرض، والإرهاب كلها آفات كانت موجودة منذ وقت طويل جداً، وهي لن تختفي ببساطة لأن بعض السياسيين أعلنوا الحرب ضدها. بدلاً من ذلك، الذي يحدث عادة هو أنّ تلك الحروب تؤسس ليبروقراطية دائمة تصبح بمثابة البالوعة للمصادر والطاقات وتعمل على إصدار الحثّ الدوري للجمهور كطريقة للتعويض عن حقيقة أنّ النصر في تلك الحروب بعيد المنال.

في البدايات الأولى لإعلان «الحرب على الإرهاب»، سأل أحد المراسلين دونالد رمسفيلد قائلاً، «سيدي، ما الذي يشكّل نصراً في هذه البيئة الجديدة؟ أعني، الكابتن واينبرغر وضع عام 1987 بعض القواعد الواضحة جداً التي تحدد أسس استخدام القوات الأمريكية. أحد تلك الشروط كان وجود أهداف واضحة قابلة للإنجاز عسكرياً، وهو ما يمكن توضيحه بوجود مرحلة نهائية. ماذا لديك من أفكار أولية هنا، فيما يتعلّق بطبيعة النصر؟».

«هذا سؤال جيد، بالنسبة لما يشكّل النصر»، أجاب رمسفيلد. «أنا أُميّز النصر بالطريقة التالية. أعتقد بأنّه من غير المحتمل أن ننجح في تغيير طبيعة البشر». علاوة على ذلك، «بسبب نهاية الحرب الباردة وبسبب حرب الخليج، التي علّمت الناس عدم جدوى مواجهة جيوش برية وقوات بحرية وجوية، بدأت بعض البلدان بالبحث عن طرق لا متماثلة يمكنهم من خلالها أن يهدّدوا الولايات المتّحدة والدول الغربية. بالتكاثر، وعبر انعدام التوتر، يتيح ذلك التكاثر للناس إمكانية الحصول على القدرات ذات القوة المتزايدة، القوة التي تبلغ درجة تجعلنا لا نتحدّث عن الآلاف، بل عن آلاف مضاعفة من الناس... يجب أن نعرف مقدار التهديد والمدى الذي يريد الناس إعطاءه لحياتهم، كما فعل أولئك الطيارون الذين قادوا تلك الطائرات، وألحقوا بنا الضرر».

إنّ كلمة «لا متماثلة» الواردة في الاقتباس أعلاه هي إشارة إلى «الحرب

اللا متماثلة»، وهو تعبير يستخدمه المخطّطون العسكريون لوصف بعض الإستراتيجيات مثل الإرهاب. الحرب اللا متماثلة تتيح لمن يملكون مصادر عسكرية أو اقتصادية محدودة القدرة على مواجهة الأعداء الذين يفوقونهم بكثير من حيث القوة. وبعد اعتراف كهذا مفاده أنّ الهيمنة الإمبراطورية الأمريكية هي بالضبط السبب الذي جعل الانتحاريين يغيرون بالطائرات على مبانينا، تقدّم رمسفيلد أخيراً للإجابة على السؤال:

«والآن، ما هو النصر؟ أنا أقول بأنّ النصر هو إقناع الشعب الأمريكي وبقية شعوب العالم بأنّ هذه ليست مسألة سريعة يمكن أن تنتهي في شهر أو سنة أو حتى خمس سنوات. إنه الشّيء الضروري الذي يتوجب علينا القيام به بحيث يمكننا أن نواصل العيش في عالم مليء بالأسلحة الفتاكة ومع أناس يرغبون باستعمال تلك الأسلحة الفتاكة. ونحن نستطيع أن نفعل ذلك كدولة. وذلك سيكون، برأيي، هو النصر».⁽²¹⁾

رمسفيلد رجل ذكي، ويدرك أنّ المعنى الكامن وراء كلماته يتطلّب قراءة حذرة. للوهلة الأولى، قد يغريك الاعتقاد بأنّه كان يقول بأنّ الولايات المتّحدة ستحقق النصر بالإبقاء على حيازتها لما سمّاه «الأسلحة الفتاكة». في الحقيقة، مع ذلك، كان يعترف بأنّه حتى قوّة عظمى كالولايات المتّحدة لن تكون قادرة على منع بقية العالم من الحصول على أسلحة فتاكة تستطيع بواسطتها «إلحاق الضرر بنا».

لذلك، إذا كان الإرهاب نفسه لا يمكن أن ينتهي، فإن رمسفيلد كان يقول بأننا نحتاج لتغيير طريقة التفكير بشأن تلك المشكلة، بحيث نتعلّم بشكل أفضل كيف نتوقّع «المرحلة النهائية» للحرب على الإرهاب. تعريفه للنصر، باختصار، يصبح «إقناع الشعب الأمريكي» بأنّ النصر الحقيقي لن يحدث، وأنّ الحرب نفسها قد تستمرّ إلى ما لا نهاية.

الرئيس بوش أوضح، في أبريل/نيسان 2003، المفهوم باختصار مفيد أكثر، وذلك بعد زيارته للجنود الجرحى الآتين من الحرب على العراق. «ذكرتهم وعوائلهم»، قال، «بأن الحرب على العراق هي فعلاً من أجل السلام».⁽²²⁾
والآن، هذا هو الخطاب المزدوج.

•
•
• •

5. استخدام الخوف

الإرهاب والدعاية كلاهما اتخذ أشكالاً مختلفة عبر التاريخ، لكن الإرهاب كشكل من أشكال الدعاية أصبح أحد أكثر الظواهر إرباكاً وخطراً على المجتمع الحديث. الحملات العسكرية أرادت دائماً إثارة الخوف في نفوس جنود العدو كجزء من معركة السيطرة على «القلوب والعقول». معظم الحملات العسكرية، على أية حال، تستخدم الخوف كوسيلة ثانوية ضمن حرب يكون هدفها النهائي هو احتلال أو تدمير أرض العدو أو أسلحته، مصادره المادية، أو قدرته الطبيعية على شنّ الحرب. الإرهاب، بالمقابل، هو وسيلة تكتيكية يستخدمها في أغلب الأحيان الممثلون السياسيون الذين لا أمل لهم أبداً في قهر عدوهم قهراً مادياً ملموساً. بدلاً من ذلك، هدفهم هو أن يهزموا العدو نفسياً من خلال الاستخدام المحسوب والمنظم للعنف والتهديد باستخدام العنف.

خلال الحقبة الممتدة بين 1870 و 1920، ارتبط الإرهاب بالفلسفة السياسية الفوضوية، التي نفذ أتباعها عدداً من محاولات الاغتيال لقادة سياسيين ورجال أعمال، بما في ذلك الرئيس الأمريكي وليام ماكينلي. ميخائيل باكونين، وهو من أتباع الفوضوية في القرن التاسع عشر، وصف هذه الإستراتيجية بأنها «دعاية المآثر». المدافعون عن «دعاية المآثر» اعتقدوا أن البطولة والصراحة الفائقة في أقوالهم وأعمالهم ستلهم الجماهير وتجعل الأفكار الفوضوية أكثر شهرة. على أية حال، على خلاف الإرهابيين المعاصرين، مال هؤلاء إلى استهداف الأفراد الذين يُعتبرون مسؤولين عن اضطهاد الجماهير، وتجنبوا ارتكاب العنف العشوائي ضد الأبرياء. على سبيل المثال، ألغى الراديكاليون الروس نيتهم باغتيال القيصر ألكساندر الثاني في منتصف القرن التاسع عشر وذلك بسبب القلق من أنهم قد يتسببون بإصابة أو قتل بعض النساء أو الأطفال أو المسنين.⁽¹⁾

خلال القرن العشرين، تطوّر الإرهاب بشكل تدريجي، فأصبح أكثر دموية وعشوائية إذ أن مرتكبيه أرادوا تحقيق الحد الأقصى من التأثير النفسي لأعمالهم. وطبقاً لرأي جيرولد بوست، مدير برنامج علم النفس السياسي في جامعة جورج واشنطن، فإن الجماعات الإرهابية المتطورة تدرس وتستخدم العلاقات الإعلامية وتوزّع الكتيبات التي توضح كيفية اجتذاب الحد الأقصى من الانتباه الإعلامي. بوست الذي كان يتحدث في نادي الصحافة الوطني الأمريكي في 12 فبراير/شباط 2003، عرض بالتفصيل دراسة تبين أن الهجمات الإرهابية في أيرلندا الشمالية تحدث غالباً أيام الخميس بعد الظهر بين الساعة 5:00 و 6:00. «السبب في ذلك هو أن الموعد النهائي لاكتمال مواد صحف يوم الجمعة، التي تحمل في طياتها قسائم التخفيضات في الأسواق المركزية وإعلانات البيع بأسعار مخفضة، هو الساعة 6:00 مساءً»، هكذا أوضحت الأمر صحيفة أودوير بي آر دايلي التي غطّت المؤتمر الصحفي الذي

تحدث فيه بوست. «أيّ عمل إرهابي يرتكب قبل الساعة 5:00 مساءً يعطي الصحفيين وقتاً كافياً لتحليله وإيراده والتعليق عليه ضمن السياق، أما بعد الساعة 5:00 مساءً فليس هناك وقت سوى لتمزيق العنوان البارز الحالي واستبداله بعنوان بارز مرعب يقول أن الإرهابيين يريدون إظهار قدرتهم»، قال بوست.

حافظ الميرازي، مدير مكتب قناة «الجزيرة» الفضائية في واشنطن، الذي تحدّث في نفس المناسبة إلى جانب بوست وافق أيضاً بأنّ الإرهابيين يستغلّون وسائل الإعلام لتحقيق الفائدة القصوى. «إذا لم تبث محطة سي إن إن أو فوكس أو غيرها على شاشاتها أخباراً عاجلة عند مقتل بعض الفلسطينيين، وفعلت ذلك عند مقتل بعض الإسرائيليين فقط، إذاً فسيخرجون [الإرهابيين] ويقتلون إسرائيلياً»، قال الميرازي.⁽²⁾

جيمس إي. لوكازيوسكي، مستشار العلاقات العامة الذي تقدّم النصائح للدوائر العسكرية الأمريكية والشركات الرئيسية، يذهب أبعد من ذلك، إذ يصرّح بأنّ «التغطية الإعلامية والإرهاب تربطهما علاقة وثيقة وهما، عملياً، متلازمان. يغذّي كل منهما الآخر. وكلاهما يساهم في صنع رقصة الموت - أحدهما لدوافع سياسية أو إيديولوجية، والآخر لتحقيق النجاح التجاري». يحتاج الإرهابيون إلى أجهزة الإعلام للفت الانتباه نحو قضاياهم، كما أن الطبيعة المدهشة والحساسية لجرائمهم تجذب الاهتمام الإعلامي. كتب لوكازيوسكي أن «النشاطات الإرهابية تحتل موقعاً بارزاً ضمن اهتمامات وسائل الإعلام، وتعتبر من الأحداث التي تؤدي تغطيتها إلى تعزيز مكانة الوسيلة الإعلامية». «تحتاج وسائل الإعلام الإخبارية إلى الإطالة والتعمّق في تلك القصص لأن ذلك يكسبها مزيداً من المشاهدين والقراء... إنّ الزواج بين الإرهابي وأجهزة الإعلام حتمي. إنها رقصة الموت المرهقة، المتوقعة، والضرورية في أغلب الأحيان».⁽³⁾

أبدى لوكازيوسكي تلك الملاحظات عام 1987، قبل 14 عاماً من هجوم القاعدة على وزارة الدفاع الأمريكية ومركز التجارة العالمي. قد تبدو تلك الآراء والملاحظات متطرفة، وربما أدت إلى سحب اعتراضات بعض المراسلين مثل دان راثر، الذي صدمته وروّعته أحداث ذلك اليوم كأي شخص آخر - ربما بدرجة أكبر، لأنه شهد الأحداث شخصياً وشاهد صوراً وأفلام لم يشاهدها الجمهور التلفزيوني. لذلك، لوكازيوسكي نفسه ربما أمكن اتهامه بأنه يحمل بعض السمات الذهنية المشتركة مع الإرهابيين. لكن الأمر المشترك بين وسائل الإعلام الجماهيري، والعلاقات العامة، والإعلان، والإرهاب هو النظرة إلى الاتصالات التي تعتبر في أفضل الأحوال «نموذجاً دعائياً».

النموذج الدعائي يختلف من عدة وجوه مهمة عن الفرضيات السائدة حول مفهوم الاتصال كما نتوقعه في النظم الديمقراطية. تبدأ الاختلافات بطريقة تعريف الاتصال نفسه. ينظر الدعاة إلى الاتصالات كمجموعة من التقنيات التي ترمي إلى تلقين «الجمهور المستهدف»، في حين أن المفهوم الديمقراطي للاتصال يعرفه كعملية مستمرة من الحوار بين الأصوات المتنوعة. بالطبع، الأسلوب الدعائي يصبح أكثر جاذبية في أوقات الحرب، حينما يكون كل طرف منشغلاً بمسألة المعالجة والسيطرة على أفكار العدو أو السكان المحليين. «الدعاية يريد الترويج لمصالحه الخاصة أو مصالح المنظمة التي يعمل من أجلها - أحياناً يكون ذلك على حساب المتلقين، وأحياناً لا يكون»، كتب غارث جويت وفيكتوريا أودونيل في كتابهما المعنون «الدعاية والإقناع». «النقطة المهمة هي أن الدعاية لا يضع في اعتباره مصلحة وسلامة الجمهور كهم أساسي».⁽⁴⁾ الدعاة يميلون أيضاً إلى الاستخفاف بنضج وإدراك جمهورهم. في كتابه «كفاحي» كتب أدولف هتلر أنه يفضل التحدث إلى الجمهور الذي تناول عشاءه للتو، حيث يكون ذلك الجمهور مرتاحاً ويتملكه النعاس. العلماء الأوائل الذين درسوا الدعاية سمّوها الاتصال باتباع

«أسلوب الإبرة تحت الجلد»، حيث يكون هدف خبير الاتصال هو أن «يحقن» أفكاره في عقول الجمهور المستهدف.⁽⁵⁾

إذا كان هذا هو هدفك، فإن الجمهور المتسلح بفكر نقدي والمهيأ لتحدي رسالتك يصبح مشكلة يجب أن تتغلب عليها. وفيما الديمقراطية مبنية على فرضية أن «الناس» راشدون وقادرون على إصدار الأحكام العقلية بأنفسهم، يعتبر الدعاة أن الرشد عقبة في وجه التلقين الفعال. وباعتبار أن الدعاية تستهدف في أغلب الأحيان إقناع الناس بفعل الأشياء التي لا تتفق دائماً مع مصالحهم الخاصة، فهي تتجه باستمرار نحو تجاوز العقل الواعي جملة وتفصيلاً وتتعامل معنا على مستوى أكثر بدائية، فتدغدغ الرموز والأحاسيس العاطفية. يتحدث المعلنون عن بيع «المذاق، وليس قطعة اللحم». يزرعون نساء يرتدين «البكيكي» بجانب أقذاح البيرة والسيارات متوقعين منا ربط بين منتجاتهم والجنس. التلفزيون يستخدم الضوضاء العالية والمفاجئة لاستثارة رد فعل مباغت، الألوان البراقة، العنف - ليس لأن هذه الأشياء جذابة أصلاً، بل لأنها تثير انتباهنا وتبقينا متيقظين. عند انتقاد هذه الممارسات، يرد المدراء التنفيذيون لحطات التلفزة والمعلنون بأنهم يفعلون ذلك لأن هذا «ما يريده جمهورهم». في الحقيقة، تجدر الإشارة إلى أن هذا الأسلوب يستجيب بشكل انتقائي لبعض سمات الطبيعة البشرية - السمات الأكثر بدائية، لأنها الأكثر توقّعاً لدى العامة.

الخوف هو أحد أكثر العواطف بدائية في الروح الإنسانية، وهو يبقينا بالتأكيد في حالة مراقبة. إذا كان مجرد القدرة على إبقاء الناس في حالة مراقبة هو المرادف التام لـ «إعطاء المشاهدين ما يريدون»، فينبغي أن نستنتج إذناً بأن الناس «يريدون» إرهاباً. في 11 أيلول/سبتمبر، أبقى أسامة بن لادن العالم بأكمله في حالة مراقبة. وبقدر ما كره الناس ما كانوا يرونه، إلا أن قوة غرائزهم منعتهم من الابتعاد عن متابعة المشاهد.

والخوف قد يجعل الناس يفعلون أشياء أخرى من النوع الذي لا يفعلونه إذا كانوا في حالة تسمح لهم بالتفكير العقلاني. خلال محاكم جرائم الحرب في نوريمبيرغ، زار العالم النفساني غوستاف جلوبرت القائد النازي هيرمان غورنغ في زنزانته في السجن. «تطرقنا مرة أخرى إلى موضوع الحرب وقلت، على العكس من موقفه، بأنني لا أعتقد بأنّ عامة الشعب ممتنون جداً للزعماء الذين جلبوا لهم الحرب والدمار»، كتب جلوبرت في مجلّته «مفكرة نوريمبيرغ». «لماذا؟ بالطبع، "الناس" لا يريدون الحرب»، قال غورنغ مستهجنًا. «لماذا يريد مزارع ساذج وفقير المخاطرة بحياته في الحرب حين يكون أفضل ما يتمناه هو الخروج منها والعودة سالمًا إلى مزرعته؟ من الطبيعي أن عامة الشعب لا يريدون الحرب: لا في روسيا ولا في إنجلترا ولا في أمريكا، ولا حتى في ألمانيا. ذلك مفهوم. لكن، مع ذلك، زعماء البلاد هم الذين يقرّرون السياسة، وجرّ الناس خلفهم مسألة بسيطة دائماً، سواء في النظم الديمقراطية أو الدكتاتورية الفاشية أو البرلمانية أو الدكتاتورية الشيوعية». «هنالك اختلاف واحد فقط»، أشار جلوبرت. «في النظم الديمقراطية، يدلي الناس برأيهم في المسألة من خلال ممثليهم المنتخبين، وفي الولايات المتحدة الكونجرس هو الجهة الوحيدة التي يمكنها إعلان الحرب».

«أوه، كلّ ذلك شيء حسن»، ردّ غورنغ، «لكن، بالتصويت أو بدون التصويت، يمكن دائماً جلب الناس إلى حظيرة الزعماء. ذلك أمر سهل. كلّ ما يتوجب عليك هو أن تخبرهم أنهم يتعرضون لهجوم وتشجب المتخاذلين وتتهمهم بنقص الوطنية وأنهم يُعرّضون البلاد للخطر. هذا الأسلوب ينجح بالطريقة نفسها في أيّ بلد».⁽⁶⁾

آرنولد يحصل على الهامر

السياسيون والإرهابيون ليسوا الدعاة الوحيدين الذين يستعملون الخوف لقيادة السلوك البشري في الاتجاهات اللا عقلانية. أحدث استعمال مميز لعامل الخوف في مجال التسويق برز بعد «عملية عاصفة الصحراء» عام 1991. أثناء الحرب، ساعدت التغطية التلفزيونية لعربة «همفي» المسلحة وهي تكتسح الصحراء على إطلاق عربة «الهامر»، وهي نسخة استهلاكية من العربة التي صُممت في الأصل خصيصاً للاستخدام العسكري. الفكرة الأولية بإطلاق نسخة استهلاكية من تلك العربة جاءت من الممثل آرنولد شوارزنيغر، الذي أراد الحصول على عربة ذات مظهر حربي قاسٍ. واستجابة لإلحاحه، شرعت إي أم جنرال (ما تبقى من شركة أمريكيان موتورز القديمة) عام 1992 بصنع عربة الهامر المدنية، على أن يتسلم شوارزنيغر نفسه العربة الأولى بعد خروجها من نظام التجميع.⁽⁷⁾

بالإضافة إلى عربة الهامر، ساعدت الحرب على إطلاق هوس واسع النطاق بالعربات الرياضية الكبيرة في الولايات المتحدة. الطبيب النفساني كلوتاير رابايل، الذي يعمل مستشاراً في قطاع صناعة السيارات، أجرى في أعقاب الحرب دراسات على السلوك الاستهلاكي لصالح شركة كرايسلر وذكر في دراسته أن الأمريكيين عبروا عن رغبتهم في الحصول على سيارات «عدوانية». ⁽⁸⁾ وفي مقابلات أجراها معه كيث برادشر، المدير السابق لمكتب النيويورك تايمز في ديترويت، ناقش رابايل نتائج بحثه بشكل صريح. العربات الرياضية، قال، هي «الأسلحة» - سيارات مدرّعة لساحة المعركة - التي تستجيب لأعمق مخاوف الأمريكيين من العنف والجريمة.⁽⁹⁾ رابايل ساعد أيضاً شركة كرايسلر في التخطيط لإنتاج عربة بي تي كرويسر، التي صُممت عمداً لتبدو مثل سيارات أشقياء الثلاثينات. صُممت تلك العربة، قال، لجعل السائق يشعر وكأنه «أل كابوني يقود عربته، وإلى جانبه بندقيته الآلية». عربة

دودج دورانجو صُمِّمت لتبدو مثل قطة الغابة الوحشية. «حيوان قوي له فك كبير، لذلك وضعنا لها حواجز صدّ كبيرة الحجم»، قال رابايل.⁽¹⁰⁾ ميزة عدوانية أخرى رُوِّج لها منتجو العربات الرياضية هي «حارسة الشواء». «حارسة الشواء مفيدة بشكل خاص لدفع ظباء الأوريكس بعيداً عن الطريق في ناميبيا، وليس لها فوائد عملية في أوضاع القيادة الطبيعية»، لاحظ الكاتب غريغ إيستربروك. «لكنهم يجعلون العربات الرياضية تبدو ذات مظهر شديد الغضب، خصوصاً عند النظر إليها عبر المرآة الخلفية... حارسات الشواء تزيد أيضاً من احتمال تسبب العربات الرياضية بمقتل شخص ما في حادث سير».⁽¹¹⁾

العربات الرياضية الكبيرة التي سُوِّقت عمداً كـ«عربات طرق هجومية فاخرة»⁽¹²⁾ تثير الخوف في النفوس، فيما هي في الواقع تعجز عن جعل حياة الناس أكثر أماناً. تلك العربات تجعل مالكيها يشعرون بالأمان، ليس بحمايتهم، لكن بإشباع قواهم ودوافعهم العدوانية. بسبب قابلية العربات الرياضية للانقلاب، يلاحظ برادشر، فإن معدل وفيات سائقي العربات الرياضية في الحقيقة هو أعلى بنسبة 6 بالمائة من سائقي السيارات العادية - وهو أعلى بنسبة 8 بالمائة لدى سائقي العربات الرياضية الأكبر حجماً.⁽¹³⁾ رابايل نفسه يفهم ذلك جداً؛ ذلك أنه يرفض قيادة العربات الرياضية بسبب الخطر المتزايد من خطر الانقلاب.⁽¹⁴⁾ بالطبع، هذه العربات تستهلك أيضاً مقداراً أكبر من الوقود. وطبقاً للتجّار وموزعيها، فإن عربة الهامر بالكاد تقطع مسافة تتراوح بين 8 و 10 أميال لكلّ غالون من الوقود كمعدلٍ وسطي⁽¹⁵⁾ - وهو رقم يكتسب أهمية إضافية في ضوء الدور الذي يلعبه الاعتماد على النفط الأجنبي في تشكيل علاقات أمريكا ببلدان الشرق الأوسط.

مع اتصافها بهذه المجموعة من الميزات، يصبح بيع العربات الرياضية نوعاً من التحدي، وهذا هو السبب الذي يجعل رابايل ينصح صانعي السيارات

في ديترويت باستمرار بالاعتماد بدلاً من ذلك على مشاعر الخوف اللا عقلانية. بعد ستة أشهر على هجمات 9/11 الإرهابية، ذكرت مجلة فورتشن أن شركة فورد انضمت إلى كرايسلر في قبول نصيحة رابايل. الآن «الوطن في حالة حرب»، قال لهم رابايل، وينبغي على شركات صناعة السيارات استخدام مواضيع «الأمن والسلامة» لبيع العربات. علاوة على ذلك، يقول، يجب أن يصمّموا منتجاتهم بحيث تستثير العواطف الأكثر بدائية لدى الزبائن. وقد اشتكى من أن بعض الشركات لم تنضم بعد إلى البرنامج. «ما زالوا ينتجون سيارات القشور»، قال.⁽¹⁶⁾ و«سيارات القشور» التي أشار إليها هي بالطبع السيارات التي يتخذ مالكوها قرارات شرائها استناداً إلى تقييم عقلاني لمزاياها مثل الاقتصاد في الوقود والسلامة والثقة.

الحرب على العراق التي انطلقت في مارس/آذار 2003 أمنت أيضاً دفعا لمبيعات العربات الرياضية، ولعربات الهامر بشكل خاص. في الحقيقة، لاحظ مراسل النيويورك تايمز داني حكيم، أن الهامر «ظلت هي الطراز الوحيد في ديترويت الذي تتزايد مبيعاته دون تقديم حوافز». وبالإضافة إلى العربة نفسها، استغلت الشركة الصانعة رواج عربتها بإطلاق تجارة سريعة بمعدات ومستلزمات الهامر - مواد مثل الهامر المصغرة التي تقاد عن بعد والمجهزة بآلة تصوير تجسسية وشاشة مراقبة والبالغ سعرها 449 دولاراً، أو دراجة الهامر الجبلية التكتيكية البالغ سعرها 795 دولاراً، أو الدراجات المزخرفة القابلة للطّي والمخصصة للمظليين.⁽¹⁷⁾

«عندما شغلت التلفزيون، رأيت عربة همفي الضخمة، وشعرت بالفخر»، قال سام برنشتاين البالغ من العمر واحد وخمسين عاماً وهو تاجر سيارات قديمة في كاليفورنيا ويقود عربة هامر إتش 2. وأضاف، «لو كنت أستطيع الحصول على [دبابة] أبرامز إي 1، لفعلت».⁽¹⁸⁾

بالإضافة إلى السيارات، عمدت منتجات أخرى إلى استغلال فرص التسويق

المستندة إلى عامل الخوف في أعقاب 11 سبتمبر/أيلول. «الخدعة في العام 2002، يقول خبراء الشؤون العامة والميزانيات، ستكون هي إعادة تعريف بضاعتك المفضلة أو منتجاتك باعتبارها مسألة أمن داخلي»، كما جاء في مجلة بي آر وييك. «إذا كنت تستطيع إقناع الكونجرس بأن منتجات شركتك ستقوّي حدود أمريكا، أو أن تمويل مشروع زبونك المحبوب سيجعل أمريكا أقل اعتماداً على المصادر الأجنبية، عندئذٍ فقط ربما تتمكن من الحصول على ما تريد».⁽¹⁹⁾

عضو مجلس الشيوخ عن ولاية الاسكا فرانك موركوسكي استخدم الخوف من الإرهاب للضغط والحصول على الموافقة الاتحادية على التنقيب عن النفط في المحمية الوطنية للحياة البرية في المنطقة القطبية، حيث قال لزملائه بأنّ المشتريات الأمريكية من النفط الأجنبي تدعم صدام حسين ومنفذي العمليات الانتحارية الفلسطينيين.⁽²⁰⁾ أقطاب صناعة الطاقة النووية سعوا من أجل الحصول على الموافقة بجعل جبل يوكا بولاية نيفادا مستودعاً للنفايات النووية ذات المستوى الإشعاعي العالي عبر الإدّعاء بأن تخزين تلك النفايات هناك يحول دون وقوع مواد الأسلحة النووية في أيدي الإرهابيين.⁽²¹⁾ بالطبع، لم يقترحوا إغلاق محطات الطاقة النووية، باعتبارها من الأهداف الأساسية للإرهابيين. وطبقاً لوكالة الأسوشيتد برس، فإن «ضربة مباشرة لمصنع نووي بطائرة جمبو حديثة تسير بسرعة عالية "يمكن أن يخلق حالة أشبه بما حدث في تشيرنوبل"، قال مسؤول أمريكي رفض الكشف عن اسمه».⁽²²⁾ ولواجهة هذا النوع من القلق بين المشرّعين، نشر معهد الطاقة النووية إعلاناً في عدد 26 يناير/كانون الثاني 2002 من المجلة الوطنية، يُبرز فيه ذوي «التدريب الممتاز والالتزام التام... الرماة الخبراء» الذين يحرسون محطات الطاقة النووية، الجاهزون للتصدي لأيّ تهديد قد يعترض طريقهم⁽²³⁾ (بالطبع، حتى الرامي «الممتاز التدريب» لن يكون قادراً على إسقاط طائرة 747 مهاجمة)

المجلس الوطني لمكافحة المخدرات جدّد أدوات الحرب على المخدرات بإطلاق حملة إعلانات تلفزيونية تقول للناس بأنّ تدخين الماريوانا يساعد على تمويل الإرهاب. أخصائيو البيئة حاولوا استغلال مسألة صندوق تمويل الإرهاب وسحبها في اتجاه مختلف، وانضمّوا إلى المعلقة الصحفية أريانا هوفينغتون لإطلاق «مشروع ديترويت»، الذي أنتج مجموعة من الإعلانات التلفزيونية التي ظهرت بعد إعلانات المجلس الوطني لمكافحة المخدرات. «هذا هو جورج»، يقول صوت في الإعلان. «هذا هو الوقود الذي اشتراه جورج لعربته الرياضية». تظهر على الشاشة خريطة الشرق الأوسط. «هذه هي البلدان التي اشترى منها المدراء التنفيذيون النفط الذي صُنِعَ منه الوقود الذي اشتراه جورج لعربته الرياضية». تنتقل الصورة إلى مشهد إرهابيين مسلّحين في صحراء. «وهؤلاء هم الإرهابيون الذين يحصلون على المال من تلك البلدان كلّما ملأ جورج خزان عربته الرياضية بالوقود». في ديترويت وفي أمكنة أخرى، على أية حال، محطات التلفزيون التي كانت سعيدة جداً ببث إعلانات البيت الأبيض ضدّ المخدرات رفضت قبول إعلانات «مشروع ديترويت» التجارية، قائلة أنها «غير ملائمة كلياً».⁽²⁴⁾

11 سبتمبر/أيلول قورن كثيراً بالهجوم الياباني على بيرل هاربور، حيث حدّر مسؤولو البيت الأبيض من أنّ الحرب على الإرهاب ستكون مطوّلة وصعبة مثل الحرب العالمية الثانية وتتطلّب تضحيات مماثلة. على أية حال، مهما استلزمت تلك التضحيات، كان واضحاً منذ البداية بأنّها لن تتضمن اتخاذ أية تدابير احتياطية. أثناء الحرب العالمية الثانية، عمل الأمريكيون على حفظ وتقنين استهلاك المصادر كما لم يحصل من قبل. فُرض التقنين على الغازولين، العجلات، وحتى على الغذاء. جمع الناس النفايات مثل الورق ومخلفات الطبخ المنزلي لكي يعاد تصنيعها واستخدامها في المجهود الحربي. قارن ذلك بالعنوان البارز الذي ظهر في صحيفة أودوير بي آر دايلي في 24

سبتمبر/أيلول، بعد أقل من أسبوعين من الهجوم الإرهابي: «تحتاج العلاقات العامة لحث المستهلكين على الاستمرار بالإنفاق». استشهد المقال برأي المدير التنفيذي في مجال العلاقات العامة والتسويق مورين ليبّي الذي قال إن «الخدمة الأعظم التي يمكن لمحترفي العلاقات العامة تقديمها دعماً للبلاد هي ضمان مواصلة المستهلكين للشراء».⁽²⁵⁾

الرئيس بوش بنفسه ظهر في الإعلانات التلفزيونية التجارية ليحثّ الأمريكيين على أن «يعيشوا حياتهم» بالمضي بالخطط التي وضعوها للعطل والإجازات ومتابعة مشترياتهم الاستهلاكية الأخرى. «رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يشجّعنا على الشراء»، كتب خبير التسويق تشوك كيلى في افتتاحية صحيفة ستار تريبيون التي تصدر في مينيابوليس/سانت بول، والذي جادل في مقالته تلك بأنّ أمريكا قد «بدأت رحلة الوطنية الروحية» التي «تتعلّق بالفخر والولاء والرعاية والإيمان» - وبالطبع، المبيعات. «مسوّقو المنتجات والخدمات يجب أن يفهموا تعقيدات الوطنية الروحية كي ينجحوا في أسواق اليوم»، كتب كيلى. وأضاف، «كمسوّقين، نتحمّل مسؤولية الإبقاء على حركة الاقتصاد... مهمتنا هي أن نخلق الزبائن في واحد من أكثر الأوقات صعوبة في تاريخنا».⁽²⁶⁾

رَجَبُ الرَّئِيس

الخوف وفّر أيضاً القاعدة لمعظم الشعبية المتصاعدة التي حظيت بها إدارة بوش بعد 11 سبتمبر/أيلول. في الأسبوع الذي سبق الهجمات الإرهابية مباشرة، سجّل بوش النقطة الأدنى له على الإطلاق في استطلاعات الرأي، حيث لم يعطه سوى 50 بالمائة فقط من المستجيبين تقديراً إيجابياً. خلال اليومين الذين أعقبا الهجوم، تصاعد ذلك العدد بسرعة فائقة ليصبح 82 بالمائة.⁽²⁷⁾ منذ ذلك الحين، وكلما بدأ اهتمام الرأي العام بالابتعاد عن الاهتمام بمواضيع مثل الحرب والإرهاب، شهدت تقديرات شعبية بوش

المحلية انخفاضاً متتالياً، ثم تعود لتتصاعد ثانية حين تمتلئ موجات الأثير بكلام الحرب. بحلول 13-14 مارس/أذار 2003، انخفضت شعبيته إلى 53 بالمائة - جوهرياً إلى النقطة التي كانت عليها قبل 9/11. في 18 مارس/أذار، أعلن بوش الحرب على العراق، فارتفعت النسبة إلى 68 بالمائة - حتى في ذلك الوقت، بدا، باختصار، أن الحرب تسير بشكل سيئ.⁽²⁸⁾

«في معظم الأحوال، يميل الأمريكيون إلى الالتفاف حول رئيسهم في الأزمات الكبرى ليس تقديرًا لإنجازاته أو أدائه الناجح، بل شعوراً منهم بالحاجة الملحة للوحدة الوطنية - الوقوف معاً - في الأوقات العصيبة، يلاحظ رون فوشو، الذي يحرر مجلة «الحملات والانتخابات»، وهي نشرة تجارية موجهة لمستشاري الحملات السياسية. أربعة رؤساء فقط غير بوش وصل تقدير الرأي العام لأدائهم معدلاً يقارب أو يفوق الـ 80 بالمائة:

- حقق فرانكلين ديلانو روزفيلت أعلى معدل له على الإطلاق - 84 بالمائة - بعد الهجوم الياباني على بيرل هاربور مباشرة.
- قفز هاري ترومان إلى معدل 87 بالمائة مباشرة بعد سقوط ألمانيا أثناء المرحلة النهائية الحاسمة من الحرب العالمية الثانية.
- حقق جون إف. كينيدي 83 بالمائة مباشرة بعد الاحتلال الفاشل لخليج الخنازير في كوبا، وهي الحادثة التي اعتبرت فشلاً ذريعاً للسياسة الأمريكية بكل المقاييس الممكنة.
- والد «دوبيا» [لقب الرئيس الحالي جورج بوش]، الرئيس جورج إتش. دبليو بوش، حقق 89 بالمائة خلال «عملية عاصفة الصحراء».⁽²⁹⁾

الرؤساء الآخرون شهدوا أيضاً ارتفاعاً في نسبة تأييد الرأي العام لهم خلال الأزمات، حتى عندما كانت طبيعة الأزمة تستدعي وضع كفاءتهم القيادية موضع المسألة. أعلى نسبة حصل عليها نيكسون كانت عام 1969، بعد أسبوع من الاحتجاجات الحادة ضدّ حرب فيتنام. وقد بلغت شعبية

ريغان ذروتها بعد أن أطلق عليه النار جون هينكلي. أما معدل الشعبية الأعلى لبيبل كلينتون فقد جاء مباشرة بعد أن اتهمه مجلس النواب في أعقاب انفجار فضيحة مونيكا لوينسكي.⁽³⁰⁾

الحرب داخل الوطن

يبدو وكأن أحد قوانين التاريخ ينص على أن أوقات الحرب والخوف الوطني تكون مصحوبة بتراجع الحريات المدنية واشتداد الهجمات على المعارضة. أثناء الحرب الأهلية، علّق أبراهام لينكولن حقّ الإشعار القضائي. وجلبت الحرب العالمية الثانية معها سابقة حجز الأمريكيين من أصول يابانية في معسكرات اعتقال جماعي، وأتت الحرب الباردة بالمكاثرة. على المستوى العالمي، يمكن مقارنة هذه المجموعة من الأمثلة مع استخدامات الخوف لتبرير عمليات القتل الجماعي والتعذيب والاعتقال السياسي في بلدان مثل صين ماو، روسيا ستالين أو عراق صدام حسين. بالرغم من ذلك، كانت هذه الحوادث لحظات مظلمة في تاريخ أمريكا.⁽³¹⁾

بالرغم من أن إدارة بوش بذلت جهداً مضمناً كي يصرّ بوش بأن «المسلمين ليسوا هم الأعداء»⁽³²⁾ وأنه ينظر إلى الإسلام كـ«دين سلام»،⁽³³⁾ لكنه لم يكن قادراً على منع سلسلة الهجمات الشفوية ضدّ المسلمين التي حدثت في الولايات المتحدة الأمريكية في أعقاب 9/11 - بعض الهجمات أتت من أقوى مؤيدي بوش في الأوساط المحافظة. «ليس هذا هو الوقت المناسب لتكون دقيقين تماماً حول تحديد مكان الأفراد المتورطين مباشرة وبالأذات في هذا الهجوم الإرهابي بالتحديد»، كتبت المعلقة الصحفية آن كولتر بعد يومين من الهجمات. وأضافت، «يجب أن نغزو بلدانهم، نقتل زعمائهم ونحوّلهم إلى المسيحية. لم نكن متمسكين بالشكليات حول تحديد أمكنة ومعاينة هتلر وضباطه الكبار فقط. قصفنا المدن الألمانية قصفاً شاملاً؛ قتلنا المدنيين. تلك كانت حرباً. وهذه حرب».⁽³⁴⁾

بالطبع، ما كتبه كولتر في عمودها لا يعكس الاتجاه العام للرأي العام الأمريكي. حتى مجلة ناشيونال ريفيو المحافظة، التي نشرت عمودها المشار إليه، قالت لاحقاً أن ما كتبه «خطأ» وأنهت علاقتها معها.⁽³⁵⁾ على أية حال، من المفيد جداً ملاحظة السلوك الناجم عن الخوف الذي يجعل الناس يقولون ويفعلون أموراً تُظهرهم بمظهر القوة والشجاعة فيما هي في الواقع تجعلهم أقل سلامة وأمناً لأنها تثير نيران التعصّب والعنف. خطابات من هذا النوع يمكن أن تستعمل بشكل متبادل لإشعال أسوأ المخاوف والعواطف على كلا جانبي النزاع. بعد فترة قليلة من ظهور عمود كولتر، ظهر إلى السطح مرة أخرى موقع الوب الخاص بمجاهدي لشكر طيبة - وهي واحدة من أكبر المجموعات الإسلامية المسلحة في الباكستان - التي تعمل بالتنسيق الدقيق مع القاعدة. إن زيارة موقع لشكر طيبة يمكن أن تكون تجربة منعشة. في الفترة التي نُشرت فيها مقالة كولتر، نشر الموقع صورة تُظهر يداً وحشية بشعة يغطيها الشعر وتبرز منها المخالب بدلاً من الأظافر، ويقطر منها الدم فوق في كوكب الأرض المحترق. نجمة داود زينت رسغ اليد المشعرة، وخلفها ظهر علم أمريكي. أُعيد نشر مقالة كولتر في الموقع مع استخدام الأحرف السمكية الحمراء لإبراز الجملة التي تقول «يجب أن نغزو بلدانهم، نقتل زعمائهم ونحوّلهم إلى المسيحية». ولإضفاء مزيد من القوة على هذه النقطة، أضاف مسؤول الموقع تعليقاً يقول: «لقد قلنا لكم ذلك. هل ثمة من يسمع؟ إنَّ الأنشطة جاهزة حول رقابنا. بدأ التحضير لعملية الإبادة الجماعية لكلّ المسلمين ... إنَّ أجهزة الإعلام تمهّد الأرضية الآن لخلق مزيد من العداء نحو الإسلام والمسلمين إلى الدرجة التي لن يعترض عندها أحد على الإبادة الجماعية التي توشك أن تحدث. المساجد ستُغلق، المدارس ستكون مغلقة أيضاً، سيُعتقل المسلمون، وسيُعدمون. ربما خُصّصت أيضاً جوائز خاصة لقتل المسلمين. سيُذبح الملايين والملايين كالخراف. تذكر هذه الكلمات لأنها ستتحقق. إنَّ الله هو المأوى الآمن الوحيد لك».⁽³⁶⁾

بالعودة إلى الجانب الآخر في هذا الانقسام، اضطر الرئيس بوش لإصدار بيان خلال شهر رمضان المقدّس لدى المسلمين عام 2002، يستنكر فيه التعليقات المسيئة للمسلمين التي أطلقها بعض أبرز الزعماء المسيحيين المحافظين. أعلن بات روبرتسون أنّ المسلمين «أسوأ من النازيين» وذلك لأنّ «المسلمين يريدون أن يفعلوا باليهود أسوأ مما فعلته النازية».⁽³⁷⁾ مؤتمر التحالف المسيحي في أمريكا الذي انعقد في 15 فبراير/شباط 2003، تحدّث فيه أشخاص مثل دانيال باييس، الذي يعتقد أن «ازدياد أهمية المسلمين الأمريكيين، وتكاثرهم، وحصولهم على الحقوق المدنية... سيشكّل خطراً حقيقياً على اليهود الأمريكيين».⁽³⁸⁾ متحدّث آخر في منتدى التحالف المسيحي في أمريكا، المعلق الصحفي الذائع الصيت دون فيدر، عرّف الإسلام باعتباره ديناً «كرّس نفسه، خلال تاريخه الممتد لأكثر من 1400 عاماً، للتعصّب والإرهاب والقتل الجماعي والظلم وإرغام الناس على اتباعه بحد السيف».⁽³⁹⁾ ورغم أن إدارة بوش حاولت النأي بنفسها عن هذا النوع من التصريحات والمواقف، إلا أنها لم تبذل جهداً كافياً في هذا المجال. ذلك الشهر نفسه، كان نائب الرئيس ديك تشيني المتحدّث الرئيس في الاجتماع السنوي للجنة المتابعة السياسية للمحافظين، حيث نصبت في المعرض أكشاك لبيع بعض المواد واللوازم الشخصية المناهضة للإسلام مثل ملصق كبير يقول «لا للمسلمين - لا للإرهاب».⁽⁴⁰⁾

لم يكن المسلمون هم الهدف الوحيد للجهود ذات الدوافع السياسية الهادفة إلى استغلال المخاوف العامة من الإرهاب. فبعد اعتقال المواطن الأمريكي جون واكر ليند الذي كان يقاتل إلى جانب طالبان في أفغانستان، حاولت آن كولتر ربط قراره في أن يصبح مسلماً أصولياً بترتيته في مقاطعة مارين كاونتي الليبرالية بولاية كاليفورنيا. «ينبغي علينا إعدام أمثال جون واكر لكي نهرب الليبراليين جسدياً، وذلك بجعلهم يدركون بأنهم قد يقتلون أيضاً. وما

نفعل ذلك، سيصبحون خونة بالكامل»، قالت كولتر التي كانت تتحدث إلى جمهور مكوّن من 3500 شخص ممن حضروا مؤتمر التحالف المسيحي في أمريكا الذي انعقد عام 2002. وحين ظهرت على قناة فوكس نيوز بعد أيام قليلة، تفاخرت بأنّ تعليقاتها «لقيت صدى هائلاً لدى الجمهور».⁽⁴¹⁾

مستشارو الشركات الكبرى، مجالس الخبراء، والسياسيون المحافظون وافقوا جميعاً وشاركوا في إلقاء خطب بث الذعر والخوف، كل لأغراضه الخاصة. حتى قبل 9/11، عمل العديد منهم بجهد ومثابرة على تشويه سمعة الناشطين في مجال البيئة والمجموعات النشطة الأخرى عبر الربط بينهم وبين الإرهاب. أحد المؤشرات البارزة على هذه الجهود تبيّن من خلال قيام السيناتور سكوت ماكإينيس (جمهوري-كولورادو) بتحديد جلسات استماع في الكونجرس حول «الإرهاب البيئي» بحيث تنعقد في 12 سبتمبر/أيلول 2001، بعد يوم واحد من تدمير مبنى الكونجرس نفسه تقريباً في هجوم شنه الإرهابيون الحقيقيون (هجمات 11 سبتمبر/أيلول أجبرت ماكإينيس على تأجيل خطبه بشكل مؤقت، فأعاد تحديد موعد جلساته لتنعقد في فبراير/شباط 2002).⁽⁴²⁾

في رد فوري أعقب هجمات 9/11، خمن السيناتور الجمهوري عن ولاية ألاسكا دون يونغ علناً بأنّ المتطرفين البيئيين ربما كانوا العقول المدبرة الحقيقية التي تقف وراء الهجمات.⁽⁴³⁾ في موقع ريغان لتبادل المعلومات، وهو موقع على شبكة الويب يديره مايكل ابن رونالد ريغان، خمنت المعلقة الصحفية ماري موسرت بأنّ المذنبين ربما كانوا «أمريكيين آخرين»... خاصة «ناشطو البيئة ومجموعات مناهضة العولة... الراديكاليون اليساريون».⁽⁴⁴⁾ حتى بعد أن أصبح واضحاً بأنّ أصوليين إسلاميين كانوا وراء الهجمات على مركز التجارة العالمي ووزارة الدفاع الأمريكية، استمرت هجمات المحافظين. في 7 أكتوبر/تشرين الأول 2001، نشرت الواشنطن تايمز افتتاحية تدعو إلى «شنّ

حرب ضدّ الإرهابيين البيئيين، وسمّتهم «بيئيو القاعدة» ذوي «العقيدة المتعصّبة والمبادئ الأخلاقية الملتوية».⁽⁴⁵⁾

المحافظون استخدموا الحرب على الإرهاب أحياناً لتشويه سمعة الديمقراطيين. فقد استهدف زعيم الأغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ توم داشيل بحملة شنتها مجموعة «التجديد الأمريكي»، وهي الجناح الضاغط لما يسمى «مجلس أبحاث العائلة»، وهو مجلس خبراء محافظين يقضون أغلب أوقاتهم في الترويج للصلاة في المدارس العامة ومعارضة حقوق اللوطيين. وعبر مجموعة من الإعلانات الصحفية، حاولت مجموعة «التجديد الأمريكي» تصوير داشيل وصادام حسين كـ«شريكي فراش غريبين».⁽⁴⁶⁾ «ما هو الأمر المشترك بين صدام حسين وزعيم الأغلبية الديمقراطية في مجلس الشيوخ توم داشيل؟» قال البيان الصحفي الذي سبق الحملة الإعلانية. «كلا الرجلين لا يريد لأمریکا أن تتقبّ عن النفط في المحمية الوطنية للحياة البرية في القطب الشمالي بولاية ألاسكا»، قال أحد الإعلانات.⁽⁴⁷⁾

وليام بينيت، وزير التعليم السابق في عهد ريغان، ألف كتاباً عنوانه «لماذا نحارب: الوضوح الأخلاقي والحرب على الإرهاب». ومن خلال منظّمته المسماة «شجّع أمريكا»، أطلق مجموعة «أمريكيون للنصر على الإرهاب»، وهي مجموعة تضم في صفوفها العديد من الجمهوريين النافذين، من بينهم جاك كيمب، جين كيرباتريك، وترينت لوت. «التحديات التي نواجهها اليوم هي تهديدات خارجية وداخلية في وقت واحد: خارجية لأنّ هناك مجموعات ودول تريد مهاجمة الولايات المتحدة؛ وداخلية لأنّ هناك أولئك الذين يحاولون استغلال هذه الفرصة لإعلان جدول أعمالهم الخاص "بالقاء اللوم على أمريكا أولاً". كلا التهديدين ناجم إمّا عن كراهية للمثال الأمريكي في الحرية والمساواة، أو سوء فهم لذلك المثال وممارسته»، قال بينيت في أديباته.⁽⁴⁸⁾

في مايو/أيار 2002، انفجر الخلاف حين أُجبرت إدارة بوش على الاعتراف بأنها تلقت قبل 11 سبتمبر/أيلول تحذيرات عامة من احتمال قيام بعض الإرهابيين بعمليات خطف طائرات.⁽⁴⁹⁾ المثقفون والسياسيون المحافظون قاوموا ذلك عبر التشكيك بوطنية منتقديهم. «ينبغي على الديمقراطيين أن يكونوا حذرين جداً وأن لا يحاولوا تحقيق مكاسب سياسية من خلال تقديم الاقتراحات المثيرة للفتن»، قال نائب الرئيس ديك تشيني (دون أن يحدد في الحقيقة أيّ «اقتراحات مثيرة للفتن» قدمها أيّ ديمقراطي).⁽⁵⁰⁾ على شاشة فوكس نيوز، قال المعلق المحافظ فريد بارنز إن الديمقراطيين «بدوا وكأنهم ليسوا معارضة وطنية بل معارضة خائنة، تشجّع... نظريات المؤامرة التي تقول أن الرئيس بوش ربّما علم بالهجمات الإرهابية قبل 11 سبتمبر/أيلول ولم يفعل شيئاً حيالها»، قال بارنز.⁽⁵¹⁾ مدير اتصالات البيت الأبيض دان بارتليت أبلغ الواشنطن بوست بأن الديمقراطيين يفعلون «بالضبط ما يريد لنا معارضونا وأعداؤنا أن نفعله».⁽⁵²⁾

مراسلة الواشنطن تايمز إلين سوروكين استخدمت المضايقات الإرهابية لمهاجمة جمعية التعليم الوطنية، وهي أكبر اتحاد للمعلمين في أمريكا والمعارض الدائم لسياسات الجمهوريين التربوية. جريمة جمعية التعليم الوطنية كانت إنشاء موقع «ذكرى 11 سبتمبر/أيلول» وهو موقع على شبكة الويب يهدف لتوفير المعلومات في الذكرى الأولى للهجوم. وقد احتوى موقع جمعية التعليم الوطنية على بعض المواضيع والرسوم بالأحمر والأبيض والأزرق، ووصلات إلى مواقع وكالة المخابرات المركزية ومواقع الأمن الداخلي على شبكة الويب، وتضمّن ثلاثة خطب للرئيس بوش، الذي وُصف في الموقع بأنه «أمريكي عظيم». ولكي توحى بأن جمعية التعليم الوطنية معادية لأمريكا بطريقة ما، نقبت سوروكين في الموقع فوجدت وصلة إلى مقالة تعظ بعدم التحامل على العرب والمسلمين الأمريكيين. «الكل يريد معاقبة الإرهابيين»،

جاء في المقالة، لكن «يجب أن لا نتصرّف نحن مثلهم [الإرهابيين] بمهاجمة الناس الأبرياء من حولنا، أو "نكرهم" بسبب أصولهم... يجب أن لا يُحكم على الجماعات بسبب أعمال قلة منهم. من الخطأ إدانة مجموعة بشرية كاملة بسبب انتمائها الديني، أو العرقي، أو الوطني، أو حتى القرابة فيما بينها».

في عرض مذهل وفريد من التضليل الثقافي، اجتزأت سوروكين عبارة منفردة من المقالة - «لا تلقوا المسؤولية على أي مجموعة» (إشارة إلى العرب الأمريكيين عموماً) واقتبستها خارج السياق الذي وردت فيه لتوحي بأن جمعية التعليم الوطنية تعارض تحميل الإرهابيين مسؤولية أعمالهم. وبعد أن أبرزت عنواناً يقول أن «جمعية التعليم الوطنية تقدّم دروساً في التاريخ: المعلمون لا يريدون تحميل أحد المسؤولية عمّا جرى في 9/11»، تابعت في مقالاتها الزعم بأن جمعية التعليم الوطنية لا تنفك عن «إلقاء اللوم فيما جرى على أسلوب أمريكا».⁽⁵³⁾ وهذه الطريقة أصبحت تالياً القاعدة المتبعة لوابل من الهجمات الجارحة تردد صداها في أروقة وسائل الإعلام اليمينية، بما في ذلك محطات التلفزة، الصحف، الحوارات الإذاعية ومواقع الوب، التي ضخّمت الاتّهام، وشكّت من «الإرهاب في قاعات التدريس»⁽⁵⁴⁾ لأن «المربين يلومون أمريكا ويمجدّون الإسلام».⁽⁵⁵⁾ في واشنطن بوست، كتب المعلق الصحفي جورج ويل أن موقع جمعية التعليم الوطنية «مخيف، على طريقته الخاصة، كأني تهديد أجنبي».⁽⁵⁶⁾

الاعيب وطنية

إذا كان معلّمو المدارس، حتى المعلمون، يشكّلون تهديداً مخيفاً مثل صدام أو أسامة بن لادن، كما دسّ جورج ويل، فلا عجب في أن الحكومة ستتقدّم شاهدة سوطها. منذ 9/11، تم تمرير بعض القوانين التي تضع قيوداً جديدة على حقوق المواطن، فيما هي توسّع سلطة الحكومة وتتيح لها الحق بالتجسس على المواطنين.

في أكتوبر/تشرين الأول 2001، مرّر الكونجرس القانون الطموح المسمّى قانون الوطنية في الولايات المتحدة الأمريكية، الذي يهدف إلى «توحيد وتقوية أمريكا بتوفير الأدوات الملزمة والمطلوبة لاعتراض وعرقلة الإرهاب». بالإضافة إلى تشريع مستويات لم يسبق لها مثيل من مراقبة وسجن كل من المواطنين وغير المواطنين، احتوى قانون الوطنية على النصوص التي تستهدف الناس بشكل واضح وبكل بساطة بسبب تعاطيهم بمختلف أنواع الخطاب والنشاط السياسي الذي تحميه بكل وضوح نصوص الدستور الأمريكي. وسّع القانون المذكور قدرة الشرطة على التجسّس على مراسلات الإنترنت والمحادثات الهاتفية في التحقيقات المضادة للإرهاب وفي التحقيقات الجنائية الروتينية الغير مرتبطة بالإرهاب. وقد خوّّل القانون دوائر الأمن إجراء عمليات بحث حكومية سرية، ومكّن مكتب التحقيقات الفدرالي والأجهزة الحكومية الأخرى من إجراء عمليات البحث والتحقيق بدون تفويضات قانونية ودون أن يشعر الأفراد بأنّ ممتلكاتهم قد فتّشت. لقد خلق القانون تعريفاً جديداً واسعاً لما سمي «الإرهاب الداخلي» الذي يمكن أن يندرج تحته أيّ احتجاج سياسي ويمكن اتهام القائمين به بأنهم إرهابيون إذا تورطوا في تصرفات «تتضمّن أفعالاً تشكل خطراً على الحياة الإنسانية». كما أن قانون الوطنية أعاد أيضاً دور وكالة المخابرات المركزية في التجسّس على المواطنين الأمريكيين وسمح للحكومة بحجز غير المواطنين لفترات غير محددة من الزمن بدون محاكمة.⁽⁵⁷⁾ قانون الوطنية تبعه في نوفمبر/تشرين الثاني 2001 أمر تنفيذي جديد صادر عن الرئيس بوش، يخوّل فيه لنفسه الحق بطلب إجراء محاكمة عسكرية لأيّ شخص غير مواطن يحدّده، دون منح ذلك الشخص حقّ المرافعة أو الاستفادة من حماية لائحة حقوق الإنسان.⁽⁵⁸⁾

«منح السيّد بوش الإذن بإجراء محاكمات عسكرية كخيار بيد الحكومة يشمل حالات أوسع بكثير من الحالات التي يمكن أن تكون ضرورية»، كما

جاء في افتتاحية الواشنطن بوست. أي شخص غير مواطن يعتقد الرئيس أنه قد يكون عضواً في تنظيم القاعدة، أو متورطاً في أي نوع تقريباً من أنواع الإرهاب الدولي، أو حتى قد يكون أوى مثل أولئك الناس، يمكن أن يُحجز لفترة غير محددة ويحاكم بناءً على طلب من الرئيس. ويمكن إجراء المحاكمات بالاستناد إلى أدلة سرية تماماً. واعتماداً فقط على كيفية تحديد وزارة الدفاع لقواعد المحاكمات، قد يصرّ الضباط العسكريون الذين يجرون المحاكمات على إثبات إدانة المتهم دون إتاحة أي فرصة للتشكيك بالأدلة، أو قد يستخدمون بعض المعايير الأقل قانونية. المتهمون يمكن أن يدانوا بدون صدور قرار جماعي بل ببثني الأصوات فقط. وأولئك الذين تتم إدانتهم لن تتاح لهم الفرصة لاستئناف القرار أمام أية محكمة؛ ومن تثبت إدانته يمكن أن يعدم. عملية كهذه ليست سوى شعرة واهية بمقياس قوانين العدالة. إن إمكانية سجن أو إعدام العديد من الناس الأبرياء هي إمكانية كبيرة، وفرص الاطلاع على مثل هذا التآكل في القوانين تصبح أقل بكثير.⁽⁵⁹⁾

الهجوم على الحقوق المدنية للأفراد استمرّ خلال العام 2002 من خلال طرح مشروع وزارة الدفاع الأمريكية المسمّى «الاطلاع الكلي على المعلومات» الذي ابتدعه جون بويندكستر الشهير بعلاقته بفضيحة إيرانية-كونترا.⁽⁶⁰⁾ بويندكستر وضع تصوراً لخلق قاعدة بيانات حاسوبية مركزية واسعة يمكنها سحب المعلومات حول الناس من المصادر التجارية والحكومية في آن معاً - كلّ شيء من مشتريات بطاقات الإئتمان والاشتراكات في الصحف والمجلات والنشاطات على شبكة الإنترنت وطلبات الحصول على جوازات السفر، ورخص القيادة، والمدارس، والسجلات القضائية وسجلات الطلاق، والشكاوى من الجيران الفضوليين. من الجولة الأولى والوحيدة، نجحت معارضة الكونجرس في وأد الخطة - على الورق، على الأقل. في مايو/أيار 2003، ذكرت وزارة الدفاع الأمريكية بأنها ماضية بالخطة، مع اختلاف

صغير واحد - تغيير الاسم من «الاطلاع الكلي على المعلومات» إلى «الاطلاع على المعلومات الإرهابية».⁽⁶¹⁾

كما لو أنّها صُمِّمت لإثبات أن السخرية لم تمت بعد، أطلق مجلس الإعلان سلسلة جديدة من إعلانات الخدمة الحكومية العامة في يوليو/تموز 2002، أطلق عليها اسم «حملة الحرية». «ماذا لو أنّ أمريكا لم تكن أمريكا؟ الحرية. قدروها. عزّزوها. احموها»، هكذا يقول السطر الختامي الذي يظهر في نهاية كل إعلان تلفزيوني يحضّر على الاحتفال بالحرية محاولاً تصوّر ما الذي ستكون عليه أمريكا بدونها. في أحد الإعلانات، يطرح شاب سؤالاً على أمانة مكتبة حول كتاب لا يستطيع إيجاده. تخبره أمانة المكتبة بأسى أنّ الكتاب لم يعد متوفراً، ثم يؤخذ الشاب للاستجواب على يد اثنين من عملاء الأمن الحكوميين الجلفين. والمفارقة الساخرة هنا هي أن قانون الوطنية شجّع مكتب التحقيقات الفدرالي وخوّله صلاحية الاستيلاء على قوائم مبيعات الكتب وسجلات استعارة الكتب من المكتبات العامة، ومنع بائعي الكتب وأمناء المكتبات من التحدّث مطلقاً إلى أرباب عملهم حول ذلك. من اللطيف أن نتخيّل أن شخصاً ما في مجلس الإعلان كان يحاول تسجيل نقطة في مجال معارضة هذه الانتهاكات لحريةنا المدنية. وفي الواقع لم تكن هناك نية لتسجيل مثل هذه النقطة، طبقاً لما قاله فيل دوسينبري، المشرف على الحملة الإعلانية. وفي مقابلة مع الإذاعة الوطنية العامة أجراها معه برونك غلادستن، تنهّد دوسينبري عندما ذكر غلادستن قانون الوطنية. «التزام بين إعلاننا وما وصفته لتوك كان مجرد صدفة»، قال دوسينبري. «الإعلان يمكنه فقط أن يذهب إلى هذا الحدّ... وهو لا يستطيع بالفعل، كما تعلم، عبور أيّ حاجز أو سدّ خرساني».⁽⁶²⁾

إذا أخبرناك بأن الإرهابيين سيقتلونك

كما أن الخوف يوفر الذريعة للحكومة لجمع المزيد من المعلومات حول مواطنيها، فهو يوفر أيضاً الذريعة لحجب المعلومات عن المواطنين الذين يريدون أن يعرفوا ما تفعله الحكومة.

في أكتوبر/تشرين الأول 2001، أصدر المدعي العام الأمريكي جون أشكروفت بياناً جديداً حول السياسة المعتمدة التي تغيّر طريقة تعامل الوكالات الاتحادية مع مقتضيات قانون حرية المعلومات. إعلان أشكروفت حلّ محلّ مذكّرة المدعي العام جانيت رينو الصادرة عام 1993 والتي وضعت أساس «فرضية الكشف»، طالبة من الوكالات الحكومية الامتنثال إلى مثل هذه الطلبات إلا إذا كانت هناك «أسباب معقولة بأن ذلك الكشف ستكون له أضرار منظورة».⁽⁶³⁾ مذهب أشكروفت الجديد رفض الالتزام بالمعايير التي تحدد ذلك «الأذى المنظور» وأمر الوكالات بحجب المعلومات حيثما كانت هناك «قاعدة قانونية صحيحة» لعمل ذلك. «عندما تنظرون بعناية في الطلبات المتعلقة بقانون حرية المعلومات وتقررون حجب السجلات، كلياً أو جزئياً، يمكنكم أن تطمئنوا بأن وزارة العدل ستدافع عن قراراتكم ما لم تكن تفتقر إلى القاعدة القانونية الصحيحة أو تتضمن خطراً لا مبرر له من حيث التأثير المضاد على قدرة الوكالات الأخرى على حماية سجلات مهمة أخرى»، أوضح أشكروفت.⁽⁶⁴⁾

«كما هو الحال مع العديد من القيود الجديدة التي فرضتها إدارة بوش على المعلومات العامة، فإن السياسة الجديدة تتعلّق ظاهرياً فقط بالمعركة ضدّ الإرهاب»، كما لاحظت مجلة الأخبار السرية سكيرسي نيوز، وهي نشرة اتحاد العلماء الأمريكيين. وأضافت المجلة، «بالأحرى، يظهر بوضوح الميل لاستغلال الظروف الحالية للاتجاه نحو السرية الرسمية».⁽⁶⁵⁾

الشركات سعت أيضاً من أجل قواعد جديدة تحدّد التزاماتها فيما يتعلّق بنشر المعلومات. مجلس الكيمياء الأمريكي (المعروف سابقاً بجمعية المنتجين الكيميائيين) جعل من الإرهاب العامل المركزي في حملته الشرسة التي شنها مؤخراً للحدّ من سياسة «حقّ العامة في الاطلاع» التي تمكّن المواطنين من الاطلاع على المعلومات المتعلّقة بالأخطار السامة في محيطهم. بعد فترة قصيرة من 11 سبتمبر/أيلول، نشرت مجلة ناشيونال ريفيو مقالة كتبها جوناثان أدلر من معهد المبادرة التنافسية، يدعو فيها الوكالات الاتحادية لإعادة النظر في بنود «قانون الهواء النظيف» الذي يلزم الشركات بتهيئة الخطط الرامية لمواجهة وإدارة الأخطار والتي تتضمن تفاصيل الحوادث الكيميائية المحتملة وسيناريوهات أسوأ الحالات التي قد تحدث في محيطها المجاور. بناء على ذلك القانون، يجب توفير تلك المعلومات للجمهور - وهي ممارسة وصفها أدلر بأنها «تساعد الإرهابيين».⁽⁶⁶⁾ مثل تلك القوانين «تحمّل أضراراً تفوق الفوائد في الحقيقة»، كما جاء في افتتاحية منفصلة لمعهد المبادرة التنافسية. وأضافت الافتتاحية أن «تلك المعلومات مفيدة فقط للمجموعات التي تريد إخافة الجمهور من الأخطار الكيميائية، أو لأولئك الذين قد يستعملونها لاختيار الأهداف».⁽⁶⁷⁾

«المجموعات التي تريد إخافة الجمهور» هي إشارة حازقة إلى المجموعات البيئية، التي «تخيف الجمهور» حينما تخبر الناس بأنّ مصانع المواد الكيميائية الموجودة في أحيائهم قادرة على إطلاق الأبخرة السامة. إن حجة معهد المبادرة التنافسية تستند ضمناً إلى التلميح الخفي بأنّ هذا النوع من «الإخافة» يشبه إلى حد ما الإرهاب، وهي حجة استعملتها لسنوات طويلة دوائر البحث والخبراء الذين تموّلهم الشركات. وهي أيضاً حجة متناقضة، إذا أنها هي نفسها حجة تستند إلى الخوف وتحاول «إخافة الجمهور» من حقّهم الخاص بالمعرفة. جوهرياً، تقول الحجة المذكورة بأنّ الناس يكونون

أكثر أماناً حين لا يعلمون شيئاً عن الأشياء التي قد تؤذيهم. ومثل الكثير من الحجج التي تستند إلى الخوف، فهي لا تصمد أمام الامتحان المنطقي.

إن محاولة الربط بين الحق بالمعرفة والاطلاع وبين الإرهاب كانت موجودة ومستمرة منذ العام 1998، عندما استأجر مجلس الكيمياء الأمريكي موظفين سابقين في وكالات أمنية لكتابة تقرير بعنوان «التهديد الإرهابي في أمريكا». تقرير مجلس الكيمياء الأمريكي، المتزامن مع ضغوط شديدة مارسها المجلس المذكور، نجح في إضعاف قوانين الحق بالمعرفة والاطلاع حتى قبل هجوم 11 سبتمبر/أيلول. رغبة وزارة العدل الأمريكية في دعم هذا التراجع في التزام القوانين (وليس تخفيض الأخطار الكيميائية) دفعت عدداً من قادة الحركات البيئية والمجموعات الناشطة في المجال العام مثل التجمع الوطني للبيئة ونادي سيرا إلى توجيه رسالة بتاريخ 14 أغسطس/أب 2000 إلى المدعي العام آنذاك جانيت رينو، حيث لقي ذلك التحرك مساندة من ممثلي الاتحادات العمالية مثل المجلس الدولي لاتحاد عمال الصناعات الكيميائية، اتحاد عمال الصلب والحديد في أمريكا، عمال الصناعات الورقية، الاتحاد الدولي لتحالف العاملين في الصناعات الكيميائية والطاقة. «نشعر بالفزع من دور وزارة العدل في عرقلة حق المجتمع في المعرفة والاطلاع على أخطار الصناعة الكيميائية فيما لم تتخذ الوزارة أية خطوات ملموسة لإزالة تلك الأخطار من مصدرها»، كما جاء في الرسالة.⁽⁶⁸⁾

العديد من أوجه الردة عن الحق في المعرفة والاطلاع ركزت على الإنترنت. بعد فترة قصيرة من 11 سبتمبر/أيلول، أغلقت اللجنة التنظيمية النووية موقعها على شبكة الوب بالكامل. ولاية بنسلفانيا قرّرت إزالة معلومات بيئية من موقعها. خطط إدارة المخاطر، التي توفر معلومات حول أخطار الحوادث الكيميائية وكيفية منعها، أزيلت من موقع الوب العائد للوكالة الأمريكية للحماية البيئية. وكالة المواد السامة ومكتب تسجيل الأوبئة حذفت من موقعها

على شبكة الوب التقرير المتعلق بأمن المنشآت الكيميائية، وهو التقرير الذي لاحظ بأن «الأمن في مصانع المواد الكيميائية يتراوح بين الضعيف والسيئ جداً» وأن «الأمن حول معدات نقل المواد الكيميائية يتراوح بين الضعيف وغير الموجود».⁽⁶⁹⁾

بالطبع، هناك معلومات ينبغي عدم نشرها، مثل مواقع المصحات وملاجئ النساء اللواتي تعرضن للاعتداء والضرب أو كلمة سر الدخول إلى حسابك المصرفي. من المحتمل أن نكون بحال أفضل إذا لم ننشر وصفات تصنيع مواد السارين أو الرايسين، لكن، لسوء الحظ، فإن ذلك الحصان هرب من الحظيرة. طبقاً لمجلس العلاقات الخارجية فإن «المعلومات الخاصة بصنع مثل تلك الأسلحة الكيميائية متوفرة في المنشورات العلمية منذ عقود وتنتشر الآن على شبكة الإنترنت، ويقول العديد من الخبراء إن الحصول على المواد الأولية ليس أمراً عسيراً».⁽⁷⁰⁾ وعلى نفس المنوال، سبق وأن نُشرت على نطاق واسع معلومات شاملة حول مواد الأسلحة البيولوجية، وهي مواد موجودة في معظمها في الطبيعة.⁽⁷¹⁾

حين يتعلق الأمر بالأمن، فإن السرية لها في الواقع تأثير عكسي - ومن المفارقات القدرية الساخرة جداً أن هذه النقطة تمت ملاحظتها في دراسة سرية أجرتها وكالة المخابرات المركزية عام 1977 ولم تنشر حتى أكتوبر/تشرين الأول 2002. «نحن نعلم بأن السرية بطبيعتها الخاصة قد تؤثر على شخصية ممارسيها»، كتب مؤلف الدراسة (الذي لم تكشف هويته حتى الآن). وقد لاحظ بأن تلك «الآثار النفسية غير المقصودة... يبدو أنها تُضعف الأمن بدلاً من أن تعزّزه». وكمثال على ذلك، أشار إلى الهجوم على بيرل هاربور: «ذلك الفشل الاستخباراتي الكارثي كان نتيجة لإساءة التعامل مع التقارير الاستخبارية ضمن دائرة أمنية ضيقة. نشر معطيات الاتصالات اليابانية المشفرة... كان مقيداً جداً بحيث أن القادة الميدانيون في هاواي لم يستقبلوه بانتظام».⁽⁷²⁾

إن الفشل في تبادل المعلومات الاستخباراتية الأمريكية قبل 11 سبتمبر/أيلول يقدّم مثلاً محتملاً آخر لنفس الظاهرة. بعد الهجوم، عقد أعضاء لجان الاستخبارات في مجلسي النواب والشيوخ جلسات مشتركة للتحقيق في أسباب عدم تمكن مكتب التحقيقات الفدرالي والمحققين الآخرين من اكتشاف المؤامرة الإرهابية قبل وقوعها. وقد كشف التحقيق بأن وكالات الاستخبارات تلقت عدداً من التحذيرات حول الهجمات الإرهابية المحتملة أكثر بكثير مما تم كشفه سابقاً للجمهور. بالطبع، لا يمكننا سوى أن نخمن بأن كشفاً أكبر للمعلومات ربما ساعد على منع الهجوم. على أية حال، أشارت رئيسة اللجنة إلينور هيل بأنه «قبل الحادي عشر من سبتمبر/أيلول، كانت أوساط تطبيق القانون والمخابرات الأمريكية تخوض حرباً واسعة ضدّ الإرهاب دون الاستفادة مما يسمّيه البعض أكثر أسلحتهم فعالية في تلك الجهود: الجمهور الأمريكي اليقظ والملتزم. لا يحتاج المرء إلى البحث عن براهين أخرى لإثبات النقطة الأخيرة أمام الأعمال البطولية التي قام بها المسافرون على متن الرحلة 93 أو التصرف السريع للمضيقة الذي ميّزت حامل قنبلة الحذاء ريتشارد رايد».⁽⁷³⁾

بكلمات أخرى، الديمقراطية وحرية تبادل للمعلومات قد يوفران الحماية الأفضل ضدّ التهديدات الإرهابية المستقبلية. وعلى سبيل المفارقة، هذه هي بالضبط الممارسات التي قد نعطلّها إذا أردنا أن نسمح للخوف بأن يحكم حياتنا.

6. حرب الأثير

في الواقع، كلّ وسيلة إعلامية تفرز الأخبار طبقاً لمجموعة من الأولويات والمواقف التي لا تُعلن عنها لجمهورها في أغلب الأحيان. شبكة فوكس نيوز، على سبيل المثال، تدعي عرض التقارير «العادلة والمتوازنة» التي تعتمد مبدأ «نحن نعرض، وأنت تقرّر». ولكي ترى ما يعنيه ذلك في التطبيق العملي، اقرأ المقتطف التالي من مقابلة «عادلة ومتوازنة» أجراها بيل أوراييلي، الذي يسمّى برنامجه «عامل أوراييلي»، و«منطقة عدم الدوران». في 24 فبراير/شباط 2003، قابل أوراييلي جبرمي غليك، الذي قتل والده في هجوم 11 سبتمبر/أيلول على مركز التجارة العالمي.⁽¹⁾ بخلاف أوراييلي، عارض غليك الحرب على العراق وانضمّ إلى آلاف الأمريكيين الآخرين في التوقيع على وثيقة عامة تعلن ذلك الموقف. وللإيجاز، حرّنا الحوار المتبادل بينهما، لكن هذا المقتطف سيعطيك فحوى ذلك الحوار:

أوراييلي: أنت تلتزم موقعاً يقع في أقصى اليسار وهو موقع هامشي في هذا المجتمع، ولديك الحق في ذلك.

غليك: إنه حقّ هامشي.

أوراييلي: لديك الحق في ذلك، حسناً، لكنك، كما ترى، حتى أنني متأكّد من أنك مخلص في آرائك، لكن ما يزعجني هو أنني لا أعتقد بأن والدك سيوافق على هذا.

غليك: حسناً، في الحقيقة، كان أبي يعتقد بأن رئاسة بوش غير شرعية.

أوراييلي: ربّما فعل ذلك، لكن،

غليك: أنا أيضاً أعتقد بأن بوش-

أوراييلي (مقاطعاً): أنا لا أعتقد بأنه سيصف هذا البلد بأنه أمة إرهابية كما تفعل.

غليك: حسناً، لم أقل ذلك بالضرورة على هذا النحو.

أوراييلي: نعم، أنت... حسناً. أنا لا أريد-

غليك: ربّما-

أوراييلي (يقاطعه ثانية): أنا لا أريد مناقشة السياسة العالمية معك.

غليك: حسناً، لم لا؟ الأمر كلّه يدور حول السياسة العالمية.

أوراييلي: لأنه، أولاً، أنا لا أهتم حقاً بما تعتقد...

غليك: لكنك تهتمّ لأنك-

أوراييلي (يقاطعه مرة أخرى): لا، لا. أنظر-

غليك: سبب اهتمامك هو أنك أثرت موضوع 9/11

أوراييلي (يقاطعه ثانية): فيما يلي سبب اهتمامي.

غليك: - للتبرير-

أوراييلي (يقاطع مجدداً): فيما يلي سبب اهتمامي-

غليك: دعني أنهي كلامي. أثرت موضوع 9/11 لتبرير كلّ شيء من النهب

المحلي إلى الضغط والعدوان الإمبريالي على المستوى العالمي...

أوراييلي: يجب أن تغلق فمك حين تجلس هنا لاستغلال أولئك الناس... لديك

وجهة نظر مشوّهة حول العالم ووجهة نظر مشوّهة حول هذه البلاد.

غليك: حسناً، وضّح ذلك. دعني أعطيك مثلاً موازياً-

أوراييلي (يقاطعه ثانية): لا، لن أناقش هذا معك، حسناً.

غليك: حسناً، دعني أعطيك مثلاً حول تجربة موازية. في 14 سبتمبر/أيلول-

أوراييلي: لا، لا. فيما يلي - فيما يلي ال...-

غليك: في 14 أيلول (سبتمبر)-

أوراييلي يقاطعه بشدة وتكرار؛ وأياً يكن ما حدث في 14 سبتمبر/أيلول، فلم

تتح لغليك الفرصة أبداً ليبين ما حصل.

أوراييلي: يا رجل، أتمنى ألا تشاهد أمك هذا.

غليك: حسناً، أتمنى أن تفعل.

أوراييلي: أتمنى ألا تشاهد أمك هذا لأنك- هكذا. لن أقول أكثر.

غليك: حسناً.

أوراييلي: احتراماً لأبيك-

غليك: في 14 سبتمبر/أيلول، هل تريد أن تعرف ما أود قوله؟

أوراييلي: اخرس! اخرس!

غليك: أوه، رجاء لا تقل لي اخرس.

أوراييلي: من باب الاحترام- من باب الاحترام- احتراماً لأبيك، الذي كان

عاملاً في سلطة الميناء، الأمريكي اللطيف، الذي قتل بلا مبرر على أيدي البرابرة-

غليك: على أيدي الأصوليين المتطرفين الذين درّبتهم هذه الحكومة...

أوراييلي: وبعيداً عن الاحترام له-

غليك: - ليس الشعب الأمريكي.

أوراييلي: - لا أنوي-

غليك: - بل الحكام، الأقلية الصغيرة.

أوراييلي (إلى منتجه): اقطع عنه الصوت. لن أفضحك أكثر، بعيداً عن

الاحترام لأبيك. سنعود بعد لحظات مع مزيد من «العامل».⁽²⁾

النقاش المعقول بين أناس لديهم وجهات نظر متعارضة يمكن أن يؤمن

طريقة مفيدة لتوضيح وتفهم القضايا المختلف عليها. المشاهدون الذين تابعوا

هذا الحوار ضمن برنامج «عامل أوراييلي»، على أية حال، لم يخرجوا بفهم

أفضل لوجهة نظر كل من غليك وأوراييلي الخاصة حول قضايا العالم ولم تزد

معرفتهم بذلك عمّا كانت عليه قبل مشاهدة البرنامج. وكما ذكر أوراييلي نفسه، فهو لا يهتم حقاً بما يعتقد عليه، وهو يفترض أيضاً بأنّ مشاهديه لا يهتمون بذلك. فلم جاء به كضيف أصلاً؟. ولأنّ ما يقدمه البرنامج بالفعل ليس نقاشاً بل ترفيهاً- يشبه الاستثارة ومداعبة المشاعر السادية الناجمة عن مراقبة شخص ما وهو يتعرض للضرب المبرح، كما في مصارعة الثيران أو حفلات الاتحاد العالمي للمصارعة «سماك داون». مشاهدو أوراييلي يدركون هذه النقطة ضمناً. وفي اليوم الذي بُثت فيه تلك الحلقة، تلقى موقع FreeRepublic.com، وهو موقع للمحافظين على شبكة الوب، تلقى رسائل من أنصار أوراييلي تضمنت ثناء على الحوار وورد في بعضها التعليقات التالية:

- «أراد أوراييلي أن يركل مؤخرة ذلك الحمار الصغير!».
- «أنا كنت أنتظر من بيل أن يوسعه ضرباً. أية قطعة من الفضلات عليك هذا».
- «كان مسلياً جداً».
- «كان ينبغي على بيل صفع ذلك الأحمق على قفاه».
- «عائلته لن تعرف أبداً كم هي محظوظة لأن أوراييلي كان يطلب منه أن يخرس فقط. لو كنت أنا أو زوجي، أعتقد أمريكا كانت ستشهد جريمة قتل على الهواء وسيدينا عندئذ بضعة محلفين».⁽³⁾

من بين التعليقات البالغ عددها 219 تعليقاً التي أرسلت إلى هذا النقاش المتشابك (مع عدم احتساب التعليقات التي حذفت لأن رئيس الجلسة اعتبرتها مفرطة)، 31 تعليقاً فقط أشارت إلى أن عليك تعرض لنوع من العنف المادي الملموس أو الإذلال النفسي. بالنسبة لأوراييلي وأنصاره، التلفزيون هو شكل من أشكال المعركة - وبشكل محدّد، «حرب الأثير». وهذه حقيقة ضمنية تظهر في وصف أوراييلي لبرنامجها بأنه «منطقة عدم الدوران» - وهي عبارة توازي وتستدعي في الذهن «منطقة حظر الطيران» التي فرضتها الطائرات

الأمريكية على المجال الجوي العراقي. وكما قال أوراييلي نفسه، «منطقة حظر الطيران» و«منطقة عدم الدوران» هما الشيء نفسه. انتهك القواعد وسيتم إسقاطك.⁽⁴⁾

شرطة الوطنية

أنصار بيل أوراييلي في موقع FreeRepublic.com يمثلون «الحرب البرية» التي ترافق حربه الجوية ضدّ «انحياز الإعلام الليبرالي». الحرب البرية - التي تقوم على أساس التنظيم والضغط - توجّهها وتقودها منظمات حسنة التمويل مثل مركز البحوث الإعلامية، وهو هيئة محافظة «لمراقبة وسائل الإعلام». مركز البحوث الإعلامية له ميزانية سنوية مقدارها 7.8 مليون دولار تقريباً - أكثر بعشر مرات تقريباً من ميزانية هيئة «الإنصاف والدقة في التقارير»، وهي اللجنة اليسارية الأبرز في مجال مراقبة وسائل الإعلام.⁽⁵⁾ يقوم مركز البحوث الإعلامية يومياً بإرسال رسائل تنبيه بالبريد الإلكتروني إلى قائمة مشتركيه التي تضم أكثر من 11000 مشترك، يبيّن لهم فيها بالتفصيل التحيز المزعوم لشخصيات إعلامية مثل دان راثر وبيتر جينينغز، ويشجّع أتباعه على إمرار الشكاوى على شبكات التلفزة التي تخفق في الالتزام بالخطّ الصحيح فيما يتعلّق بالعراق وقضايا أخرى. في أعقاب 9/11، اكتسب هذا الضغط قوة جديدة. وقد ذكرت النيويورك تايمز في سبتمبر/أيلول 2001 بأنّ الشبكات التلفزيونية «تعرّض للانتقاد على نحو متزايد من المحافظين الذين يقولون بأنها تبدي انعداماً للوطنية أو سلبية زائدة نحو الحكومة». وكما صرح رئيس شبكة إم إس إن بي سي إريك سورنسون لصحيفة التايمز، «آية عثرة قد توقعك في مشكلة مع هؤلاء، عندئذ تبدأ شرطة الوطنية بالبحث عنك».⁽⁶⁾

الهجمات الأخرى على أجهزة الإعلام أتت مباشرة من إدارة بوش. بعد أن أبدى بيل ماهر، وهو شخصية تلفزيونية معروفة، بعض الملاحظات في أعقاب

أحداث 9/11، وهي الملاحظات التي اعتبرت نقداً لحملات القصف الأمريكية السابقة، قال السكرتير الصحفي للبيت الأبيض أري فليتشر للصحفيين بأن على الأمريكيين أن «ينتبهوا لما يقولون، وما يفعلون. هذا ليس وقت ملاحظات كهذه؛ ولن يكون أبداً».⁽⁷⁾ ورداً على الشكاوى حول القيود على الحريات المدنية، شهد المدعي العام جون أشكروفت أمام الكونجرس، وعرف ما سماه «منتقدينا» بأنهم أولئك «الذين يخيفون محبي السلام بخيالات الحرية المفقودة؛ ورسالتي لهم هي هذه: ألاعيكم تساعد الإرهابيين فقط - ليضعفوا بها وحدتنا الوطنية ويستغلوها للتقليل من عزيمتنا. هؤلاء يوفرون الذخيرة لأعداء أمريكا، ويحجمون عن ذلك بالنسبة لأصدقاء أمريكا. يشجعون الناس من ذوي النية الحسنة على البقاء صامتين تجاه الشر».⁽⁸⁾

دنيس بلوشنسكي، وهو من كبار محلّي الاستخبارات في وزارة الخارجية الأمريكية، ذهب أبعد من ذلك في نقده لأجهزة الإعلام. «أنا أتهم أجهزة الإعلام في الولايات المتحدة بالخيانة»، قال بلوشنسكي في مقالة للرأي في الواشنطن بوست اقترح فيها إعطاء أجهزة الإعلام «جائزة أسامة بن لادن» ونصح، «الرئيس والكونجرس أن يسنّ القوانين المناسبة التي تقيّد أجهزة الإعلام وتمنعها مؤقتاً من نشر أيّ معلومات أمنية يمكن أن تُستغل من قبل أعدائنا».⁽⁹⁾

مالك شبكة فوكس روبرت مردوخ استغل أوضاع الحرب سياسياً بشكل مبدع، وهي الأوضاع التي كانت فيها حتى الخطابات القومية المتطرّفة مقبولة وشعبية، فيما تم الضغط على الليبراليين ومنتقدي البيت الأبيض ليتحركوا بهدوء وألا يحملوا في أيديهم أي عصا على الإطلاق. بالإضافة إلى فوكس، يمتلك مردوخ شبكة عالمية مكوّنة من 140 صحيفة من صحف الإثارة الشعبية يوزّع منها 40 مليون نسخة أسبوعياً، ويسيطر على أسواق الصحافة في بريطانيا وأستراليا ونيوزيلندا - وجميعها نشرت افتتاحيات تساند الحرب

على العراق.⁽¹⁰⁾ في الولايات المتحدة، أطلقت صحيفة نيويورك بوست التي يملكها مردوخ اسم «مخور ابن عرس» على فرنسا وألمانيا لرفضهما دعم خطط الحرب التي يعدّها بوش، ونشرت على صفحة كاملة صورة مركّبة تُظهر سفيرى فرنسا وألمانيا في الأمم المتحدة وقد تحوّل رأسيهما إلى رأس ابن عرس.⁽¹¹⁾ في فرنسا، نشرت صحيفته مقالة تسمّي الرئيس الفرنسي جاك شيراك «دودة»، وأرفقتها برسم كبير لدودة رأسها هو رأس الرئيس شيراك.⁽¹²⁾

هذا النوع من الصور له سوابق تاريخية. المؤلف سام كين، الذي أجرى اختبارات على رمزية الحرب في كتابه الصادر عام 1986 بعنوان «وجوه العدو»، لاحظ بأنّه في أوقات الحرب، تُنتج البلدان المزيد من أفلام الكرتون والملصقات وغيرها من الفنون الأخرى التي تحاول من خلالها إضفاء الصبغة الحيوانية على أعدائها عن طريق «المبالغة وتضخيم وتشويه الملامح حتى يتحول الإنسان إلى هيئة الوحش أو الآفة أو الحشرة... وحينما تكتمل الصورة الرمزية لعدوك فستصبح قادراً على القتل دون الشعور بالذنب، وأن تذبح دون شعور بالخلج». ⁽¹³⁾ استخدام هذه الصور المتطرّفة ضدّ الحلفاء السابقين بكل بساطة لرفضهم الموافقة على مخططات الحرب الأمريكية يمثل، ضمن السياق الرمزي، تفسير وسائل إعلام مردوخ لمذهب بوش «إذا لم تكن معنا، فأنت مع الإرهابيين».

في هذه الأثناء، ألغيت في محطة إم إس إن بي سي تجربة استغرقت ستة شهر لإعداد وبث برنامج ليبرالي يقدمه فل دوناهيو، وذلك قبل أن تبدأ الحرب مباشرة، حيث استبدلت المحطة برنامج دوناهيو ببرنامج آخر بعنوان «العدوّ التنازلي: العراق». ورغم أن المحطة احتجّت بتدني معدل التقييم الإيجابي كسبب لإلغاء برنامج دوناهيو، إلا أن صحيفة النيويورك تايمز ذكرت بأنّ دوناهيو «كان في الحقيقة يجذب المشاهدين أكثر من أيّ برنامج آخر على

محطة إم إس إن بي سي، حتى بعد توقيع القناة على عقد برنامج «هاردبول مع كريس ماثيوز».⁽¹⁴⁾ ويمكن استكشاف طريقة التفكير المعتمدة في المحطة من خلال تقرير داخلي عائد لمحطة إن بي سي سرّب إلى موقع AllYourTV.com، وهو موقع على شبكة الوب يغطّي صناعة التلفزيون. أوصى تقرير إن بي سي بإهمال دونا هيو لأنه قدّم «وجهاً عاماً سيئاً لمحطة إن بي سي في وقت الحرب... يبدو مبتهجاً أثناء تقديم الضيوف من معارضي الحرب ومعارض بوش والمشكّكين في دوافع الإدارة». ويتابع التقرير ليتضمن تلخيصاً لسيناريو مرعب محتمل مستنتجاً أن البرنامج سيتحوّل إلى «مأوى لجدول الأعمال الليبرالي المناهض للحرب في الوقت الذي يلوح فيه منافسوننا بالعلم في كلّ فرصة».⁽¹⁵⁾ في نفس الفترة التي ألغي فيها برنامج دونا هيو، أضافت إم إس إن بي سي مايكل سافاج إلى طاقمها، وهو الذي يشير باستمرار إلى البلدان غير البيضاء بعبارة «أمم فضلات العالم» ويردد التهم بأن الولايات المتحدة «يسيطر عليها أصحاب النزوات، الكسحاء، المنحرفين، والمختلين عقلياً». في أحد البرامج المذاعة، برّر سافاج التمييز العرقي كأداة للأمن القومي: «نحتاج الآن إلى بث الأفكار العنصرية الشائعة حول عدونا لكي نشجّع جنودنا على قتل العدو»، هكذا شرح سافاج الأمر في استخلاصه المبسّط جداً لأطروحة الكاتب سام كين.⁽¹⁶⁾

شرطة الوطنية قامت بدورٍ أيضاً على البث الإذاعي الأمريكي. مجموعة القناة المفتوحة للاتصالات تمتلك أكثر من 1200 محطة إذاعية - نصف مجموع المحطات الإذاعية الأمريكية تقريباً، وأكثر بخمس مرات من أقرب منافستها، شبكة سي بي إس وشبكة أي بي سي. مدرائها التنفيذيين لم يتورعوا عن استخدام قوتهم لفرض الاتجاه الأيديولوجي الذي يؤمنون به. في الأسابيع التي سبقت الحرب على العراق، تبرعت المحطات التابعة لمجموعة القناة المفتوحة برعاية مالية وترويج دعائي لتحركات مؤيدي الحرب الذين

أطلقوا على حركتهم اسم «التجمّع من أجل أمريكا».⁽¹⁷⁾ كما أن عدداً من محطات مجموعة القناة المفتوحة سحبت تسجيلات فرقة ديكسي تشكس من قائمة الأغاني التي تبثها بعد أن صرحت المغنية الرئيسية في الفرقة، ناتالي مينيس، أمام جمهورها في لندن بأنها وفرقتها يشعرون بالخجل لانتمائهم إلى نفس الولاية التي ينتمي إليها الرئيس بوش. قبل ذلك ببضعة أيام فقط، كانت شركة القناة مفتوحة للترفيه، وهي الذراع التسويقي للحفلات الغنائية التي ترعاها الشركة الأم، كانت قد بدأت بالترويج المكثف لكونها الراعي المشارك لـ 26 حفلة موسيقية من حفلات فرقة ديكسي تشكس التي تنوي إقامتها ضمن جولاتها التي أطلقت عليها اسم «جولة قمة العالم».⁽¹⁸⁾ في مدينة كولورادو سبرينغز بولاية كولورادو، تم إيقاف اثنين من مقدمي الأغاني عن العمل في المحطة الفرعية «كي كي سي إس» التابعة لمجموعة القناة المفتوحة لتحديهما منع بث أغاني ديكسي تشكس. مدير المحطة جيرى غرانت اعترف بأن «كي كي سي إس» تلقت 200 مكالمة من المستمعين، 75 بالمائة منها كانت من أشخاص اتصلوا مطالبين برفع الحظر. على الرغم من ذلك، قال أنه منح عاملي البث خياراً بديلاً:

أوقفا بث الأغاني الآن وسيتم إيقافكما عن العمل مؤقتاً، أو يمكننا أن تستمرّا ببثها وحين تخرجان من الاستوديو ستكونان عاطلين عن العمل.⁽¹⁹⁾ كامولوس ميديا، وهي تكتل إذاعي آخر يمتلك 262 محطة، منع أيضاً بث أغاني ديكسي تشكس في جميع محطاته المنتشرة في كافة أرجاء البلاد.⁽²⁰⁾ الشخصية الإذاعية المعروفة على نطاق واسع في البلاد دون إيموس طلب من المنتج الذي يعمل لديه بأن يمنع ظهور الضيوف «الذين يأتون لينتوا حول كيفية إخفاق الرئيس في استنفاد كل الطرق الدبلوماسية. احذفهم فحسب، لأنني غير مهتم بإجراء تلك المناقشة».⁽²¹⁾

في الإعلام المطبوع يمكن العثور على مقدار أوفر من التنوع، لكن الأصوات المؤيدة للحرب لا تزال هي المسيطرة. أستاذ الصحافة تود غيتلين وضع جدولاً بالافتتاحيات التي ظهرت في الواشنطن بوست خلال الأسابيع الإثني عشر التي سبقت بداية الحرب بفترة قصيرة ووجد أن «عدد الافتتاحيات المتشددة بلغ 39 افتتاحية، في حين أن عدد الافتتاحيات التي تدعو إلى التعلّل والسلم هو 12 افتتاحية - أي بنسبة أكثر من 3 مقابل 1»⁽²²⁾.

بالإضافة إلى تقييد وحجب عدد الأصوات المناهضة للحرب على شاشات التلفزة وعبر المحطات الإذاعية، عملت وسائل الإعلام في أغلب الأحيان على التقديم الانتقائي للمتحدثين. الأصوات الرئيسية المعارضة للحرب التي رآها مشاهدو التلفزيون هي أصوات حفنة من المشاهير مثل شون بين، مارتن شين، جيني غاروفالو وسوزان ساراندوناكثورز الذين يمكن تجاهلهم بسهولة باعتبارهم من النخبة البالية في هوليوود. الصحف والشبكات التلفزيونية كانت تستطيع بكل سهولة إجراء المقابلات مع الأكاديميين وغيرهم من المعارضين التقليديين للحرب، لكنها نادراً ما فعلت. في خطاب ألقاه السيناتور الأمريكي إدوارد كينيدي في خريف 2002، «عرض وبيّن القضية الأكثر شمولية وإثارة للجدل حتى الآن والمطروحة للنقاش العام وهي سياسة إدارة بوش وتوقيت الحرب على العراق»، كما لاحظ مايكل غيتلر، كاتب التحقيقات الصحفية في الواشنطن بوست. «في اليوم التالي، خصصت الواشنطن بوست جملة واحدة للإشارة إلى الخطاب. ومما يثير السخرية أن كينيدي استند بكثرة في ملاحظاته التي أبدّاها في الشهادة العامة التي قدمها ضمن جلسات اللجنة العسكرية التابعة لمجلس الشيوخ والتي انعقدت قبل أسبوع من ذلك، استند إلى أقوال عدد من الجنرالات البارزين المتقاعدين ممن يحملون رتباً بأربعة نجوم وخدموا في الجيش وفي البحرية وحذّروا من مهاجمة العراق في هذا الوقت - وهذه الجلسات لم تغطّها الواشنطن بوست أيضاً. يوم السبت

الماضي، بلغ عدد الحشد المناهض للحرب حوالي 200 ألف شخص في لندن واحتشد عدة آلاف في روما ولم يُنشر شيء عن ذلك في عدد الواشنطن بوست الصادر يوم الأحد... ومهما فكّر المرء بشأن الحكمة من وراء شنّ حرب جديدة، إلا أنه حين تبدأ تلك الحرب يكون الوقت قد فات لعرض الحجج التي كان ينبغي عرضها قبل ذلك»، أضاف غيتلر.⁽²³⁾

مجموعات السلام حاولت شراء وقت البث الإعلاني لإذاعة الإعلانات الداعية للسلام لكن وقت البث الذي طلبته رُفض من كلّ الشبكات الرئيسية وحتى من قبل محطة إم تي في الغنائية (بعض مجموعات السلام استطاعت مراوغة المنع جزئياً بشراء بعض أوقات البث المحلي للإعلانات في المدن الرئيسية).⁽²⁴⁾ رئيس شبكة سي بي إس مارتن فرانكس شرح سبب الرفض بالقول، «نعتقد بأن الاطلاع على هذا النقاش يحصل من خلال برامجنا الإخبارية». الناطق باسم محطة إم تي في غراهام جيمس قال، «نحن لا نقبل الإعلانات التي تدافع عن وجهة نظر معينة لأن ذلك يفتح الباب فعلاً على قبول كلّ وجهة نظر حول كلّ موضوع».⁽²⁵⁾ وبينما تمكن المنظرون القادمون من مراكز البحث المؤيدة للحرب من الوصول بسهولة عموماً إلى برامج الحوارات، تطلب الأمر تنظيم احتجاجات جماعية حاشدة من ملايين الناس في مختلف أنحاء العالم في 15 فبراير/شباط 2003 كي يخصص المسيطرون على البث الإذاعي والتلفزيوني أكثر من مجرد اللفتة السريعة إلى وجود قاعدة عريضة ومتأصلة لحركة السلام. رغم ذلك، لم تشمل التغطية لتلك الحركة سوى بعض هتافات الحشود وصور الذين يلوحون بالرايات، مع محاولة متواضعة لتقديم الأسباب والحجج الفعلية المقدّمة من قبل معارضي الحرب.

حرب الخليج الثانية: التكملة

التغطية الإعلامية لحرب عام 2003 على العراق كانت مجرد تكملة، من حيث النمط والمحتوى، لـ«ظاهرة سي إن إن» التي برزت عام 1991 أثناء الحرب

الأمريكية الأولى في الخليج. «لأول مرة في التاريخ، والفضل في ذلك يعود إلى جبروت صدام حسين، تحولت شبكة تلفزيونية إلى مشارك نشط في تطورات أزمة دولية رئيسية»، كما لاحظ المدير التنفيذي الصحفي السابق كلود مويسي في دراسة له نشرت عام 1995 بعنوان «تدفق الأخبار الأجنبية في عصر المعلومات». محطة سي إن إن «أصبحت قناة الاتصال بين الأطراف المتحاربة والمؤرخ الفوري للنزاع. تأثير المحطة على المجتمع الدولي كان عظيماً بحيث أن تعبير «تغطية حية عالمية» أصبح مقبولاً على نطاق واسع كوصف لما حدث وكعلامة حصرية للسي إن إن».⁽²⁶⁾

هذه الاتجاهات استمرت وتكثفت مع التغطية الإعلامية لحرب 2003 على العراق. «بهاشم واسع جداً، تفوق التلفزيون في العراق حتى في المناطق التي كان متوقعاً أن يكون السبق فيها للصحف»، كما نُقل عن جون لافين، مدير «معهد القراء»، وهو منظمة بحث تموّلها الصحف لمساعدتها في جذب المشتركين.⁽²⁷⁾ معهد القراء المذكور أجرى دراسة حول نمط الاستهلاك الإعلامي أثناء الحرب ووجد أن الصحف قد تضررت من التلفزيون، حيث اعتبره المشاهدون أكثر تكاملاً ودقة وجاذبية، ويعرض آراء أفضل الخبراء ويقدم أوسع تشكيلة من وجهات النظر.⁽²⁸⁾

علاوة على ذلك، ضمن عالم التلفزيون تسيطر شبكات الكابل على بث نشرات الأخبار الليلية التقليدية من خلال شبكات أي بي سي، سي بي إس وإن بي سي. وقد بيّن استطلاع للآراء أجرته صحيفة لوس أنجلوس تايمز أن 70 بالمائة تقريباً من الأمريكيين يحصلون على معظم معلوماتهم حول الحرب من جميع قنوات الأخبار التي تبث عبر الكابل مثل شبكة فوكس نيوز، سي إن إن وإم إس إن بي سي. 18 بالمائة فقط منهم يعتمدون على نشرات الأخبار الليلية التقليدية.⁽²⁹⁾ حتى إم إس إن بي سي، التي تحتل المرتبة الثالثة من حيث حصتها في السوق وتأتي بعد فوكس والسي إن إن، حققت زيادة قدرها

350 بالمائة في نسبة المشاهدين أثناء الحرب.⁽³⁰⁾ لكنّ فوكس، ذات الطابع والميول الحربية والحماس الوطني، هي التي ربحت حرب المراتب.⁽³¹⁾ وكما رسم نجاح السي إن إن في الحرب الأولى الخطوط العريضة للسياسات التحريرية في عالم البث التلفزيوني، تسبّب نجاح فوكس بظهور تأثير أشبه بالوجة العنيفة، بحيث أن الشبكات الأخرى أعادت تفصيل تغطيتها الإخبارية لتنافس ما سمّاه المطلّعون على شؤون هذه الصناعة «تأثير فوكس».⁽³²⁾

على أية حال، بروز ظاهرة الأخبار التلفزيونية التي تُبث على مدار الساعة عبر الكابل عكست هبوطاً في كمية ونوعية الأخبار الأجنبية التي تقدّم للمشاهدين الأمريكيين. وكما أشار موسى، بحلول العام 1995 أصبح لدى مراسلي السي إن إن شبكة عالمية لجمع الأخبار تغطي مختلف أرجاء العالم من خلال 20 مكتباً و35 مراسلاً فقط خارج الولايات المتحدة - «وهذا العدد لا يوازي سوى نصف ما لدى هيئة الإذاعة البريطانية منذ وقت طويل لتتمكن من تغطية الأحداث العالمية عبر الإذاعة والتلفزيون» و«لا يشكل سوى جزء بسيط مما تملكه أكبر ثلاث وكالات دولية للأنباء بشكل دائم وثابت... الأسوشيتد برس، وهي وكالة أنباء في الولايات المتحدة... يمكنها بث وتوزيع بحدود مائة خبر وتحقيق من البلدان الأجنبية في اليوم. بالمقارنة مع ذلك، لا تستطيع السي إن إن (بما فيها سي إن إن الدولية) أن تجلب أكثر من عشرين خبراً أو تحقيقاً إخبارياً أجنبياً إلى مشاهديها في اليوم، إذا لم يكن هناك سبب آخر سوى الكلفة المرتفعة جداً لإنتاج وإرسال الأخبار المصورة».⁽³³⁾

باستثناء الحروب والكوارث الوطنية، كما لاحظ الناقد الإعلامي في واشنطن بوست هاوارد كورتز، فإن «العديد من مدراء الأخبار التنفيذيين، خصوصاً في التلفزيون، قد استنتجوا قبل أكثر من عقد بأنّ الأمريكيين قليلاً ما يهتمون بالأخبار التي تحدث خارج حدود بلادهم». الوقت المكرّس لتغطية الأخبار الأجنبية على أي بي سي، سي بي إس وإن بي سي تراجع من 4032

دقيقة في عام 1989 إلى 1382 دقيقة في العام 2000، ثم عاد قليلاً إلى معدّله الطبيعي في أعقاب هجمات 9/11 ليصبح 2103 دقائق في العام 2002. وحين تنتهي الحروب، تخرج البلدان الأجنبية بسرعة من دائرة الضوء. أفغانستان حظيت بتغطية إخبارية مقدارها 306 دقائق حين اهتمت الحرب في نوفمبر/تشرين الثاني 2001، لكن التغطية تراجعت خلال ثلاثة أشهر إلى 28 دقيقة، وبحلول شهر مارس/آذار 2003 أصبحت دقيقة واحدة فقط. بعد انهيار نظام صدام، هبط الاهتمام بالعراق هبوطاً سريعاً، حيث تحولت شبكات التلفزة والكابل نحو تغطية مقتل الكاليفورنية الحامل لاسي بيترسون وقصة الكلب المعجزة الذي نجا بعد أن صدمته سيارة مسرعة.⁽³⁴⁾

التغطية الإخبارية الحية على مدار الساعة تأتي غالباً على حساب التفاصيل والعمق والبحث الدقيق. قد تكون التغطية جذابة من الناحية البصرية ومؤثرة عاطفياً، لكن المشاهدين يتلقون مقداراً قليلاً جداً من تحليل الخلفيات أو السياقات التاريخية. وفيما كانت «عملية عاصفة الصحراء» جارية عام 1991، أجرى فريق البحث في جامعة ماسوشوستس مسحاً للرأي العام وربطه بمعرفة الحقائق الأساسية حول السياسة الأمريكية في المنطقة. النتائج كانت مباغته: «كلما زادت مشاهدة الناس للتلفزيون، كلما قلّت معرفتهم... وعلى الرغم من التغطية التي استمرت لأشهر عديدة، فإن أكثر الناس لا يعرفون الحقائق الأساسية حول الحالة السياسية في الشرق الأوسط، أو حول التاريخ الأخير للسياسة الأمريكية نحو العراق». علاوة على ذلك، «كشفت دراستنا وجود ارتباط قوي بين المعرفة ومعارضة الحرب. بعبارة أخرى، الذين يعرفون أكثر هم الأقل احتمالاً لتأييد سياسة الحرب». وهكذا، من غير المفاجئ أن «الذين يشاهدون التلفزيون كثيراً كانوا الأكثر ميلاً لدعم سياسة استخدام القوة ضدّ العراق».⁽³⁵⁾

نفس الشيء يمكن قوله دون تردد حول حرب الخليج الثانية، حيث تحول المشاهدون عام 2003 لمشاهدة نيل كافوتو على شاشة فوكس وهو يوبّخ أستاذاً جامعياً لأنه كتب رسالة ضد الحرب اعتبر فيها أن الحرب «بغیضة، وأشبه بقداس وثني»، وهي «تمتص الروح، وأنها تنازل أبله» وأنها من صنع «أفزام الثقافة في اتحاد آيفي».⁽³⁶⁾ ربما أحسّ المشاهدون بأنّ التغطية التلفزيونية كانت أفضل من التغطية الصحفية، لكن كان هناك في الحقيقة علاقة معكوسة بين كمية الترفيه العاطفي المعروض وكمية المعلومات الواقعية التي يتلقاها المشاهدون. «فوكس تقدم مقداراً أقل من الأخبار وتحدث عن الأخبار أكثر من أيّ شبكة أخرى»، كما لاحظ الناقد التلفزيوني في صحيفة كونترا كوستا تايمز تشوك بارني بعد مراجعته لأكثر من 200 ساعة من التغطية الإخبارية للحرب على مختلف القنوات.⁽³⁷⁾ على أية حال، محطة إم إس إن بي سي ليست بعيدة جداً عن فوكس في هذا المجال. في الاقتباس اللاحق المأخوذ من بث يوم 2 أبريل/نيسان (والحرر هنا للإيجاز)، لاحظ كم هي قليلة المعلومات المقدمة بالفعل وكيف يمر البرنامج على المواضيع المعتادة: بهجة العراقيين بتحرّره، الطبيعة الشريرة لصدّام ونظامه، أخطار الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل، بطولة قوّاتنا، والعزيمة الحديدية للرئيس بوش:

المذيع: وهذه عناوين آخر أخبار الساعة من تغطية إم إس إن بي سي المستمرة «عملية تحرير العراق...

كريس ماثيوز (المضيف): في جنوب العراق، ما زال السكان حذرين من قوّات التحالف، لكنهم بدّوا يشعرون بدفء العلاقة. هنا نتحدث إلى بيل نيلي من محطة أي تي في والذي يرافق القوّات البريطانية في أم قصر.

نيلي: ليلة أخرى، هجوم آخر، وانهيار آخر يحصل في الدولة القمعية والوحشية التي هي عراق صدام. إنّ جنود البحرية يستهدفون

أنصاره في الجنوب... تجمّعات مخابرات صدام وقواته شبه العسكرية. النظام القديم يختفي، فجر جديد، وبعض العراقيين سعداء لرؤية القضاء على آخرهم...

ماثيوز: السيّناتور الجورجي ساكسبي شامبليس يترأس لجنة القوّات المسلّحة، وهو عضو في لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ. السيّناتور شامبليس، سأسألك ضمن الحدّ الأدنى: كيف تسير الحرب؟.

شامبليس: كريس، أعتقد أن الحرب تسير بطريقة عظيمة. رجالنا ونسائنا الشجعان هم الأفضل تدريباً، الأفضل تجهيزاً، وهم أفضل جيش في العالم من حيث الاستعداد، وخلال 13 يوماً فقط، تحرّكنا مسافة أبعد وبسرعة أكبر من أيّ جيش في تاريخ العالم، وكلّ شخص يعرف ما رآه على التلفزيون فيما يتعلق بقوة الهجوم الجوّي الذي شتّيناه على بغداد ومناطق أخرى مجاورة. في العراق، نحن نقوم بالقضاء على الحرس الجمهوري بطريقة جراحية جداً، وفي نفس الوقت، لا ندمّر المواقع المدنية. نحن لا ندمّر الكثير من تاريخ تلك البلاد، وأعتقد أن الناس هناك في وضع ممتاز مع حدّ أدنى من الإصابات...

ماثيوز: مع ذلك، هل هذا هو نوع الحرب التي يجب أن نتوقعها؟ نظام مستميت، نحن نواجه نظاماً مستميتاً.

شامبليس: هذا صحيح. حين يكون لديك شخص مثل صدام، القاتل والمعدّب والمغتصب، يجب أن تتوقّع منه كلّ ما هو سيئ، وأعتقد أننا نفعل ذلك الآن، ورجالنا مستعدّون لكل ما هو أت...

ماثيوز: هل لديك أيّ معلومات حول ما إذا كانوا ينوون استخدام المواد [الأسلحة] الكيميائية؟...

شامبليس: لا أعلم. لكننا نعلم بأنهم يملكونها. لكن سواء استخدمها أم لم

يستخدمها الآن،... نحن لا نعلم فحسب، كريس، لكن ذلك قد يحدث في أي مرحلة مع مرور الوقت.

ماثيوز: هل يمكن الافتراض بوجود رابط مباشرة بين الحكومة العراقية والمعسكر الإرهابي الموجود في شمال العراق؟...

ستيف إيمرسن، محلل شؤون الإرهاب في إم إس إن بي سي: لقد عثروا هناك على بعض المؤشرات حول تطوير بعض أنواع المواد الكيميائية والحيوية. ليسوا متأكدين بنسبة 100 بالمائة؛ وهم يقومون، أثناء حديثنا هذا، بشحن تلك المواد وجلبها لإخضاعها لتحليل مختبري كيميائي. لكن الأمر يبدو كذلك - قائد الهجوم على الموقع، على سبيل المثال، قال بأن هناك بوابر حول وجود مادة الرايسين، شبيهة بتلك التي وجدت في لندن...

ماثيوز: دعني أسأل عن أخطار الرايسين. كيف يؤثر على الناس؟ اعطني فقط المخاوف الأساسية التي ينبغي لنا معرفتها حول ذلك.

إيمرسن: يمكنها أن تشلّك كلياً، أو أن تقتلك خلال 36 ساعة، إن لم تُعالج خلال الدقائق القليلة الأولى أو خلال الساعة الأولى أو نحو ذلك.

ماثيوز: مرة أخرى، يسعدنا الاستفادة من خبرتك. شكراً لمشاركتك. دعونا نتّجه يمينا الآن إلى البيت الأبيض ومراسل إن بي سي كامبيل براون. كيف يقوم الرئيس بوش بدوره كقائد أعلى في حالة الحرب؟...

براون: صحيفة يو أس توداي... قالت أن الرئيس يحمل العبء، ويبدو وكأنه متوتر جداً، وقد خرج هذا الصباح الناطق باسم البيت الأبيض آري فليتشر بسرعة ليقول بأنه يعتقد بأن ما قالته الصحيفة كان سلبياً جداً، وأن الرئيس أكثر قوّة، وأكثر ثقة بكثير مما حاولت أن توحى به الصحيفة...

ماثيوز: كامبيل، لكن الرئيس في حالة حرب، والأمريكيون يُقتلون. فإذا كان

الرئيس يتجول حول البيت الأبيض وهو يغني ويصفر، ألا يعتقد الناس حينئذ بأنه خارج سربه وعشه؟ ألا تتوقع منه أن يبدو منكفئاً بعض الشيء نظراً لما يجري؟⁽³⁸⁾

كما في حرب الخليج الأولى، عُرِضَت التغطية الإخبارية لحرب الخليج الثانية بطريقة بصرية جذابة، وبعض أساليب العرض كان مألوفاً، مثل لقطات المشهد الليلي الأخضر لبغداد. أما البعض الآخر فكان متجدداً، مثل صور الهاتف الفيديوي الحية المرسلة من المراسلين الملحقين بالقوات التي تتقدم عبر الصحراء. «نفس الممثلين: الرئيس هو بوش والرجل الآخر هو صدام حسين. لكن التقنية - الجيش ووسائل الإعلام - شهدت ثورة»، قال رئيس إم إس إن بي سي إريك سورنسون. وقد قارن ذلك «بالفارق بين لعبتي الأتاري والبلاي ستيشن». وقد قال أن التغطية التلفزيونية «ستكون أقرب بكثير إلى التجربة البصرية الثلاثية الأبعاد، وفي بعض الحالات قد تشاهد الحرب حية. وهذه قد تكون سابقة بحيث أن التكملة تصبح أكثر تشويقاً وإثارة من الحدث الأصلي نفسه».⁽³⁹⁾

في الدوحة، العاصمة القطرية، بنت وزارة الدفاع الأمريكية مركزاً صحفياً بكلفة 1.5 مليون دولار، حيث قَدِمَ من هناك العميد فنسينت بروكس التقارير الموجزة عن سير العمليات العسكرية وهو محاط بشاشات البلازما الناعمة الزرقاء. بذلت الشبكات جهوداً عاجلة لاشتقاق الأسماء لتغطياتها الإخبارية للحرب، حيث بثت الشعارات الرسومية التي قرّعت ولعت بألوانها وأشكالها المجسّمة مصحوبة بالموسيقى التصويرية ذات الطابع المغربي. سي بي إس اختارت شعار «أمريكا في حالة حرب». السي إن إن انتقت شعار «ضربة للعراق». سي إن بي سي استعملت شعار «ثن الحرب»، بينما اختارت كل من إن بي سي وإم إس إن بي سي شعار «الهدف: العراق» - وهو الخيار الذي تغير بسرعة حين انضمت إم إس إن بي سي إلى فوكس في استخدام

الاسم الرمزي الخاص الذي اختارته وزارة الدفاع الأمريكية للحرب - «عملية تحرير العراق». احتوت الشعارات على أعلام أمريكية خفاقة أو عناصر رمزية تتضمن ألواناً حمراء وبيضاء وزرقاء. على شاشة فوكس، رافق قرع الطبول العسكرية آخر التطورات التي تبث بشكل منتظم. أما الفواصل الدعائية على شاشة إم إس إن بي سي فتضمنت صوراً مركبةً لجنود مصحوبة بعزف على البيانو لألحان أغنية «راية النجم المشع». كما أن جميع الشبكات أرفقت موادها المذاعة بعبارات مثل «تغطية سي إن إن المباشرة لعملية تحرير العراق ستستمرّ، مباشرة بعد هذه الاستراحة القصيرة». وفي كلّ مرّة خرجت فيها هذه العبارة من فم مراسل أو ظهرت في زاوية الشاشة، أضفت المحطات المصادقية الضمنية على مزاعم البيت الأبيض حول الدوافع من وراء الحرب.

شبكات التلفزة بذلت جهوداً مضنية بغية الشعور بنفس مشاعر الجنود وكيل المديح لهم. وقد أشارت فوكس بشكل منتظم إلى القوات الأمريكية بكلمات مثل «نحن» وضمير الجمع الموصول «نا» و«جماعتنا». محطة إم إس إن بي سي عرضت مشهداً متكرراً اسمه «شجعان أمريكا» يتضمن عرضاً لصور الجنود وهم في ساحة المعركة. أما المشاهد المتكررة على شاشة فوكس فقد تضمنت ما سمّته «التضحية التامة» وفيها صور لطلقات تصيب الجنود الأمريكيين الذين يسقطون في أرض المعركة، بالإضافة إلى «قلب الحرب» الذي يعرض لمحات من الحياة الشخصية لأفراد من الجيش.

معظم التغطيات الإخبارية بدت أشبه بروائع الأدب الوطني الأول، وذلك عبر احتوائها على القطع الموسيقية الملهمة والفن التصويري العاطفي من خلال صور الحرب التي استعملت بأسلوب ليبرالي أثناء التحول من التقارير المباشرة والبث الحيّ إلى الاستراحات الإعلانية. الهجمات بالقنابل والصواريخ ظهرت على الشاشة ككرات نارية حمراء كبيرة، مرصعة بطلقات

البنادق النارية، بالإضافة إلى الخرائط المتحركة والمخططات والرسوم البيانية التي تشرح وتبيّن المناورات العسكرية وتقنيات الأسلحة. أما داخل الاستوديوهات فقد وفّرت شبكات التلفزة لحفنة من الجنرالات السابقين خرائط أرضية مثبتة على لوحات كبيرة كي يتجول الجنرالات حولها وهم يحملون المؤشرات ويحركون النماذج الصغيرة للدبابات والمقاتلات النفاثة الزرقاء والحمراء.

«هل جعلنا الحرب فاتنة؟» سأل مذيع إم إس إن بي سي ليستر هولت أثناء حوار له في 26 مارس/آذار مع البحار السابق والمصارع المحترف الذي تحوّل إلى سياسي جيسي فينتشورا، والذي استُخدم كمعلّق خبير. «يذكّرني ذلك كثيراً بلعبة السوبر بول»، أجاب فينتشورا.⁽⁴⁰⁾

التغلب على «متلازمة فيتنام»

أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، كانت الرقابة الحكومية على المراسلين العسكريين ثقيلة وروتينية ونادراً ما كانت موضع استنكار حتى من قبل الصحفيين أنفسهم، الذين مارسوا على أنفسهم رقابة ذاتية وتفاذوا التصوير التفصيلي الدقيق للجانب السلبي من الحرب الذي يسبب صدمات نفسية وعاطفية.⁽⁴¹⁾ وهذا الأمر ينطبق أيضاً في الغالب على الحرب الكورية، بالرغم من أن الرقابة كانت أقل تكرراً وأن الصحفيين بدعوا بالتحدث عن السمات السلبية للحرب والتي لم تكن تذكر سابقاً، مثل أعداد المصابين من وحدات عسكرية معيّنة ومشاكل انخفاض الروح المعنوية بين الجنود الأمريكيين.⁽⁴²⁾ حرب فيتنام كانت «حرب التلفزيون الأولى» وكانت أيضاً الحرب الأولى التي ظهرت فيها الخلافات الجديّة بين الجيش والمراسلين الذي غطوا الأعمال العسكرية. بعد أن انتهت الحرب، في الحقيقة، استنتج العديد من الناس بأنّ التغطية التلفزيونية قوّضت دعم الرأي العام للحرب من خلال جلب مشاهد الموت والعنف المرعبة إلى غرف جلوس الأمريكيين.

وهذا الاعتقاد ليس سوى أسطورة شائعة، طبقاً للأستاذ في جامعة كاليفورنيا في مدينة سان دياغو، دانيال هالين، الذي أجرى دراسة لمحتويات التقارير عن حرب فيتنام. «نادرًا ما تم عرض صور الدم والإصابات»، قال هالين. «مشاهد العنف في التقارير الإخبارية لا تزيد في أغلب الأحيان عن سحب الدخان المتصاعد من مسافة بعيدة، حين تقوم الطائرات بقصف العدو الغير منظور. فقط أثناء هجوم تيت عام 1968 والهجوم الربيعي عام 1972، عندما وصلت الحرب إلى المناطق المأهولة، بدأت المعاناة والدمار يظهران بشكل منتظم على شاشات التلفزة... أما خلال السنوات القليلة الأولى من الحرب التي وصلت إلى غرف الجلوس فكانت التغطية في أغلبها مستبشرة... في السنوات الأولى، حين كانت الروح المعنوية عالية، عكس التلفزيون النغمة المستبشرة للقوات. لكن حين تتالت عمليات الانسحاب وهبطت الروح المعنوية، تغيرت نبرة التقارير الآتية من ساحة الحرب. هذا التغيير تزامن مع التطورات الحاصلة على "الجبهة الداخلية". هنا في الوطن، حظيت الانقسامات حول الحرب على مزيد من أوقات البث، والحركة المناهضة للحرب، التي تم ذمها باعتبارها من إحياءات الشيوعية في السنوات الأولى من الحرب، أصبحت مقبولة أكثر في أغلب الأحيان كحركة سياسية شرعية».⁽⁴³⁾

وبغض النظر عما إذا كانت التغطية التلفزيونية قد خلقت شعوراً مناهضاً للحرب أم أنها عكست تلك الحرب فقط، كما يقترح هالين، فقد وضعت حرب فيتنام حداً فاصلاً في العلاقة بين الجيش وأجهزة الإعلام. في الحروب اللاحقة، شدد المخططون العسكريون كثيراً على مسألة السيطرة على المعلومات الذي تصل إلى الجمهور الأمريكي. تم استثناء الصحفيين ومنعوا من تغطية حربي غرناदा وبينما حتى وصل القتال إلى نتائجه المرجوة. وقد أدى ذلك بالتالي إلى تصاعد الشكاوى من قبل الصحفيين، وفي حرب 1991 في العراق، التي سميت رمزياً باسم «عملية عاصفة الصحراء»، تبنت وزارة

الدفاع الأمريكية «نظام المجموعات» الذي يقضي باختيار مجموعة منتقاة من المراسلين الذين يُسمح لهم بمرافقة الجنود ضمن ظروف تحرك مسيطر عليها بإحكام تام. بين أغسطس/ آب 1990 ويناير/ كانون الثاني 1991 سُمح فقط لـ «للمجموعات القتالية» - حوالي 23 مجموعة من المراسلين الملحقين بالوحدات المقاتلة - بالدخول إلى الوحدات العسكرية في ساحة القتال. مكتب الاستعلامات المشترك في وزارة الدفاع الأمريكية، الذي كان مسؤولاً عن مهام مجموعات المراسلين، منع المراسلين من الوصول إلى بعض مناطق الحرب بناءً على الأوامر العسكرية. «من أجل التاريخ، ومن أجل الحقيقة، لم تكن هناك عيون وأذان مستقلة» لتوثيق كل أحداث الحرب، يتذكر فرانك أوكوفر، المدير السابق لمكتب مجلة ميلووكي جورنال سينتينيل.⁽⁴⁴⁾ وكنتيجة لذلك، رأى الجمهور نسخة مجملة جداً عن الحرب، تحكمت بها صور الفيديو المقدمة من وزارة الدفاع الأمريكية حول «القنابل الذكّية» التي تفجّر البنايات والأهداف الثابتة الأخرى بدقة متناهية. الصحفيون الذين رفضوا المشاركة في «نظام المجموعات»، مثل المصور بيتر تورنلي، تمكنوا من التقاط صور «المجازر المرعبة» لكنهم أحبطوا لأنّ تغطيتهم للجانب التصويري من الحرب لم تجد طريقها إلى النشر على نطاق واسع.⁽⁴⁵⁾

أثناء الحرب في أفغانستان عام 2001، على أية حال، أحس المراسلون بنفس مشاعر الجنود الذين كانوا يغطون أعمالهم القتالية. وقد ذهب مراسل فوكس الحربي جيرالدو ريفيرا إلى حدّ أنه أعلن على الهواء بأنّه كان يحمل بندقية (وهذا انتهاك لقواعد الحرب بالنسبة للصحفيين حسب اتفاقية جنيف) وأخبر صحيفة فيلاديلفيا إنكوايرر بأنّه تمّنى قتل أسامة بن لادن شخصياً، وأن «يرفس رأسه، ثمّ يجلبه إلى الوطن ويضعه في قالب برونزي». وكما أن التلفزيون تخطى الحدّ الفاصل بين الصحافة والترفيه، كذلك تخطت محطة فوكس وجيرالدو الحدّ الفاصل بين المراسلين والمقاتلين. وبدلاً من منع

المراسلين من الوصول إلى ساحة المعركة، أدركت وزارة الدفاع الأمريكية بأن لديها القليل مما تخسره والكثير مما تربيحه من خلال دعوتهم للحضور.

توري كلارك، مساعدة وزير الدفاع الأمريكي للشؤون العامة، تولّت مسؤولية تطوير إستراتيجية وزارة الدفاع الأمريكية القاضية بـ«إلحاق» المراسلين وضمّهم إلى القوَّات المحاربة⁽⁴⁶⁾. أتت كلارك إلى العمل العسكري بعد أن أدارت مكتب شركة هيل أند نولتون للعلاقات العامة في واشنطن العاصمة، وهي الشركة التي نظّمت وأدارت حملة العلاقات العامة لصالح حكومة المنفى الكويتية أثناء الإعداد لشن «عملية عاصفة الصحراء» قبل عقد من الزمن. ضمن وثيقة مؤلفة من 13 صفحة تلخّص القواعد الإجرائية للصحفيين الملحقين بالوحدات العسكرية، ذكرت وزارة الدفاع الأمريكية في تلك الوثيقة أن «التغطية الإعلامية لأيّ عملية مستقبلية ستشكّل، بدرجة كبيرة، مفهوم الرأي العام» في الولايات المتحدة، وفي البلدان الأخرى. وقد سمح نظام «الإلحاق» للمراسلين بالتنقل مع الوحدات العسكرية - طالما التزموا بالقواعد الموضوعية. وقد نصّت تلك القواعد على أن المراسلين لا يستطيعون التحرك بشكل مستقل، وأن المقابلات التي يجرونها ينبغي أن تكون مدوّنة في السجلات (مما يعني أن العسكريين ذوي الرتب الدنيا سيكونون أقل قدرة على الكلام بشكل صريح)، وأن الضباط يمكن أن يراقبوا ويؤخروا بشكل مؤقت إرسال التقارير بحجة «أمن العمليات».⁽⁴⁷⁾ وإلى جانب الصحفيين، ألحقت وزارة الدفاع الأمريكية بالوحدات العسكرية موظفي العلاقات العامة التابعين لها، الذين ساعدوا في إدارة عمل المراسلين، وقادوهم نحو المواضيع والقصص وسهّلوا لهم إجراء المقابلات وفرص التقاط الصور.⁽⁴⁸⁾

لعبت الرقابة العلنية دوراً بسيطاً نسبياً في تشكيل محتوى التقارير القادمة من ساحات القتال. والأمر الأكثر أهمية هو الطريقة التي اتبعت في إلحاق

المراسلين بالوحدات المقاتلة مما شجّعهم على التماهي، شعورياً، مع الجنود الذين كان هؤلاء المراسلين يغطّون تحركاتهم. وجزء من «وجهة النظر» في أيّ موضوع صحفي يعتمد على الموقع الطبيعي والفعلي الذي منه يشهد ويشاهد المراسلون الأحداث. وحيث أن معظم الأعمال الحربية الحديثة تتضمن استخدام قوآت السلاح الجويّ أو المدفعية البعيدة المدى، فإن الصحفيين الملحقين بالقوآت لا يشهدون سوى تلك الأسلحة وهي تُطلق، لكنهم نادراً ما يشاهدون ما يحدث لدى الطرف الآخر الذي تنصبّ عليه قذائف تلك الأسلحة. وفي نفس الوقت الذي كان فيه المئات من المراسلين يتحركون برفقة القوآت الأمريكية والبريطانية، لم يكن هناك تقريباً وجود لأيّ صحفي في المدن العراقية. قبل انطلاق الحرب، حدّر مسئولو وزارة الدفاع المراسلين وأبلغوهم بضرورة مغادرة بغداد، قائلين أن الحرب ستكون أكثر حدّة بكثير من حرب 1991. «إذا كانت مسودة «عاصفة الصحراء» هي ما تتخيله عن الحرب، فينبغي أن تتخيّل شيئاً مختلفاً جداً»، قال الجنرال ريتشارد مايرز، رئيس هيئة الأركان المشتركة.⁽⁴⁹⁾ وبالرغم من أن بعض مراسلي وسائل الإعلام المطبوعة ظلّوا في بغداد، إلا أن كل الشبكات التلفزيونية تقريباً أخذت بنصيحة وزارة الدفاع الأمريكية وانسحبت في الأيام التي سبقت بداية اندلاع القتال مباشرة.⁽⁵⁰⁾ ومن بين الشبكات الرئيسية، محطة سي إن إن فقط بقي لديها مراسلون في بغداد في اليوم الذي بدأت فيه الحرب.⁽⁵¹⁾ وبغياب فرقها الإخبارية الخاصة، اضطرت الشبكات الأخرى للاعتماد على مصادر السي إن إن والجزيرة، القناة الفضائية العربية التي يتهمها مسئولو إدارة بوش بأنها قناة «أسامة بالكامل، وفي كل الأوقات».⁽⁵²⁾

نظام الإلحاق شجّع أيضاً على الالتحاق العاطفي بين المراسلين والجنود. المراسل الإخباري لشبكة سي بي إس جيم أكسلرود، الذي رافق فرقة المشاة الثالثة، أخبر المشاهدين بأنّه أتى للتو من اجتماع لتلقي التعليمات من

الاستخبارات العسكرية. «لقد تلقينا أوامر»، قال قبل أن يصحح نفسه ليقول، «الجنود تلقوا الأوامر».⁽⁵³⁾

مراسل شبكة إن بي سي نيوز ديفيد بلوم (الذي مات بشكل مأساوي بسبب جلطة في الدم أثناء الحرب) قال بأن الجنود «فعلوا أي شيء وكل شيء» قد نطلبه منهم، ونحن بالتالي حاولنا ردّ الجميل بفعل أي شيء وكل شيء ربما طلبوه منا».⁽⁵⁴⁾

«إنهم حُماتي»، قال جون دونوفان من شبكة أي بي سي.⁽⁵⁵⁾

أوليفر نورث، المقدم البحري السابق والمتهم في قضية إيران-كونترا والذي تحوّل إلى مضيف ومقدم برنامج حوارات، أصبح مراسلاً ملحقاً بالوحدات العسكرية لصالح شبكة فوكس، وساهم في مزيد من تشويه الحدود بين الصحفي والجندي المشارك في أعمال الحرب. «أقول أن الجنرال فرانكس يجب أن يوتّوه به - ذلك ما قاله أحد جنود البحرية الأمريكية حول جنرال في الجيش»، قال نورث في أحد تقاريره التي بثها من جبهة القتال.⁽⁵⁶⁾

«عبقريّة مطلقة»، قالت مستشارة العلاقات العامة الأمريكية كايتي ديلاهاي باين، وأضافت بأنّ المراسلين الملحقين «كانوا مدهشين، جلبوا الحرب إلى غرف جلوسنا كما لم يحدث من قبل... إنّ حصافة هذا التكتيك تكمن في استناده إلى العقيدة الأساسية للعلاقات العامة: الأمر كلّ يتعلّق بالعلاقات. كلما كانت علاقة أيّ منّا أفضل مع الصحفي، كلما كانت الفرصة أفضل لكي يتعاون ذلك الصحفي معنا ويحمل رسائلنا. لذلك لدينا الآن صحفيين تربطهم صداقات مع العشرات - إن لم يكن المئات - من الأصدقاء الجدد من بين أفراد القوّات المسلّحة».⁽⁵⁷⁾

أنت على الكاميرا المقاتلة

بالإضافة إلى الصحفيين الملحقين بالوحدات العسكرية، وفّرت وزارة الدفاع الأمريكية المقاتلين الذين يعملون كصحفيين، وكل منهم مصحوب بطاقم التصوير الخاص به، والذي سُمّي «الكاميرا المقاتلة». في الحقيقة، إحدى أكبر الضربات الإعلامية في الحرب كانت عملية الإنقاذ المثير لأسيرة الحرب جيسكا لينتش - وهي العملية التي كانت سبقاً حاصراً حققته «الكاميرا المقاتلة». مراسل صحيفة بالتيمور صن، أرييل سابار، راقب فريق الكاميرا المقاتلة أثناء العمل: «العشرات من المستخدمين الذين يعملون على محطات الحاسوب يدقّون فيما يتراوح بين 600 إلى 800 صورة و25 إلى 50 لقطة فيديو تسطع على الشاشة في كلّ يوم قادمة من الخطوط الأمامية. حوالي 80% منها يوضع في متناول وسائل الإعلام والجمهور»، قال سابار في تقرير له. وأضاف، «تتألق الصور على الشاشات الكبيرة في لقاءات الإيجازات الصحفية في وزارة الدفاع الأمريكية وفي القيادة المركزية الأمريكية في قطر. ومعرض الصور الموجود في موقع وزارة الدفاع على شبكة الوب يحتوي على 750 ألف لقطة يومياً، وهذا العدد هو ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل الحرب. وللمرة الأولى، تقوم «الكاميرا المقاتلة» بإرسال دفعة يومية من الصور بواسطة البريد الإلكتروني إلى وكالات الأنباء الرئيسية... في ساحة معركة الرأي العام، يقول الخبراء، الصور فعّالة كالرصاصة... صور الطائرات المقاتلة الملساء، إنقاذ أسرى الحرب، وصور العراقيين الفرحين الذين يهللون لوصول القوات الأمريكية يمكن العثور عليها بسهولة بين الصور الملتقطة بواسطة «الكاميرا المقاتلة». أما صور الأحياء التي تعرّضت للقصف في بغداد وخارجها والتي سمّيت «الأضرار الجانبية» فلا يمكن العثور عليها بين تلك الصور».⁽⁵⁸⁾

«لقد حصلنا على الكثير من الصور الإنسانية الجيدة، والتي تبين بأننا نساعد الشعب العراقي والناس في بغداد يحتفلون بنا»، قالت الملازم أول جين لاروك، الضابط المسؤول عن جنود «الكاميرا المقاتلة» في العراق. ثم أضافت قائلة أن «الكثير من صورنا سيكون له تأثير كبير على الرأي العام العالمي».⁽⁵⁹⁾

على أية حال، خارج الولايات المتحدة، كانت الصور التي يشاهدها الناس مختلفة جداً. فبدلاً من الجنود الأبطال الذين يوزعون الحلوى على الأطفال العراقيين وعمليات الإنقاذ التي تفطر القلوب لأسرى الحرب الجرحى، عرضت الشبكات التلفزيونية في أوروبا والعالم العربي صوراً عنيفة ومريعة للحرب، وكانت تلك الصور مزعجة ومن غير المحتمل أنها أحدثت التأثير الذي تخيلته لاروك.

7. كما يرانا الآخرون

«دعونا ننتقل إلى مراسل السي إن إن فرانك بوكلي، الذي ينتظر الوصول المثير للرئيس»، قال وولف بليتز من السي إن إن في 1 مايو/أيار 2003. «قل لنا، فرانك: كم سيكون مثيراً؟»، أردف بليتز. «سيكون مثيراً جداً، وولف»، رد بوكلي.

مثل كل الأعمال التلفزيونية الجيدة، انتهت الحرب في العراق بمشهد نهائي مثير، وبارسال تلفزيوني أثناء وقت البث الأساسي - نور الشمس يلمع فوق الأمواج حين هبطت طائرة الرئيس المقاتلة، وقد كتب اسمه وكلمتي «القائد الأعلى» تحت نافذة الطيار، حيث انحدرت من السماء لتحط على ظهر حاملة الطائرات الأمريكية أبراهام لينكولن. تركّزت عدسات التصوير على الطائرة وكبرت صورتها، وقد أعاق تقدمها سلك امتدّ عبر مدرج الطيران مما اضطرها للتوقّف، ثم اندفع بوش خارجاً منها وهو يرتدي زي الطيران

الأخضر الزيتي وخوذته مندسة تحت ذراعه. سار بوش عبر مدرج الطيران، متخذاً أوضاعاً مناسبة لالتقاط الصور ومصافحاً طاقم حاملة الطائرات. حتى أنه ساعد في قيادة الطائرة، كما أخبر المراسلين. «نعم، لقد قذتها»، قال. وأضاف، «نعم، بالطبع، لقد أحببتها». محاطاً بالمعدات العسكرية التي تلمع تحت ضوء الشمس وبهتافات المئات من البحّارة في زيّهم الرسمي، وخلف ظهره راية ضخمة سُطّرت عليها كلمتا «المهمّة أنجزت»، وسط هذا الجو ألقى خطاباً مثيراً تحت وهج أشعة الغروب ليعلن عن «تحوّل في مدّ» الحرب على الإرهاب. «لقد قاتلنا من أجل الحرية، ومن أجل السلام العالمي»، قال بوش. وأضاف، بجهودكم، سقط المستبدّ، والعراق أصبح حراً».⁽¹⁾

بعد أن انقضت أيام الاحتفالات، حصل الديمقراطيون على فرصتهم المناسبة للاعتراض والشكوى، وقالوا إن تصرف بوش يعتبر «دعاية على نفقة دافعي الضرائب» لدعم موقفه في حملته القادمة لإعادة انتخابه.⁽²⁾ وقد قدّروا أن المسألة كلّفت مليون دولار لترتيب وتنظيم كلّ التفاصيل التي جعلت الصورة تبدو بهذه المثالية.⁽³⁾ وبالرغم من أن موظفي البيت الأبيض ادّعوا في الأصل أنّ الطائرة المقاتلة كانت ضرورية، إلا أنهم اعترفوا لاحقاً بأنّ حاملة الطائرات كانت قريبة بما فيه الكفاية من الشاطئ بحيث أن مروحية كانت ستفي بالغرض. وفي الحقيقة، كانت حاملة الطائرات قريبة من الشاطئ، إلى درجة الحاجة إلى إعادة تحريكها وإبعادها نحو عرض البحر لمنع آلات التصوير التلفزيونية من التقاط خط شاطئ سان دياغو.⁽⁴⁾ وللحصول على الضوء المناسب والحيلولة دون وصول السفينة إلى الميناء قبل وقت البث الرئيسي، اعترف مسؤول في وزارة الدفاع الأمريكية أن حاملة الطائرات الأمريكية أبراهام لينكولن قامت «بدورات بطيئة» بسرعة 30 ميلاً في البحر واستغرقت 20 ساعة كي تعبر مسافة كان يمكنها قطعها في ساعة أو نحو ذلك.⁽⁵⁾ قاس قادة السفينة اتجاه الرياح ووجّهوها لتنزلق بسرعة متطابقة

تماماً مع سرعة الريح، بحيث لا تنفخ رياح البحر داخل السفينة فتثير ضوضاء غير مرغوبة أثناء خطاب بوش. وحين انقلبت الريح أثناء الخطاب، غيرت السفينة اتجاهها.⁽⁶⁾

في النهاية، مع ذلك، اتفق المستشارون بأن الصور ستبقى في أذهان الأمريكيين. «إنها صور رائعة التركيب»، علّق مايك ماكوري، مستشار العلاقات العامة السابق لدى الرئيس كلينتون.⁽⁷⁾

«هذه ممتازة، إنها في قمة الروعة»، قال مايكل ديفير، المدير السابق للعلاقات العامة في عهد رونالد ريغان. «إنها صورة عظيمة. إنها تُظهر القوة والنصر الأمريكي. تُظهر رئيساً شاباً يتحدى بالشجاعة ليقوم بأمر كهذا».⁽⁸⁾

«لم يكن هذا مجرد خطاب، بل مشهد وطني مؤثر، ومع وجود حامله الطائرات وطاقمها كمشهد خلفي ذو تأثير حاسم يدعم ملاحظات بوش، بدا وكأن شيئاً ما يهتف محبباً الأمة التي تشاهد المنظر ويجعل بوش يبدو كقائد أعلى يتحدث في مشهد مؤثر»، هذا ما كتبه الناقد التلفزيوني في الواشنطن بوست توم شالس. «كان هناك التفافات بليغة العبارات في الخطاب... لكنّها ضاعت وسط التأثير البصري، كما أن العبارات والصور كانت رحيبة وعميقة... بدا كلّ شيء رائعاً بالنسبة لبوش. حتى إضاءة قبيل الغروب كانت مثالية».⁽⁹⁾

عمليات جراحية على الأدمغة

«لقد أريتم العالم مهارات وقوة القوّات المسلّحة الأمريكية»، أعلن بوش أثناء خطابه على متن حامله الطائرات. «اليوم... بالتكتيكات الجديدة والأسلحة الدقيقة، يمكننا أن ننجز الأهداف العسكرية بدون إلحاق الأذى بالمدنيين. لا توجد أداة لدى الإنسان يمكنها أن تزيل الجانب المأساوي من الحرب. وقد تحقق الآن تقدّم عظيم إذ أن المدنيين يشعرون بالخوف من الحرب أكثر بكثير من الأبرياء».⁽¹⁰⁾

بقدر ما قد تبدو هذه الكلمات مريحة بالنسبة للناس في الولايات المتحدة، على أية حال، إلا أن خطاب بوش بعث برسالة مختلفة تماماً إلى العالم الخارجي. ومنذ أن قادت الولايات المتحدة الحرب الأولى في الخليج، حققت الولايات المتحدة الانتصارات عن طريق استعراض القوة العسكرية الساحقة. ومن وجهة نظر الكثير من الناس خارج الولايات المتحدة، هذه هي بالضبط المشكلة، والمعدات العسكرية التي أحاط بوش نفسه بها أفزعتهم باعتبارها أشياء تثير الخوف، وليس الهاتف.

بقية العالم لم يختبر الحرب كعملية جراحية نظيفة كما تم تقديمها على شاشات التلفزة الأمريكية، حيث تذرعت وسائل الإعلام الرئيسية بأسباب مثل الذوق وتقييم الأخبار أو القلق حول الإساءة لمشاعر المشاهدين لتفسير السبب في عدم عرضها، إلا نادراً، صور الجرحى والقتلى من المدنيين. «إنه أمر نصارعه كل يوم»، قالت سيسيليا بوهاند، محررة الصور الأجنبية في النيويورك تايمز. «نحن لا نحاول نشر المصقات لصالح الجيش، مما يجعل الأمر يبدو كذلك أحياناً حين لا ننشر [صور] الجانب الآخر. البعض منا يشعر بأننا يجب أن ننشر مزيداً من الصور». وأضافت بأنّ القراء ردوا بغضب على تلك المناسبات التي أطلقت فيها التايمز العنان ونشرت صورة جندي ميت أو طفل ميت. «نتلقى طوفاناً من الرسائل»، قالت بوهاند. وأضافت إن «القراء لا يريدون رؤيتها».⁽¹¹⁾

«حقاً إنّها معقمة بشكل مقرف على شاشة التلفزيون»، قال جيني بوللين، رئيس قسم جراحة الدماغ والأعصاب في مستشفى لاندشتول في ألمانيا الذي يُنقل إليه الجنود المصابين بإصابات خطيرة في الحرب. بوللين، الذي عالج جيسكا لينتش ومصابين أمريكيين آخرين، قال بأنّه رأى «عدداً من الإصابات الشنيعة جداً الآتية حديثاً من الحرب. فقدوا الأذرع، السيقان، الأيدي، أحرقوا، بعضهم تعرض لإصابات بالغة في الدماغ وأضرار في

الأعصاب الخارجية. إنهم فتیان يافعون سيعانون، بطرق مختلفة، من إصابات دائمة مدى الحياة. أنا لا أشعر بأنّ الناس يدركون ذلك».⁽¹²⁾

عبر الكتابة في الصحافة المتخصصة في مجال العلاقات العامة، حدّر الكاتب البريطاني المولد بول هولمز من «أننا نشاهد حرباً مختلفة كلياً عن تلك التي رآها بقية العالم»، الذي «توصل إلى نتائج جدية طويلة الأمد. وهو الأمر الذي يمكن أن يعمّق الهوة بين الطريقة التي تنظر بها الولايات المتحدة إلى دورها في العالم والطريقة التي ينظر بها بقية العالم إلينا. كما يمكن أن يؤدي ذلك أيضاً إلى مزيد من الأخطاء في التقدير، كما حدث بالنسبة لفرضية أن المحتلين الأمريكيين سيلقون الترحيب كمحررين. قد لا يكون هناك الكثير مما يمكن فعله في هذه المرحلة فيما يتعلق بصورتنا في الخارج (ولا يبدو أن أحداً في هذه الإدارة مهتم بذلك)، لكن وسائل الإعلام الأمريكية لا تقدم أي خدمة للجمهور برفضها تصوير الحقائق المظلمة للحرب».⁽¹³⁾

القنابل العنقودية

لإدراك الفارق بين النمط الأمريكي والأنماط الدولية في طريقة التغطية الإخبارية للحرب، استخدمنا قاعدة بيانات ليكسس/نيكسس (Lexis/Nexis) لوضع قائمة بالأخبار المنشورة بين 3 و10 أبريل/نيسان 2003، والتي احتوت على عبارتي «قنابل عنقودية» و«العراق». وهذه الفترة الزمنية كانت هامة لأنها مهدّت لنهاية الحرب (بدأ الاحتلال الأمريكي لبغداد في 9 أبريل/نيسان)، كما أنها تضمّنت أيضاً الاعتراف الأول من قبل الجنرالات الأمريكيين والبريطانيين بأنهم كانوا يستعملون القنابل العنقودية التقليدية. منظمات حقوق الإنسان ووكالات الإغاثة الدولية بما في ذلك منظمة «الدفاع عن حقوق الإنسان»، «منظمة العفو الدولية»، «أو كسفام إنترناشيونال»، «المساعدة المسيحية»، و«إنقاذ الأطفال» أدانت استخدام القنابل العنقودية لأنها تقتل عشوائياً.⁽¹⁴⁾ كلّ قنبلة عنقودية تحتوي على حوالي 200 قنبلة

بحجم علبة الصودا، والتي تنفجر وتتناثر عند الاصطدام فتملأ منطقة تعادل مساحة ملعب كرة القدم بقطع معدنية متفجرة وصغيرة جداً. بين 5 و15 بالمائة من القنابل الصغيرة لا تنفجر على الفور، تاركة وراءها فضلات قاتلة من القنابل غير المنفجرة التي يمكن أن تستمر بقتل الناس الذين يدوسون عليها أو يلمسونها دون انتباه بعد نهاية المعركة. «القنابل العنقودية لها سمعة سيئة جداً، وهي تستحقها»، يقول كولن كينغ، مؤلف «دليل جين للقنابل والقذائف المدفعية المتفجرة» وخبير المتفجرات والقذائف لدى الجيش البريطاني أثناء حرب الخليج الأولى عام 1991.⁽¹⁵⁾ والقنابل العنقودية التي تعتبر من الأسلحة المضادة للأفراد والمصنفة ضمن فئة الألغام الأرضية، حرمتها أكثر من 100 دولة ضمن معاهدة رفضت الولايات المتحدة التوقيع عليها. واستخدامها لا يزال قانونياً، لكنه مثير للجدل الشديد.

خلال فترة الثمانية أيام التي تفحصناها، ذكرت المنشورات الأمريكية القنابل العنقودية 120 مرة فقط، بالرغم من أنها ذكرت 2044 مرة في المنشورات الأخرى المفهرسة ضمن قاعدة بيانات ليكسس/نيكسس. بالمقارنة مع ما تقدم، احتوت المنشورات الأسترالية والأوروبية على 394 تحقيقاً، فيما ذكرت القنابل العنقودية 673 مرة في المنشورات المدرجة ضمن قاعدة البيانات. وإذا أجرينا معادلة بسيطة، فسنجد أن احتمال ذكر القنابل العنقودية في المنشورات الأوروبية والأسترالية أكبر بعشر مرات من مثيلاتها الأمريكية.

على أية حال، الأرقام وحدها لا تُظهر الحقيقة الكاملة. ذلك أن أغلب التحقيقات الإخبارية التي ظهرت في المنشورات الأمريكية ذكرت القنابل العنقودية بشكل عابر فقط، واصفة التقارير حول استخدامها بأنها تستند إلى أقوال «المصادر الحكومية» العراقية⁽¹⁶⁾ أو المرور عليها سريعاً، بجملة واحدة، كما ورد في تقرير النيويورك تايمز المنشور في 8 أبريل/نيسان الذي

قال بأنَّ المسؤولين الأمريكيين «يتحرّون حول التقارير المتعلقة باستخدام القنابل العنقودية ضدَّ القرى».⁽¹⁷⁾ عدّة إشارات في الصحف الأمريكية تضمّنت تكذيبات حول استخدام القنابل العنقودية، بالإضافة إلى إشارات إلى استخدامها في الحروب الأخرى، أو نقد استخدامها من قبل صدام حسين في الهجمات السابقة على الأكراد والشيعية.

وحين سُئل عن التقارير التي تتحدث عن الوفيات بين المدنيين من جراء استخدام القنابل العنقودية في منطقة الحلة الواقعة جنوب بغداد، ردَّ العميد الأمريكي فنسينت بروكس، «ليس لدي معلومات محددة حول ذلك الهجوم بالذات ولا حول الانفجارات التي قد تربط بينه وبين القنابل العنقودية».⁽¹⁸⁾ تعليقه هذا فنّده بسرعة اللجنة الدولية للصليب الأحمر، التي أرسلت فريقاً من أربعة أشخاص إلى الحلة ووجدت ما سمّاه الناطق باسم اللجنة الدولية للصليب الأحمر مشهداً «مرعباً» مليئاً بالعشرات من الجثث المشوّهة.⁽¹⁹⁾ منظمة العفو الدولية تحرّرت الأمر أيضاً وذكرت ما يلي:

المشهد في مستشفى الحلة في 1 أبريل/نيسان يُظهر بأنَّ شيئاً فظيعاً قد حدث. أُحضرت أجساد الرجال والنساء والأطفال - أحياء وأمواتاً - إلى المستشفى وتبدو عليها الثقوب التي أحدثتها قطع وشظايا القنابل العنقودية. محررو رويتر والأسوشيتد برس حكموا بأنَّ أشرطة الفيديو التي تتضمن صور الضحايا قد تُسبب صدمة للمشاهدين إذا عُرضت على شاشات التلفزة. مراسلو صحيفة الإندبندنت [المملكة المتحدة] ذكروا أنَّ الصور أظهرت أطفالاً رضع وقد انشطروا نصفين وأطفالاً انتفخت أطرافهم. حمولة شاحنتين من الجثث، من ضمنها نساء يرتدين البسة تزينها الأزهار، شوهدت خارج المستشفى.

الجرحي الذين ظلّوا على قيد الحياة أخبروا المراسلين كيف انهمرت المتفجرات «كالغنب» من السماء، وكيف وثبت القنابل الصغيرة من خلال نوافذ وأبواب بيوتهم قبل أن تنفجر. طبيبٌ في مستشفى الحلة قال بأنَّ كلّ

المصابين تقريباً كانوا من ضحايا القنابل العنقودية.⁽²⁰⁾

حتى بعد الاعتراف باستخدام القنابل العنقودية، اجتهد الناطقون العسكريون في كافة مراحل الحرب ليبينوا عدد القنابل التي استخدمت، قائلين إن «عددًا غير محدد من القنابل العنقودية فقط أُلقيت على العراق».⁽²¹⁾ الإشارات الأخرى إلى القنابل العنقودية في الصحافة الأمريكية شملت البيانات التي تحدثت فقط عن الجهود المبذولة لحماية الجنود الأمريكيين من القنابل العنقودية، دون ذكر الجهة التي كانت تُطلقها. عدّة تحقيقات إخبارية، على سبيل المثال، ركّزت على جندي عانى من إصابة في قدمه بعد أن داس على قنبلة صغيرة غير منفجرة من مخلفات القنابل العنقودية. وقد مدح تقرير لصحيفة سان فرانسيسكو كرونكيل سترات «كيفلار» التي يرتديها الجنود، والتي ساعدت على حمايتهم من الإصابة بالقنابل أو بشظايا القنابل العنقودية.⁽²²⁾

بعد انتهاء القتال، بدأت بعض وسائل الإعلام الأمريكية بنشر التقارير حول بعض جوانب وسمات الحرب التي تفادت نشرها حين كان القتال جارياً. في 28 أبريل/نيسان، نشرت صحيفة شيكاغو تريبيون صورة لمراسم دفن الطفلة لمياء علي البالغة من العمر ستّة أعوام، وهي طفلة عراقية قتلت إلى جانب شقيقتها البالغة من العمر ثمانية أعوام حين أمسكت خطأً بقنبلة صغيرة ظناً منها أنها لعبة. العديد من القراء، لاحظ المحرّر في شيكاغو تريبيون دون وايلكليف، اتصلوا للاعتراض على نشر الصور، قائلين أنها «فجّة» و«مزعجة جداً» وزاعمين أنّها تُظهر «عدم الاحترام للذوق أو الأخلاق، أو لحياة تلك الطفلة المسكينة». وفي ردّه على ذلك، أشار وايلكليف إلى أنّه أثناء فترة الحرب بكاملها، لم يُنشر في الصفحة الأولى من شيكاغو تريبيون سوى «أقل من ستّ صور لجثث أو أجساد مصابة بإصابات شديدة».⁽²³⁾

الجنرال في القوات الجوية ريتشارد بي. مايرز، رئيس هيئة الأركان المشتركة، أخبر المراسلين في 25 أبريل/نيسان بأن 1500 قنبلة عنقودية كانت قد استخدمت أثناء الحرب لكن 26 قنبلة فقط سقطت في المناطق المدنية وأن هناك حالة واحدة فقط حدث فيها موت أو إصابة بين غير المقاتلين. على أية حال، إحصائية مايرز المشار إليها تشمل فقط القنابل العنقودية التي أسقطت من الطائرات ولا تتضمن تلك التي أطلقت من المدفعية الأرضية.⁽²⁴⁾ في مدينة كربلاء وحدها، تحدث عمال الدفاع المدني الذين عملوا على إزالة مخلفات الحرب، تحدثوا عن جمع حوالي 1000 قنبلة عنقودية غير منفجرة يومياً في الأماكن التي قالت الولايات المتحدة أنها لم تُستهدف.⁽²⁵⁾ «ملاحظاته جاءت في خضم تقارير متتالية من بغداد حول الأطفال والمدنيين الآخرين الذين يُقتلون أو يصابون بإعاقات من جراء القنبيلات الصغيرة التي لم تنفجر عند اصطدامها بأهدافها الأولى»، كما ذكر الكاتب في صحيفة لوس أنجلوس تايمز غريغ ميلير. وأضاف، «مزاعم مايرز بحضنتها منظمات حقوق الإنسان، التي قالت بأنها علمت يوم الجمعة بإصابات جديدة بين المدنيين في بغداد ومدن عراقية أخرى... منظمة «الدفاع عن حقوق الإنسان» ومنظمات أخرى، بالإضافة إلى الأطباء في بغداد، أبلغوا عن مئات الإصابات من جراء القنابل العنقودية أو غيرها من الأسلحة المماثلة».⁽²⁶⁾

وجهة النظر العربية

تماماً كما أصبحت الوطنية الزائدة إستراتيجية تسويق ناجحة لأجهزة الإعلام الأمريكية، حدثت ظاهرة مساوية ومعاكسة في العالمين العربي والإسلامي، حيث أصبحت معاداة الأمركة أفضل صيغة لاحتلال المراتب الأولى من حيث نسبة المشاهدين والقراء. حينما تحدث المراسلون العرب حول «أسلحة الدمار الشامل» أثناء الحرب على العراق، كانوا يشيرون أحياناً إلى القنابل العنقودية.⁽²⁷⁾ «محطات التلفزة العربية، التي تتقدمها بشكل واضح

قناة الجزيرة إلى جانب قناة أبو ظبي وقنوات أخرى، ظهرت بمنتهى الوضوح كقوى جيوسياسية جديدة»، كما لاحظ الرئيس السابق للجنة الاتحادية للاتصالات ريد هنت. «هذه التلفزة، التي يملكها العرب والموجهة أساساً إلى المشاهدين العرب، رأت الحرب عبر عدسات مختلفة عن تلك التي تغطي الأحداث لصالح جمهور الحرب الأمريكي. محطات التلفزة العربية وصلت بشكل طبيعي إلى جمهور راغب أصلاً بقبول وجهة النظر الصادرة عن الجانب المدافع في تلك الحرب، تماماً كما أن محطات التلفزة الأمريكية كانت تبث وتتوجه إلى جمهور يتبنى وجهة النظر المعاكسة. مع ذلك، الأوساط التلفزيونية لم تتحدّ الميول الطبيعية لمشاهديها المختلفين، لكن يبدو أن تلك الميول قد استثيرت».⁽²⁸⁾

«لفهم هذه الحرب وتداعياتها بالكامل، من الضروري مشاهدة كلٍّ من المحطات التلفزيونية العربية والأمريكية»، قال رامي خوري، المحلل السياسي ومحرر صحيفة الديلي ستار التي تصدر في العاصمة اللبنانية بيروت. وقد قضى خوري فترة الحرب وهو يتابع يومياً أكثر من 20 محطة عربية وأمريكية مختلفة ووجد أن الأمر أشبه «بتجربة مؤلمة، لأن مهمة مراجعة وتقييم الأخبار الجديّة للحرب تحوّلت إلى التخطّط في خليط من الهتافات العاطفية وتعابير الهويّات البدائية والعشائرية والوطنية، والتلاعب الأيديولوجي العلني من جانب الحكومات والإعلان التجاري البليد الموجه إلى الجماهير بحثاً عن حصة من الجمهور ودولارات الإعلانات». وأضاف، «النمط كان متشابهاً على جانبي الانقسام الأيديولوجي: قنوات التلفزة العربية عرضت انحيازاً وأخطاء مماثلة تقريباً، بما في ذلك: إعادة السمجة لمشاهد أسوأ الإصابات بين المدنيين العراقيين؛ المقابلات مع الضيوف الذين يميلون إلى انتقاد الولايات المتحدة؛ المضيفون والمراسلون الذين يقفزون لمناقشة الضيوف الأمريكيين بدلا من إجراء المقابلات معهم؛ [و] أخذ البيانات الحكومية العراقية والعربية الأخرى على ظاهرها مع القليل من التقصي حول دقتها».⁽²⁹⁾

أثناء الحرب، تحدثت «الجزيرة» عن تضاعف عدد الزائرين لموقعها العربي على شبكة الوب إلى ثلاث مرات. رغبتها في بث الصور التي اختارت الشبكات الأمريكية عدم بثها ساهمت في زيادة شعبيتها. وقد جاء في تقارير لمحركي البحث على شبكة الإنترنت «غوغل» و«لايكوس» أن «الجزيرة» أصبحت موضوع البحث الأكثر شيوعاً لدى متصفّحي شبكة الوب، وذلك أكثر بثلاث مرات من عمليات البحث التي أجريت عن موضوع «الجنس».⁽³⁰⁾ وفي نفس الوقت، أصبحت «الجزيرة» هدفاً لهجمات أحد قراصنة الكمبيوتر الذي نجح في إبقاء النسخة الإنجليزية من موقعها معطّلة خلال معظم فترة الحرب ونجح في إقفال الموقع العربي لمدة أسبوع تقريباً. «لم يسبق أن استمر أحد أبداً في شن هجوم شديد كهذا ولمدة طويلة ضدّ موقع على شبكة الوب»، لاحظت صحيفة يو أس توداي.⁽³¹⁾

قاعدة بيانات ليكسس/نيكسس احتوت على عدد قليل فقط من نماذج التغطية الإعلامية العربية للحرب، لكننا نستطيع أن نتعرف على ما كان يشاهده العرب يومياً من خلال الوصف التالي الذي قدمه الصحفي البريطاني روبرت فيسك لشريط فيديو صورته قناة الجزيرة:

جزء لا بأس به من شريط الجزيرة يُظهر الكرات النارية المتوهجة فوق الطرف الغربي لمدينة البصرة ويبيّن انفجارات القذائف الآتية نحو المدينة - والتي يفترض أنها بريطانية المصدر. إنّ المشاهد القصيرة للجنود البريطانيين القتلى، التي عرضت علناً والتي وصفها رئيس الوزراء توني بلير بأنها مرعبة، تختلف قليلاً فقط عن العشرات من المشاهد المماثلة للجنود العراقيين القتلى الذين عرضت صورهم على شاشات التلفزة البريطانية على مدى السنوات الـ 12 الماضية، وهي الصور التي لم تستخرج من فم بلير أية تعابير إدانة...

الأكثر فظاعة بكثير من صور الجنود البريطانيين القتلى، على أية حال، هو الشريط المصور في أكبر مستشفيات البصرة حين وصل ضحايا القصف الأنجلو-أميريكي إلى غرف العمليات وهم يصرخون ألماً. رجل في منتصف العمر نُقل إلى المستشفى وهو في ثياب النوم، يغطيه الدم من رأسه إلى أخمص قدميه. طفلة صغيرة ربما كانت في الرابعة من عمرها حُمِلت إلى غرفة العمليات على عربة وهي تحنق في كومة أمعائها التي برزت من الجانب الأيسر من معدتها. صبّ طبيبٌ يرتدي لباساً أزرق اللون الماء على أحشاء الطفلة الصغيرة ثم لفّها بلطف بالضمادات قبل أن تبدأ العملية الجراحية...

المشاهد الفظيعة الأخرى تُظهر جسماً لطفلة صغيرة مقطوعة الرأس جزئياً، وشاحها الأحمر ما زال ملتقاً حول رقبتها. طفلة صغيرة أخرى ممددة على نقالة وقد اختفى دماغها وأذنها اليسرى. طفل ميت آخر برزت ساقاه. لم تكن هناك مؤشرات عما إذا كانت المدفعية الأمريكية أو البريطانية قد قتلت أولئك الأطفال. الأشرطة لم تُظهر إصابات بين العسكريين العراقيين.⁽³²⁾

في الصحافة الأمريكية، رُفضت بشكل متكرر تأكيدات «الجزيرة» على موضوعيتها واعتُبر ما تبثه دليلاً على تحيّزها الأيديولوجي. لكن التحيّز نفسه هو تعبير شخصي جداً. الصحفيون العرب سيخبرونك نفس ما يقوله الصحفيون الأمريكيون ردّاً على الشكاوى الماثلة المتعلقة بكونهم يقدمون ببساطة لمشاهديهم التغطية التي يريدونها أولئك المشاهدون، وأن أجهزة الإعلام الأمريكية متحيّزة وتداهن سياسياً. من المحتمل أن تكون الصور التي سيتذكرها أكثرية الأمريكيين عن الحرب هي صور إسقاط تمثال صدام حسين، إنقاذ أسرى الحرب الأمريكيين، والمشاهد البهيجة لعودة الجنود إلى الوطن واجتماع شملهم بذويهم. أما في العالم العربي، فإن الصور التي

ستحضر في الأذهان ستتضمن صورة الطفل العراقي الذي فقد ذراعيه وأغلب أفراد عائلته في إحدى الغارات بالصواريخ، صورة أفق بغداد وقد أضاءه القصف، إذلال أسرى الحرب العراقيين، وحشود المتظاهرين الغاضبين احتجاجاً على الحرب في الشوارع الأمريكية.

في المملكة العربية السعودية، شاهدت الكاتبة في صحيفة لوس أنجلوس تايمز كيم ميرفي تأثير تلك الصور عندما زارت في 5 أبريل/نيسان مدينة بريدة المحافظة. «الحرب في العراق تكسب متطوعين جديداً في كل يوم... وإذا لم يكن المئات من الشباب قد توجهوا إلى بغداد لمحاربة الأمريكيين، فذلك فقط لأنه ليست لديهم الوسائل المناسبة للوصول إلى هناك... وحينما تصل صور الحرب عبر المحطات التلفزيونية إلى جمهور عربي مضطرب جداً، عندئذٍ يمكن ملاحظة الشعور المتزايد بالغضب والإحباط».⁽³³⁾

إذا كنا فعلاً قد حققنا «تحولاً في مدّة» الحرب على الإرهاب، كما أعلن الرئيس بوش في خطابه على متن حاملة الطائرات، فينبغي أن نتوقع أن أحداً لن يتمكن من تجنيد متطوعين جدد ليكونوا جنوداً مقاتلين واستشهاديين. والحقيقة أن استمرار وجود من يحض على كراهية ومقاتلة الأمريكيين ينبئ بأن الوعود بالنصر لم تنضج بعد. لكن من المهم أيضاً أن ندرك أن أصوات التطرف والكراهية ليست هي الأصوات الوحيدة المرتفعة في العالم الإسلامي. خذ، على سبيل المثال، النصيحة التي قدمها الأمير المغربي مولاي هشام بن عبد الله. «أنا صديق أمريكا»، قال الأمير. «لقد استفدت بطرق عديدة من اتصالي بهذه الأمة الرفيعة، ولقد أتيت لمعرفة واحترام شعبها وقيمها الراسخة».⁽³⁴⁾ في الواقع، تعلّم الأمير وعاش في الولايات المتحدة. وهو معروف في المغرب كداعية للإصلاح، ولم يتردد في انتقاد عائلته المالكة دفاعاً عن الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم الإسلامي.

«الغالبية العظمى من المسلمين لا تشارك في الرؤية التكتيكية أو

الإستراتيجية، أو التفسير الإسلامي الذي روجت له التيارات الأصولية الجهادية الجديدة»، قال هشام في حديث له في جامعة برنستون في أيلول (سبتمبر) 2002. «أكثرية المسلمين تريد العيش بسلام وكرامة إلى جانب جيرانهم من كلّ المعتقدات». وأضاف، «على أية حال:

يجب أن نقرّ بأنّ بن لادن وأعماله استحوذا على مخيلة، وحتى تعاطف، ما نسمّيه «الشارع» في العالمين العربي والإسلامي. والسبب في ذلك يعود جزئياً إلى أن بن لادن نفسه صاحب حضور ساحر على الشاشة والحديث بالعربية، ويبدو كسيد الحدث الإعلامي... يجب أن نعترف، أيضاً، بأن... العديد من الحركات الديمقراطية ومنظمات المجتمع المدني التقدّمية التي تعمل بمنتهى الشجاعة في كافة أنحاء العالمين العربي والإسلامي لم تكن فعّالة في إطلاق المقولات المقنعة والمتماسكة التي تعبر عن الهموم الجماعية...

لسوء الحظ... من الصعب تفادي المفهوم السائد بأن الولايات المتّحدة تستخدم «الحرب على الإرهاب» كفرصة لإطلاق نوع من المشروع الإمبريالي الجديد، وأن البعض في الولايات المتّحدة لن يحزنه الانخراط في «صراع حضارات» مع الحركات الجهادية العنيفة، ومع أي طرف آخر في العالم الإسلامي غير خاضع بما فيه الكفاية لإرادتهم. في العالم الإسلامي، يبدو أن ذلك يساعد فقط على تأييد رؤية الحركات الجهادية العالمية، ويقوّي خطابها على حساب الأصوات الأكثر اعتدالاً - بما في ذلك الحركات الأصولية المعتدلة.

ربما يعتقد بعض الإستراتيجيين الأمريكيين بأنه سيكون من السهل الآن التغلّب على هؤلاء «المحرّكين الإسلاميين» بالقوة العسكرية وحدها. لكن بدون استراتيجية سياسية ودبلوماسية، وخاصة أيديولوجية، متطورة - استراتيجية تستطيع أن تميّز وتعزل الحركات الجهادية الجديدة عن العالم الإسلامي عموماً - فإن أيّ هجوم عسكري سيثير ويعمّق فقط

الاستقطاب بين أمريكا والعالم الإسلامي. وسيؤدي ذلك إلى اندلاع الثورات في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وستجد الأوساط الديمقراطية صعوبة أكبر في تعبئة الناس، وستزداد احتمالات اندلاع النزاعات الدموية الطويلة - سواء عبر أشكال الإرهاب الفردي أو عبر الحروب بين الدول».⁽³⁵⁾

من المستحيل، بالطبع، على أي شخص أن يتوقع ما إذا كانت المقاومة الجريئة التي مارستها إدارة بوش في العراق قد نجحت أم سيكون هناك، كما حذر الرئيس المصري حسني مبارك في ذروة الحرب، 100 بن لادن آخر.⁽³⁶⁾ لكن في أعقاب هذا النزاع، يجب علينا أن نسأل أنفسنا عما إذا كنا قد أخطأنا بتصديق دعايتنا الخاصة، وما إذا كنا قد خضنا الحرب على الإرهاب ضد الأعداء الخطأ، في الأماكن الخطأ، وبالأسلحة الخطأ.

هوامش

ما لم تتم الإشارة إلى ذلك بشكل خاص، فإن عناوين الإنترنت الواردة أدناه قد تمت زيارتها بين 31 مارس/أذار و 28 مايو/أيار 2003.

مقدمة : يوم التحرير

1. Matthew Gilbert and Suzanne C. Ryan, "Snap Judgments," *Boston Globe*, April 10, 2003, <http://www.boston.com/news/Packages/iraq/globe_stories/041003_snap_judgements.htm>.
2. Ibid.
3. "Pentagon Gets PR Bulls-Eye," *O'Dwyer's PR Daily*, April 11, 2003, <<http://www.odwyerpr.com/members/0411pentagon.htm>>.
4. "War in Iraq: Photo Gallery," *Boston Globe*, April 9, 2003, <<http://www.Boston.com/news/packages/iraq/galleries/Statue/0la.htm>>.
5. "In Pictures: Saddam Toppled," BBC News, April 9 and 18, 2003, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/in_depth/photo_gallery/2933629.stm> and <http://news.bbc.co.uk/1/hi/in_depth/photo_gallery/2959955.stm>.
6. John Daniszewski, "War with Iraq: A Day to Remember," *Los Angeles*

Times, April 10, 2003.

7. John W. Rendon, presentation to the Olin Foundation, Information and National Security Conference, United States Air Force Academy, Colorado Springs, Colo., February 29, 1996, <<http://www.rendon.com/docs/airforce.html>>, (December 19, 1996); available on Internet Archive, <<http://web.archive.org/web/19970103193930/www.rendon.com/docs/airforce.html>>.
8. Ibid.
9. "Air Force Intelligence and Security Doctrine: Psychological Operations (PSYOP)," Air Force Instruction 10-702, Secretary of the Air Force, July 19, 1994, <<http://www.fas.org/irp/doddir/usaf/10-702.htm>>.
10. "America's Image Further Erodes, Europeans Want Weaker Ties," Pew Research Center for the People and the Press, March 18, 2003, <<http://people-press.org/reports/display.php3?ReportID=175>>.
11. Anwar Iqbal, "Pro-US Shiite Cleric 'Assassinated,'" United Press International, <<http://www.upi.com/view.cfm?StoryID=20030410-110013-5707r>>.
12. "At Least 10 Dead as US Troops in Firefight in Northern Iraq," Agence France Presse, April 15, 2003, <<http://www.afp.com/english/newsml/stories/030415154828.ljmb3zd.html>>. See also Jefferson Morley, "Nasiriyah Conference Greeted with Suspicion, Satisfaction," *Washington Post*, April 16, 2003, <<http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A37446-2003Apr16.html>>.
13. Tony Karon, "Wanted: Iraqis to Run Iraq," *Time*, April 15, 2003, <<http://www.time.com/time/world/printout/0,8816,443918,00.html>>.
14. Christopher Dickey and Mark Hosenball, "Banker, Schmoozer, Spy," *Newsweek*, May 12, 2003, <<http://www.msnbc.com/news/909076.asp?0cv=KB10>>.

1. تسويق الصنف الأمريكي

1. George W. Bush, press conference (transcript), Federal News Service, October 11, 2001.
2. "The Role of Public Diplomacy in Support of the Anti-terrorism Campaign," hearing before the Committee on International Relations, U.S. House of Representatives, 107th Congress, First Session, October 10, 2001, Serial No. 107-47, U.S. Government Printing Office, <http://www.house.gov/international_relations/107/75634.pdf>.
3. Ibid.

4.

تم تمرير عدد من القوانين، ابتداء من «تعديل جيليت» على قانون «لجنة التجارة بين الولايات الصادر عام 1913»، والذي يمنع استعمال الأموال الحكومية لأغراض مثل «الدعاية والإعلان» أو «العلاقات عامة». عملياً، هذا لم يمنع الأجهزة الحكومية من الانخراط في أعمال العلاقات العامة، لكن المصطلحات الأخرى هي المفضلة، مثل «المعلومات العامة»، أو «الشؤون العامة»، أو «العلاقات الاجتماعية». وقد أظهرت دراسة نشرها في أواسط الثمانينات المكتب الاتحادي للإدارة والميزانية أن أكثر من 5000 شخص عيّنوا كأخصائيي معلومات اتحاديين، بالإضافة إلى ما يقدر بخمسة إلى سبعة أضعاف ذلك العدد يعملون في وظائف «الشؤون العامة». انظر مايكل تيرني، «العلاقات العامة الحكومية».

<<http://www.nku.edu/-turney/prclass/govt.htm>>.

5. Henry Hyde and James Sasser, "Speaking to our Silent Allies: the Role of Public Diplomacy in U.S. Foreign Policy" (transcript), Council on Foreign Relations, June 17, 2002, <<http://www.eff.org/publication.php?id=4627>>.
Freedom Promotion Act of 2002 (HR 3969), House International Relations Committee,
<<http://www.house.gov/international-relations/107/freedom.htm>>.
6. "War on Terror Is 'Greatest PR Challenge of Generation,'" *Holmes Report*, November 19, 2001,
<http://www.holmesreport.com/holmestemp/story.cfin?edit_id=1565&typeid=2>.
7. Ibid.
8. Carla Anne Robbins, "Spin Control," *Wall Street Journal*, October 4, 2001, p. A1.
9. Ibid.
10. Peter Carlson, "The U.S.A. Account," *Washington Post*, December 31, 2001, p. C1, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A43213-2001-Dec30>>.
11. Michael R. Gordon, "A Nation Challenged," *New York Times*, November 6, 2001, p. A1.
12. Ira Teinowitz, "U.S. Considers Advertising on Al Jazeera TV," *Advertising Age*, October 5, 2001, <<http://www.adage.com/news.cms?newsId=33163>>.
13. Rance Crain, "Charlotte Beers and the Selling of America," *Advertising Age*, November 5, 2001, <<http://www.adage.com/news.cms?newsId=33340>>.
14. "Winning Hearts and Minds," PBS, November 1, 2001,
<<http://www.pbs.org/newshour/bb/media/july-dec01/hearts-minds-11-1a.html>>.

15. Ralph Dannheisser, "Beers, Legislators Say Public Diplomacy Vital in Fight on Terror," U.S. Department of State, October 10, 2001, <<http://usinfo.state.gov/topical/pol/terror/01101014.htm>>.
16. Amol Sharma, "U.S. Hones in on Propaganda War," Earth Times, October 13, 2001, <http://www.earthtimes.org/oct/mediaushomesinonoct13_01.htm> June 2, 2002.
17. Joyce Battle, ed., "U.S. Propaganda in the Middle East--the Early Cold War Version," National Security Archive Electronic Briefing Book No. 78, December 13, 2002, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/essay.htm>>.
18. Department of State telegram from Tehran to U.S. Secretary of State, May 2, 1952, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/Propaganda%20061.pdf>>.
19. "Notes on Expanded Program for Iran," memorandum from American Embassy, Tehran, to U.S. Department of State, January 12, 1951, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/propaganda%20016.pdf>>.
20. "Motion Pictures: The Film TWO CITIES," memorandum from American Embassy, Tehran, to U.S. Department of State, January 18, 1950, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/propaganda%20004.pdf>>.
21. "Collective Security--Your Defense" (script), included in Foreign Service Dispatch from American Embassy, Baghdad, to U.S. Department of State, May 16, 1952, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/propaganda%20062.pdf>>.
22. "Anti-Communist Poster Material Prepared by USIS Baghdad," memorandum from American Embassy, Baghdad, to U.S. Department of State, March 10, 1951, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/propaganda%20021.pdf>>.
23. "Proposed Pamphlet Program," from American Embassy, Jidda, to U.S. Department of State, January 8, 1952, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/propaganda%20046.pdf>>.
24. Telegraph from U.S. Embassy, Jidda, to U.S. Secretary of State, September 7, 1952, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/Propaganda%20072.pdf>>.
25. "Samples of Anti-Communist Propaganda," Foreign Service Dispatch from American Embassy, Baghdad, to joint State/USIA, March 16, 1954, <<http://>>

- www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/propaganda%20120.pdf>.
26. "Anti-Communist Campaign of Iraq Government," Foreign Service Dispatch from American Embassy, Baghdad, to Joint State/USIA, January 13, 1954, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB78/Propaganda%20118.pdf>>.
 27. John F. Devlin, *The Bath Party* (Stanford: Hoover Institution Press, 1976), pp. 108-9, 194; cited in Battle, "U.S. Propaganda in the Middle East--the Early Cold War Version."
 28. James Risen, "Secrets of History: The CIA in Iran," *New York Times*, April 16, 2000, <<http://www.nytimes.com.library/world/mideast/041600iran-ciaindex.html>>.
 29. Kenneth R. Timmerman, *Fanning the Flames: Guns, Greed & Geopolitics in the Gulf War*, chapter 5, <http://www.iran.org/tib/krt/fanning_ch_5.htm>.
 30. Martin Ennals, Secretary General of Amnesty International, cited in Matchbox, newsletter of Amnesty International USA, Autumn 1976.
 31. Michael Dobbs, "U.S. Had Key Role in Iraq Buildup," *Washington Post*, December 30, 2002, p. A1.
 32. Joyce Battle, ed., "Shaking Hands with Saddam Hussein: The U.S. Tilts toward Iraq, 1980-1984," National Security Archive Electronic Briefing Book No. 82, February 25, 2003, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB82/index.htm>>.
 33. Dobbs, op. cit.
 34. Jonathan T. Howe, "Iraq Use of Chemical Weapons," memorandum to the U.S. Secretary of State, November 1, 1983, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB82/iraq24.pdf>>.
 35. "Talking Points for Amb. [Ambassador] Rumsfeld's Meeting with Tariq Aziz and Saddam Hussein," United States Interests Section in Iraq Cable from William L. Eagleton, Jr., to the United States Embassy in Jordan, December 14, 1983, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB82/iraq29.pdf>>.
 36. "Iraq's Use of Chemical Weapons," press statement by United States Department of State, March 5, 1984, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB82/iraq43.pdf>>.
 37. Ibid.
 38. Quoted in Seth Ackerman, "The *Washington Post*'s Gas Attack," FAIR/Extra!, September/October 2002, <<http://www.fair.org/extra/0209/iraq-gas.html>>.

39. Bruce W. Jentleson, *With Friends Like These: Reagan, Bush, and Saddam, 1982-1990* (New York: W. W. Norton, 1994), p. 78.
 40. Peter W. Galbraith, "The Wild Card in a Post-Saddam Iraq," *Boston Globe Magazine*, December 15, 2002, <<http://www.boston.com/globe/magazine/2002/1215/coverstory.htm>>.
 41. Douglas Frantz and Murray Waas, "Bush Secret Effort Helped Iraq Build Its War Machine," *Los Angeles Times*, February 23, 1992, p. A1.
 42. Philip Shenon, "Iraq Links Germs for Weapons to U.S. and France," *New York Times*, March 16, 2003, <<http://www.nytimes.com/2003/03/16/national/16BIO.html>>.
 43. Transcript for U.S. Senate Armed Services Committee Hearing, September 19, 2002, <http://byrd.senate.gov/byrd_issues/byrd_Iraqi_bioweapons/byrd_armsve_sept19/byrd_armed_svc_sept19.html>.
 44. Secretary Rumsfeld's CNN Interview (transcript), September 21, 2002, <http://www.defenselink.mil/news/Sep2002/tO9212002_t921cnn.html>.
 45. Detailed notes of Rumsfeld's meeting with Saddam Hussein show no mention of chemical weapons. See "Rumsfeld Mission: December 20 Meeting with Iraqi President Saddam Hussein," telegraph from American Embassy, London, to U.S. Secretary of State, December 21, 1983, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB82/iraq31.pdf>>.
- رمسفيل ذكر الأسلحة الكيميائية باختصار شديد في اجتماع منفصل مع وزير الخارجية العراقي طارق عزيز، لكن تعليقاته تلك لا يمكن اعتبارها تحذيراً. على العكس من ذلك، أعلن رمسفيل بأن الولايات المتحدة والعراق لديهما «قواسم مشتركة أكثر من الاختلافات»، وعبر عن الأمنيات في عدم خسارة العراق في الحرب مع إيران، وقال «بأن جهودنا للمساعدة تعرقلها بعض المسائل التي جعلت الأمور صعبة بالنسبة لنا»، وذكر على سبيل المثال استخدام الأسلحة الكيميائية، التصعيد المحتمل في الخليج، وحقوق الإنسان. أنظر «اجتماع رمسفيل المنفرد بنائب رئيس الوزراء ووزير خارجية العراقي طارق عزيز»، برقية من السفارة الأمريكية في لندن إلى وزير الخارجية الأمريكي، 21 ديسمبر/كانون الأول 1983 <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB82/iraq32.pdf>>.
46. Ira Teinowitz, "Charlotte Beers and the Selling of America," *Advertising Age*, September 23, 2002, <<http://www.adage.com/news.ems?newsId=36106>>.
 47. Tony Karon, "The War for Muslim Hearts and Minds," *Time*, November 6, 2001, <<http://www.unix.oit.umass.edu/~commdept/resources/gulfwar.html>>.
 48. Ibid.

49. Margaret Carlson, "Can Charlotte Beers Sell Uncle Sam?" *Time*, November 14, 2001,
<<http://www.time.com/time/columnist/carlson/article/0,9565,184536,00.html>>.
50. Peter Carlson, op. cit.
51. Margaret Carlson, op. cit.; *NewsHour* with Jim Lehrer (transcript), February 18, 2002,
<<http://www.pbs.org/newshour/bb/media/jan-june02/public2-18.html>>.
52. Charlotte Beers and Richard Boucher at the Foreign Press Center (transcript), November 9, 2001, U.S. Department of State,
<<http://usinfo.state.gov/usa/islam/t111401.htm>>.
53. Anna Kuchment, "Selling the USA," *Newsweek*, November 26, 2001, p. 66.
54. "The Battle for Hearts and Minds," *Economist*, November 9 2001, <http://www.economist.com/agenda/displayStory.cfm?story_id=861388>.
55. Neil MacFarquhar, "Many Arabs Say Bush Misreads Their History and Goals," *New York Times*, January 31, 2002,
<<http://www.nytimes.com/2002/01/31/international/middleeast/31ARAB.html>>.
56. Ibid.
57. Ibid.
58. Charlotte Beers, "Funding for Public Diplomacy," statement before the Subcommittee on Commerce, Justice, and State of the House Appropriations Committee, Washington, D.C., April 24, 2002,
<<http://www.state.gov/r/us/9778.htm>>.
59. Jane Perlez, "Muslim-As-Apple-Pie Videos Are Greeted with Skepticism," *New York Times*, October 30, 2002, <<http://www.nytimes.com/2002/10/30/international/asia/30INDO.html>>.
60. Dan Murphy, "U.S. Ads Miss Mark, Muslims Say," *Christian Science Monitor*, January 7, 2003,
<<http://www.csmonitor.com/2003/0107/P06s01-woap.html>>.
61. Lynette Clemetson and Nazila Fathi, "U.S.'s Powerful Weapon in Iran: TV," *New York Times*, December 7, 2002.
62. Felicity Barringer, "U.S. Messages to Arab Youth, Wrapped in Song," *New York Times*, June 17, 2002,
<<http://www.nytimes.com/2002/06/17/international/middleeast/17RADI.html>>.
63. Michael Z. Wise, "U.S. Writers Do Cultural Battle Around the Globe," *New*

- York Times*, December 7, 2002, <<http://www.nytimes.com/2002/12/07/arts/07WRIT.html>>.
64. Charlotte Beers, "Public Diplomacy After September 11" Remarks to the National Press Club, December 18, 2002, <<http://www.state.gov/r/us/16269.htm>>.
 65. Mark O'Keefe, "State Department Draws Fire in Effort to Promote Muslim Life in U.S.," Newhouse News Service, May 14, 2002, <<http://www.newhouse.com/archive/story1b051402.html>>.
 66. Council of American Muslims for Understanding (website), <<http://www.opendialogue.com>>.
 67. Naomi Klein, "America Is Not a Hamburger," *Guardian* (UK), March 14, 2002, <<http://www.guardian.co.uk/Archive/Article/0,4273,4373814,00.html>>.
 68. Murphy, op. cit.
 69. Beers, "Public Diplomacy After September 11."
 70. "U.S. Propaganda Pitch Halted," CBS News, January 16, 2003, <<http://www.cbsnews.com/stories/2003/01/16/world/main536756.shtml>>.
 71. Colin L. Powell, "Departure of Charlotte Beers, Under Secretary for Public Diplomacy and Public Affairs" (news release), March 3, 2003, <<http://www.state.gov/secretary/rm/2003/18129.htm>>.
 72. Kevin McCauley, "Saddam, PR Genius," *O'Dwyer's PR Daily*, February 26, 2003, <http://www.odwyerpr.com/members/archived_stories_2003/february/0226saddam.htm>.
 73. Carl Weiser, "How to Sell America to People Who Hate It," Gannett News Service, October 14, 2001, <http://www.prfirms.org/resources/news/sellhate_101401.asp>.
 74. William Douglas, "Bush Relies on Advertising Experts to Win Over Muslims," *Sydney Morning Herald*, October 25, 2001, <<http://old.smh.com.au/news/0110/25/world/world10.html>>.

2. الحرب تجارة

1. Elisabeth Bumiller, "Bush Aides Set Strategy to Sell Policy on Iraq," *New York Times*, September 7, 2002, p. A1.
2. Karen DeYoung, "Bush to Create Formal Office to Shape U.S. Image Abroad," *Washington Post*, July 30, 2002, p. A1, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A18822-2002Jul29>>.

3. Tim Reid, "America Plans PR Blitz on Saddam," *Times* (UK), September 17, 2002, <<http://www.timesonline.co.uk/article/0,,3-4181 10,00.html>>.
4. Martha Brant, "Ladies and Gentlemen ... the Band: Selling the War in Iraq," *Newsweek*, September 18, 2002, <<http://www.msnbc.com/news/809682.asp>>, (September 18, 2002).
5. Douglas Quenqua, "Pentagon Seeks PR Advice Before Diplomatic Attempt," *PR Week*, August 26, 2002, <<http://www.prweek.com/news/newsstory.cfm?ID=156288&site=3>>.
6. Eli J. Lake, "US Pushes PR for War with Iraq," United Press International, August 20, 2002, <<http://www.upi.com/view.cfm?StoryID=20020820-0509081065r>>.
7. Douglas Quenqua, "Bush's Calculated Pursuit of Validation Has Its Costs," *PR Week*, September 16, 2002.
8. Ibid.
9. Alison Mitchell and Adam Nagourney, "G.O.P. Gains from War Talk but Does Not Talk About It," *New York Times*, September 21, 2002, <<http://www.nytimes.com/2002/09/21/politics/21REPU.html>>.
10. Arthur E. Rowse, "Flacking for the Emir," *Progressive*, May 1991, p. 22.
11. "Showdown With Saddam," ABC News, February 7, 1998, <<http://more.abcnews.go.com/sections/world/cia/cia.html>>.
12. Stephen J. Hedges, "U.S. Pays PR Guru to Make Its Points," *Chicago Tribune*, May 12, 2002.
13. Mark Atkinson, "Propagandist for Hire," and "The CIA's Secret War in Iraq," ABC News, February 7, 1998, <<http://more.abcnews.go.com/sections/world/cia/rendon.html>> and <<http://more.abcnews.go.com/sections/world/cia/plot.htm>>.
14. Robert Dreyfuss, "Tinker, Banker, NeoCon, Spy," *American Prospect*, vol. 13, issue 21, November 18, 2002, <<http://www.prospect.org/print-friendly/print/V13/21/dreyfuss-r.html>>.
15. Ibid,
16. Stephen Fidler and Roula Khalaf, "Ahmad Chalabi Divides Opinion Within the Opposition Movement and Among Those in Washington Planning Regime Change," *Financial Times* (London), December 13, 2002, p. 19.
17. Ibid.
18. Michael Dobbs, "Old Strategy on Iraq Sparks New Debate," *Washington Post*, December 27, 2001, p. A1.
19. Fidler and Khalaf, op. cit.

20. Robin Wright, "Aid: Support for the Iraqi National Congress Has Waned Amid the Group's Missteps on Funding and Recruiting," *Los Angeles Times*, March 20, 2001.
21. "About PNAC" and Letter to U.S. President William J. Clinton, Project for the New American Century, January 26, 1998,
<<http://www.newamericancentury.org/aboutpnac.htm>> and
<<http://www.newamericancentury.org/iraqclintonletter.htm>>.
22. Foreign Agents Registration Act (FARA) filing for Iraq, Second Semi-Annual Report for 2000, U.S. Department of Justice,
<<http://www.usdoj.gov/criminal/fara/fara2nd00/COUNTRY/IRAQ.HTM>>.
23. "US Options in Confronting Iraq," hearing before the Committee on International Relations, House of Representatives, 105th Congress, Second Session, February 25, 1998, <<http://commdocs.house.gov/committees/intlrel1/hfa48782.000/hfa487820.HTM>>.
24. Letter to U.S. President George W. Bush, Project for the New American Century, September 20, 2001,
<<http://www.newamericancentury.org/Bushletter.htm>>.
25. Warren P. Strobel and Jonathan S. Landay, "Pentagon Hires Public Relations Firm to Reverse Opposition in Islamic World," *Knight Ridder*, October 17, 2001, <<http://www.prfrms.org/resources/news/pentagon101901.asp>>.
26. James Dao and Eric Schmitt, "Pentagon Readies Efforts to Sway Sentiment Abroad," *New York Times*, February 18, 2002,
<<http://www.nytimes.com/2002/02/19/international/19PENT.html>>.
27. Lou Morano, "Propaganda: Remember the Kuwaiti Babies?" *United Press International*, February 26, 2002,
<<http://www.propagandacritic.com/articles/examples.osi.html>>.
28. Colin James, "Moran's Secret Crusade Against the Tyranny of Saddam," *Adelaide Advertiser* (Australia), April 5, 2003,
<<http://www.theadvertiser.news.com.au/printpage/0,5942,6239116,00.html>>.
29. Seymour Hersh, "Annals of National Security: The Debate Within," *New Yorker*, March 11, 2002,
<http://www.newyorker.com/fact/content/7020311fa_FACT>.
30. Ibid.
31. "Who Will Control Iraq's Oil in Future?" *Intelligence Online*, September 27, 2002.
32. Robert Dreyfuss, "The Pentagon Muzzles the CIA," *American Prospect*, vol. 13, issue 22, December 16, 2002,

- <<http://www.prospect.org/print-friendly/print/V13/22/dreyfuss-r.html>>.
33. Ibid.
 34. "CLI Confirms Iraqi Declaration 'Clearly Non-Compliant'" (news release), U.S. Newswire, December 19, 2002. See also "CLI Affiliations," <<http://www.endthewar.org/whoisc1i3.html>>; website for the Project for the New American Century, <<http://www.newamericancentury.org>>; and website for the American Enterprise Institute, <<http://www.aei.org>>.
 35. Mission Statement, Committee for the Liberation of Iraq, <<http://www.liberationiraq.org>>.
 36. "Group Formed to Promote Freedom in Iraq" (news release), Committee for the Liberation of Iraq, <http://www.liberationiraq.org/press_releases/archives/00000001.htm>.
 37. Biography of Randy Scheunemann, Project on Transitional Democracies (website), <<http://www.projecttransitionaldemocracy.org/html/bios/scheunemann.htm>>.
 38. Peter Slevin, "New Group Aims to Drum Up Backing for Ouster," *Washington Post*, November 4, 2002, p. A15, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A64233-2002Nov3>>.
 39. Eric Schmitt, "New Group Will Lobby for Change in Iraqi Rule," *New York Times*, November 15, 2002, <<http://www.nytimes.com/2002/11/15/international/middleeast/15HAWK.html>>.
 40. Douglas Quenqua, "Opinion Leaders Unite to Shift Saddam Focus in US," *PR Week*, November 25, 2002, <<http://www.prweek.com/news/newsstory.cfm&ID=156687&site=3>>.
 41. Douglas Quenqua, "US Training Iraqis in Media to Raise Support for Attack," *PR Week*, September 2, 2002, <<http://www.prweek.com/news/news.cfm&ID=156687&site=3>>.
 42. Robin Wright, "United States to Train Iraqis in Rhetoric Against Hussein," *Los Angeles Times*, August 25, 2002.
 43. Quenqua, "US Training Iraqis in Media to Raise Support for Attack."
 44. Muhammed Eshaiker, interview with *On the Media*, National Public Radio, August 30, 2002.
 45. "Target: Iraq" (transcript), NBC News, March 21, 2003.
 46. On May 21, 2002, Rev. Moon gave a speech at the 20th anniversary of the founding of the *Washington Times*, discussing its role within his "family" of media projects, which now includes United Press International. See "Freedom, Family and Faith: The Role of the Media in the 21st Century," on

- the Unification Church website at
<<http://www.unification.net/2002/2002052111.html>>.
47. Lawrence E. Walsh, "Final Report of the Independent Counsel for Iran/Contra Matters," August 4, 1993,
<<http://www.fas.org/irp/offdoes/walsh/>>; see also Michael Ledeen, *Perilous Statecraft: An Insider's Account of the Iran-Contra Affair* (New York: Scribner, 1988).
48. Richard Pipes and Laurie Mylroie, "Back Iraq: It's Time for a U.S. Tilt," *New Republic*, April 27, 1987.
49. Joe Hagan, "She's Richard Perle's Oyster," *New York Observer*, April 7, 2003, <<http://www.observer.com/pages/frontpage3.asp>>.
50. Brian Whitaker, "US Thinktanks Give Lessons in Foreign Policy," *Guardian* (UK), August 19, 2002,
<<http://www.guardian.co.uk/elsewhere/journalist/story/0,7792,777100,00.html>>.
51. U.S. Committee for a Free Lebanon (website),
<<http://www.freelebanon.org>>; "A Petition Demanding War Against Governments that Sponsor Terrorism,"
<<http://www.petitiononline.com/CAAT/petition.html>>.
52. Hagan, *op. cit.*
53. Thom Shanker, "A Nation at War; Vanguard; Iraqi Fighters, Hussein Foes, Are Flown into the South," *New York Times*, April 7, 2003, p. A7.
54. *Ibid.*
55. Sudarsan Raghavan, "Iraq's Fresh 'Freedom Fighters' a Mix of West, East, Young, Old," *San Jose Mercury News*, April 17, 2003,
<http://www.bayarea.com/mld/mercurynews/news/special_packages/iraq/5653822.htm>.
56. John Kifner and Craig S. Smith, "Iraqis March, Want U.S. Out Pronto," *New York Times*, April 19, 2003,
<http://www.nwanews.com/adg/story_National.php?storyid=27629>.
57. David Ignatius, "Bush's Confusion, Baghdad's Mess," *Washington Post*, April 23, 2003, p. A35,
<<http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A18344-2003Apr22.html>>.
58. David Rohde, "Political Party in Mosul Emerges with Own Army," *New York Times*, April 18, 2003,
<<http://www.nytimes.com/2003/04/18/international/worldspecial/18NORT.html>>.
59. Stanley Reed, "In Baghdad, Guns, Chaos ... Enterprise," *BusinessWeek*, May

2, 2003.

60. Carol Morello, "'Nucleus' of Iraqi Leaders Emerges," *Washington Post*, May 6, 2003, p. A1,
<<http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A17929-2003May5.html>>.

3. أكاذيب حقيقية

1. U.S. Department of Defense news briefing (transcript), September 25, 2001, <<http://www.fas.org/sgp/news/2001/09/dod092501.html>>.
2. James Dao and Eric Schmitt, "Pentagon Readies Effort to Sway Opinion Abroad," *New York Times*, February 19, 2002, <<http://www.nytimes.com/2002/02/19/international/19PENT.html>>.
3. Eric Schmitt, "Pentagon May Eliminate New Office of Influence," *New York Times*, February 19, 2002, <<http://www.nytimes.com/2002/02/25/Politics/25CND-MILI.html>>.
4. Secretary Rumsfeld Media Availability En Route to Chile (transcript), November 18, 2002, <<http://www.defenselink.mil/news/Nov2002/t11212002t1118sd2.html>>.
5. *Information Operations*, Air Force Doctrine Document 2-5, August 5, 1998, i-ii, viii, 4-5, 11, 13, <<http://www.cadre.maxwell.af.mil/warfarestudies/iwac/AFDocs/afdd2-5.pdf>>.
6. "Citizens for Free Kuwait Files with FARA After a Nine-month Lag," *O'Dwyer's FARA Report*, Vol. 1, No. 9, October 1991, p. 2.
7. Ibid.
8. Arthur E. Rowse, "Flacking for the Emir," *Progressive*, May 1991, pp. 21-22.
9. *O'Dwyer's PR Services Report*, Vol. 5, No. 1, January 1991, p. 1.
10. John MacArthur, *The Second Front: Censorship and Propaganda in the Gulf War*, (Berkeley, Calif.: University of California Press, 1992), p. 58.
11. Ibid.
12. "Iraq/Occupied Kuwait: Human Rights Violations Since August 2, 1990," Amnesty International, December 19, 1990, p. 66.
13. MacArthur, op. cit., p. 84.
14. "Fitz-Pegado Works for Cayman Islands," *O'Dwyer's PR Daily*, May 28, 2002, <http://www.odwyerpr.com/members/archived_2002/may/0528pegado.htm>. For a more detailed account of Hill & Knowlton's PR work for Kuwait, see John Stauber and Sheldon Rampton, *Toxic Sludge Is Good for You!*

- (Monroe, Maine: Common Courage Press, 1995), pp. 167-75.
15. ABC World News Tonight, March 15, 1991.
 16. Robert L. Jackson, "Former U.S. Envoy, Two Others Charged in Gulf War Scheme," *Los Angeles Times*, July 8, 1992, p. A1.
 17. Michael Ross, "Doubts Cast on Girl's Account of Iraqi Atrocities in Kuwait," *Los Angeles Times*, January 7, 1992, p. A8.
 18. Aziz Abu-Hamad, "Focus on Proven Abuses;" letter to the editor, *Washington Post*, April 4, 1993, p. C6.
 19. MacArthur, op. cit., pp. 51-53.
 20. Joost R. Hiltermann, "America Didn't Seem to Mind Poison Gas," *International Herald Tribune*, January 17, 2003, <<http://www.iht.com/articles/83625.html>>.
 21. "Activism Update: HBO Adds Disclaimer to Gulf War Movie," Fairness and Accuracy in Media, January 3, 2003, <<http://www.fair.org/activism/hboincubators-update.html>>.
 22. Tom Shales, "'Live From Baghdad': The Cameras of War," *Washington Post*, December 7, 2002, p. C1, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn?pagename=article&node=&contentid=A21263-2002Dec6>>.
 23. "Americans Thinking About Iraq, But Focused on the Economy," Midterm Election Preview, Pew Research Center for the People and the Press, October 10, 2002, <<http://people-press.org/reports/display.php3?ReportID=162>>.
 24. Martin Merzer, "Poll: Majority Oppose Unilateral Action Against Iraq," *Miami Herald*, January 12, 2003, <<http://www.miami.com/mld/Miamiherald/4911975.htm>>.
 25. "Genocide in Iraq: The Anfal Campaign Against the Kurds," Human Rights Watch, July 1993, <<http://www.hrw.org/reports/1993/iraqanfal/>>.
 26. "Fact Sheet: Iraq's Nuclear Weapon Programme," International Atomic Energy Agency, December 27, 2002, <<http://www.iaea.org/worldatom/Programmes/ActionTeam/nwp2.html>>.
 27. "Iraq: The UNSCOM Experience," Stockholm International Peace Research Institute, October 1998, <<http://editors.sipri.se/pubs/Factsheet/unscom.html>>.
 28. "Spying on Saddam," interview with Barton Gellman, PBS, April 27, 1999, <<http://www.pbs.org/wgbh/Pages/frondine/shows/unscom/interviews/gellman.html>>.
 29. Ibid.
 30. John Barry, "The Defector's Secrets," *Newsweek*, March 3, 2003.

31. General Hussein Kamel, transcript of meeting with Prof. M. Zifferero (IAEA) and Nikita Smidovich (UNSCOM) in Amman, Jordan, August 22, 1995, pp. 12-13, <<http://www.fair.org/press-releases/katnel.pdf>>.
32. Scott Ritter, "Is Iraq a True Threat to the US?" *Boston Globe*, July 20, 2002, <<http://www.commondreams.org/views02/0721-02.htm>>.
33. Joseph Curl, "Agency Disavows Report on Iraq Arms," *Washington Times*, September 27, 2002, <<http://www.washtimes.com/national/20020927500715.htm>>.
34. Ibid.
35. George W. Bush, "President's Remarks at the United Nations General Assembly," September 12, 2002, <<http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/09/20020912-1.html>>.
36. Joby Warrick, "U.S. Claim on Nuclear Weapon Program Is Called into Question," *Washington Post*, January 24, 2003, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn?pagename=article&node=&contentId=A3 5360-2003 jan23>>.
37. Dana Milbank, "For Bush, Facts Are Malleable," *Washington Post*, October 22, 2002.
38. "President Bush Outlines Iraqi Threat," remarks by the President on Iraq, Cincinnati Museum Center - Cincinnati Union Terminal, Cincinnati, Ohio, October 7, 2002, <<http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/10/200210078.html>>.
39. Ibid.
40. Kamel interview, p. 5.
41. Luis Charbormeau, "U.N. Official: Fake Iraq Nuke Papers Were Crude," Reuters, March 25, 2003, <<http://asia.reuters.com/newsArticle.jhtml?type=topNews&storyID=2444571>>.
42. Henry Waxman, letter to President George W. Bush, March 17, 2003, <<http://www.fas.org/irp/news/2003/03/waxman.pdf>>.
43. *Face the Nation*, CBS News, October 20, 2002, <<http://www.ebsnews.com/stories/2002/10/21/ftn/main526319.shtml>>.
44. George J. Tenet, letter to Bob Graham, Congressional Record, October 9, 2002, p. S10154, <<http://www.fas.org/irp/news/2002/10/dei100702.html>>.
45. Dafna Linzer, "Banned Missiles Fired at U.S. Troops," *San Francisco Examiner*, March 21, 2003, <<http://examiner.com/headlines/default.asp?story=n.missiles.0321w>>.
46. Paul Richter, "War with Iraq; Military Strategy; Revamped Patriot System

- Downs 2 Missiles Aimed at US Forces," *Los Angeles Times*, March 21, 2003.
47. Deb Riechmann, "Dark Iraq War Scenarios Haven't Happened," *NewsJournal* (Longview, Texas), April 11, 2003,
<http://www.news-journal.com/news/content/news/ap_story.html/Int1/AP.V4462.AP-War-Worst-Hasn.html>.
48. David Pugliese, "Scud Missiles Remain Thorn for US Forces," *Windsor Star* (Canada), March 21, 2003, p. A8.
49. "The War in Iraq by the Numbers," *Edmonton Journal*, April 14, 2003, p. A4.
50. Chris Hedges and Donald G. McNeil, Jr., "New Clue Fails to Explain Iraq Role in Sept. 11 Attack," *New York Times*, December 16, 2001,
<<http://www.nytimes.com/2001/12/16/international/middleeast/16IRAQ.html>>.
51. Walter Pincus, "No Link Between Hijacker, Iraq Found, U.S. Says," *Washington Post*, May 1, 2002, p. A9.
52. James Risen, "Prague Discounts an Iraqi Meeting," *New York Times*, October 21, 2002,
<<http://www.nytimes.com/2002/10/21/international/21PRAG.html>>.
53. Wolfowitz Interview with the *San Francisco Chronicle* (transcript), U.S. Department of Defense, February 23, 2002,
<http://www.defenselink.mil/news/Feb2002/t02272002_t0223sf.html>.
54. Bob Drogin and Paul Richter, "White House Backs Report of Link between Iraq, Sept. 11 Suspect," *Los Angeles Times*, August 2, 2002,
<<http://www.kansascity.com/mld/kansascity/news/local/3782550.htm>>.
55. Bob Drogin, Paul Richter and Doyle McManus, "White House Says Sept. 11 Skyjacker Had Met Iraqi Agent," *Los Angeles Times*, August 5, 2002.
56. Gary Leupp, "Perle's Bombshell in Milan," *Outlook India*, September 10, 2002,
<<http://www.outlookindia.com/full.asp?fname=gary&fodname=20020911&sid=1>>.
57. *Meet the Press* (transcript), September 8, 2002,
<<http://www.mtholyoke.edu/acad/intrel/bush/meet.htm>>.
58. Andrea Mitchell, "The Iraq and al-Qaida Connection," NBC News, October 31, 2002, <<http://www.msnbc.com/news/824024.asp>>.
59. "Iraq-Its Infrastructure of Concealment, Deception and Intimidation," Office of British Prime Minister Tony Blair, January 2003,
<<http://www.number-10.gov.uk/files/pdf/Iraq.pdf>>.
60. Colin Powell, "Remarks to the United Nations Security Council," February 5,

- 2003, <<http://www.state.gov/secretary/rm/2003/17300.htm>>.
61. Ibrahim al-Marashi, "Iraq's Security and Intelligence Network: A Guide and Analysis," *Middle East Review of International Affairs*, vol. 6, no. 3, September 2002, <<http://mcria.ide.ac.il/journal/2002/issue3/jv6n3a1.html>>.
62. Michael White and Brian Whitaker, "UK War Dossier a Sham, Say Experts," *Guardian* (UK), February 7, 2003, <<http://www.guardian.co.uk/Iraq/Story/0,2763,890916,00.html>>.
63. Rosemary Bennett and Elaine Monaghan, "Iraq Dossier Assembled by Junior Aides," *Times Online* (UK), February 8, 2003, <<http://www.timesonline.co.uk/article/0,,2-570248,00.html>>.
64. Gary Gibbon, "No. 10 Admits Dossier Blunder," *Channel 4 News* (UK), February 7, 2003, <http://www.channel4.com/news/2003/02/week_1/07dossier.html>.
65. Gaby Hinsliff, Martin Bright, Peter Beaumont and Ed Vulliamy, "First Casualties in the Propaganda Firefight," *Observer* (UK), February 9, 2003, <<http://www.observer.co.uk/iraq/story/0,12239,892145,00.html>>. The material plagiarized from *Jane's Intelligence Review* included Ken Gause, "Can the Iraqi Security Apparatus Save Saddam?" November 2002, pp. 8-13; and Sean Boyne, "Inside Iraq's Security Network," which appeared in two parts in July 1997 and August 1997.
66. Glenn Frankel, "Blair Acknowledges Flaws in Iraq Dossier," *Washington Post*, February 8, 2003, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A42276-2003Feb7>>.
67. "Britain's Intelligence Crisis," *Jane's Intelligence Digest*, February 14, 2003, <http://www.janes.com/regional_news/europe/news/jid/jid030214_1_n.shtml>.
68. "Leaked Report Rejects Iraqi Al-Qaeda Link," *BBC*, February 5, 2003, <<http://news.bbc.co.uk/2/hi/uknews/2727471.stm>>. See also Raymond Whitaker, "M16 and the CIA: The Enemy Within," *New Zealand Herald*, February 9, 2003, <<http://www.nzherald.co.nz/storydisplay.cfm?storyID=3100174>>.
69. Luke Harding, "Revealed: Truth Behind U.S. 'Poison Factory' Claim," *Observer* (UK), February 9, 2003, <<http://www.observer.co.uk/iraq/story/0,12239,892112,00.html>>.
70. Joseph Logan, "Islamic Kurds Accuse U.S. of Bombing Them by Mistake," *Reuters AlertNet*, March 26, 2003, <<http://www.alertnet.org/thenews/newsdesk/L02647211.htm>>.
71. "Patterns of Global Terrorism 2001," United States Department of State, May 2002, p. 65, <<http://www.state.gov/documents/organization/10319.pdf>>.

72. "Kurdish Rebels to End Armed Struggle," BBC News, August 5, 1999, <<http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/europe/412577.stm>>.
73. "Terrorist Financing," report of an independent task force sponsored by the Council on Foreign Relations, October 17, 2002, p. 8, <http://www.efr.org/pdf/Terrorist_Financing-TF.pdf>.
77. Michael Isikoff, "9-11 Hijackers: A Saudi Money Trail," *Newsweek*, November 22, 2002, <<http://www.msnbc.com/news/838867.asp>>.
78. "Saudi Envoy Rejects Terror Allegations," BBC, November 27, 2002, <<http://news.bbc.co.uk/2/hi/middleeast/2520005.stm>>.
79. Joel Mowbray, "Saudis Behaving Badly," *National Review*, December 20, 2002, <<http://www.nationalreview.com/mowbray/mowbray122002.asp>>.
80. "Has Someone Been Sitting on the FBI?" BBC Newsnight, November 6, 2001, <<http://news.bbc.co.uk/1/hi/events/newsnight/1645527.stm>>.
81. Jonathan Wells, Jack Meyers and Maggie Mulvihill, "U.S. Ties to Saudi Elite May Be Hurting War on Terrorism," *Boston Herald*, December 10, 2001, <http://www2.bostonherald.com/news/americas_new_war/saud12102001.htm>.
82. Matthew Levitt, "Combatting Terrorist Financing, Despite the Saudis," Washington Institute for Near East Policy, November 1, 2002, <<http://www.washingtoninstitute.org/watch/Policywatch/policywatch2002/673.htm>>.
83. "Criminal Intelligence Program: Link Between Al Qaeda and the Diamond Industry," Royal Canadian Mounted Police, July 25, 2002 (updated January 16, 2003), <http://www.rcmp-grc.gc.ca/crim_int/diamond_e.htm>.
84. "9/11 Families Take Groundbreaking Action to Expose Terrorist Financing Schemes, Cut Off Money Pipeline" (news release), August 15, 2002, <http://www.nmlrp.com/practiceareas/911_victims/911action-release_final8-1502.pdf>.
85. Ann McFeatters, "Lawsuit Seeks to Cripple Terrorists' Means to Strike," *Pittsburgh Post-Gazette*, August 16, 2002, <<http://www.post-gazette.com/nation/20020816suit0816p3.asp>>.
86. Wells, Meyers and Mulvihill, op. cit.
87. Maggie Mulvihill, Jack Meyers and Jonathan Wells, "Bush Advisers Cashed in on Saudi Gravy Train," *Boston Herald*, December 11, 2001, <http://www2.bostonherald.com/news/americas_new_war/saud12112001.htm>.
88. Ibid.

89. Melanie Warner, "The Big Guys Work for the Carlyle Group," *Fortune*, March 18, 2002, <<http://www.globalresearch.ca/articiesAVAR203A.html>>.
90. Leslie Wayne, "Elder Bush in Big GOP Cast Toiling for Top Equity Firm," *New York Times*, <<http://www.nytimes.com/2001/03/05/politics/05CARL.html>>.
91. Warner, op. cit.
92. "Carlyle Group Names First Communications VP," *Holmes Report*, November 19, 2001, <http://www.holmesreport.com/holmestemp/story.cfm?edit_id=1545&typeid=1>.
93. Jim Geraghty, "PR Consultant Claims Bin Laden's Family Contemplating Campaign," *States News Service*, September 26, 2001.
94. "Hullin Metz Works for Bin Ladens," *O'Dwyer's PR Daily*, November 9, 2001, <http://www.odwyerpr.com/members/archived_stories_2001/november/1109metz.htm>.
95. "Binladen Group May Turn to UK Consultancy," *Holmes Report*, November 26 2001, <<http://www.holmesreport.com/holmestemp/story.cfm?editid=1567&typeid=1>>.
96. "Saudi Arabia Hires B-M," *O'Dwyer's PR Daily*, October 5, 2001, <http://www.odwyerpr.com/members/archived_stories_2001/october/1005saudi.htm>.

4. الخطاب المزدوج

1. George Orwell, *A Collection of Essays* (Orlando: Harvest Books, 1970). See also "Politics and the English Language," <<http://www.ourcivilisation.com/decline/orwell1.htm>>.
2. George Orwell, *1984* (New York: Signet Classic, 1990). See also <<http://www.eng.buffalo.edu/smf7/1175/chapp.html>>.
3. George W. Bush, State of the Union Address, January 29, 2002, <<http://www.whitehouse.gov/news/releases/2002/01/20020129-11.html>>.
4. Andrew Marlatt, "Angered by Snubbing, Libya, China, Syria Form Axis of just As Evil," *SatireWire.com*, February 1, 2002, <<http://www.satirewire.com/news/jan02/axis.shtml>>.
5. Department of Defense news briefing (transcript), March 20, 2002, <<http://www.defenselink.mil/news/Mar2003/t03202003-t0320sd.html>>.
6. Glenn Kessler, "United States Puts a Spin on Coalition Numbers," *Washington Post*, March 21, 2003, p. A29,

- <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A1325-2003Mar20>>.
7. "Polls Show European Public Opposed to Iraq War," Reuters, January 30, 2003.
 8. William Lutz, *Doublespeak* (New York: HarperPerennial, 1990), pp. 7, 175.
 9. "Infinite Justice, Out-Enduring Freedom, In," BBC, September 25, 2001, <<http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/americas/1563722.stm>>.
 10. Paul Holmes, "Terminology of War Is Throwing Up a Smokescreen," *PR Week*, April 4, 2003, <http://www.prweek.com/news/news_story.cfm?ID=176363&site=3>.
 11. "Rebuilding America's Defenses: Strategy, Forces and Resources for a New American Century," Project for the New American Century, September 2000, pp. iv, v, 2, 4, 7, 14-16, 55, <<http://newamericancentury.org/RebuildingAmericasDefenses.pdf>>.
 12. Ibid.
 13. Harlan K. Ullman and James P. Wade, *Shock and Awe: Achieving Rapid Dominance* (NDU Press, October 1996), <<http://www.dodccrp.org/shockIndex.html>>.
 14. Mark J. Conversino, "Shock and Awe: Achieving Rapid Dominance" (book review), *Navy War College Review*, Summer 1998, <<http://www.nwe.navy.mil/press/Review/1998/summer/bkr2su98.htm>>.
 15. Orwell, "Politics and the English Language."
 16. Conversino, op. cit.
 17. "Iraq Faces Massive U.S. Missile Barrage," CBS News, January 24, 2003, <<http://www.cbsnews.com/stories/2003/01/24/eveningnews/main537928.shtml>>.
 18. Holmes, op. cit.
 19. "Language of War" (radio show transcript), America's Defense Monitor, Center for Defense Information, July 29, 1990, <<http://www.cdi.org/adm/345/transcript.html>>.
 20. Bob Kemper, "Agency Wages Media Baffle," *Chicago Tribune*, April 7, 2003.
 21. "Rumsfeld Warns of 'Marathon' Fight Against Terrorism," U.S. Department of State, September 20, 2001, <<http://usinfo.state.gov/topical/pol/terror/01092016.htm>>.
 22. George W. Bush, remarks following visit to wounded troops at Walter Reed Army Medical Center, Washington, D.C., and National Naval Medical Center, Bethesda, Maryland (transcript), April 11, 2003,

<<http://www.usembassy.ro/WF/500/eur502.htm>>.

5. استخدام الخوف

1. "Terrorism" (encyclopedia entry), Wikipedia.org, <<http://www.wikipedia.org/wiki/Terrorism>>.
2. "Terror Groups, Governments Use 24/7 News Cycle," *O'Dwyer's PR Daily*, February 12, 2003, <http://www.odwyerpr.com/members/archived_stories_2003/february/0213terror_rorism_media.htm>.
3. James E. Lukaszewski, "The Media and the Terrorist: A Dance of Death," *Executive Speeches*, June 1987 (Revised 1998), <<http://www.e911.com/speeches/mediaandterrorists.html>>.
4. Garth S. Jowett and Victoria O'Donnell, *Propaganda and Persuasion* (Thousand Oaks, Calif: Sage Publications, 1999), p. 42.
5. Ibid., p. 164.
6. Gustave Gilbert, *Nuremberg Diary* (New York: Farrar, Straus and Co., 1947), pp. 278-79.
7. Lary Coppola, "Hummer- the Ultimate 4-wheeler," *Kitsap Business Journal*, May 3, 2003, <<http://www.wetapple.com/behindthewheel/articles/2002-05-03-BTW-03.html>>.
8. Eric Margolis, "High Oil Prices: The Curse of Saddam," *Toronto Sun*, September 24, 2000, <<http://www.twf.org/News/Y2000/0925-OilPrice.html>>.
9. Keith Bradsher, "Was Freud a Minivan or SUV Kind of Guy?" *New York Times*, July 17, 2000.
10. Jay Rosen, "When Is a Car a Truck? If Uncle Sam Says So," *New York Times*, November 26, 2002.
11. Gregg Easterbrook, "Axle of Evil" (book review of High and Mighty), *New Republic*, January 16, 2003, <http://www.powells.com/review/2003_0116.html>.
12. Tony Karon, "You Are What You Drive," *Time*, July 17, 2000, <<http://www.time.com/time/search/article/0,8599,50060,00.html>>.
13. Stephanie Mencimer, "Bumper Mentality," *Washington Monthly*, December 2002, <<http://www.washingtonmonthly.com/features/2001/0212.mencimer.html>>. See also Myron Levin, "Study Questions Safety of SUVs," *Los Angeles Times*, February 18, 2003, <[221](http://www.latimes.com/business/la-fi-

</div>
<div data-bbox=)

- safety18feb18001440,1,2402829.story>; Ricardo Alonso-Zaldivar, "Automaker Data Say SUVs Are Riskier," *Los Angeles Times*, February 26, 2003, <<http://www.latimes.com/la-fi-suv26feb26001431.story>>.
14. Easterbrook, op. cit.
 15. Paul Wilborn, "Hummer Sales Plow Over Criticism of Gas Mileage, ViewBlocking Bulk," Associated Press/*Naples Daily News*, February 4, 2003, <<http://www.naptesnews.com/03/02/business/d890397a.htm>>.
 16. Phil Patton, "Here Come the Car Shrinks," *Fortune*, March 5, 2002, <<http://www.fortune.com/fortune/personalfortune/articles/0,15114,373444,00.html>>.
 17. Danny Hakim, "In Their Hummers, Right Beside Uncle Sam," *New York Times*, April 4, 2003, <<http://www.nytimes.com/2003/04/05/business/05AUTO.html>>.
 18. Ibid.
 19. Douglas Quenqua, "Guns or Butter?" *PR Week*, March 11, 2002, <<http://www.prweek.com/news/newsstory.cfm?ID=139666&site=3>>.
 20. "Senators to Push for Alaska Oil Drilling This Week," Reuters, April 11, 2002, <<http://www.planetark.org/dailynewsstory.cfm/newsid/15418/newsDate/11Apr2002/story.htm>>.
 21. Donald F. Kettl, "'West Wing' Fallout," *Governing Magazine*, June 2002, p. 12.
 22. William J. Kole, "Terrorism Haunts Nuke Delegates," Associated Press, September 17, 2001.
 23. "More Than Strong Fences" (advertisement), reproduced in *O'Dwyer's PR Daily*, January 30, 2002, <http://www.odwyerpr.com/members/archived_stories-2002/january/0130nei.htm>.
 24. Julie Hinds, "TV Spots Heating Up SUV Fight," Auto.com, January 9, 2003, <<http://www.auto.com/industry/nusuv9-20030109.htm>>. See also <<http://www.detroitproject.com>>.
 25. "PR Needed to Keep Consumers, Spending," *Jack O'Dwyer's Newsletter*, vol. 34, no. 38, September 26, 2001, p. 7.
 26. Chuck Kelly, "Spiritual Patriotism," *Star Tribune* (Minneapolis/St. Paul), November 18, 2001.
 27. President Bush: Job Ratings, *Newsweek* poll conducted by Princeton Survey Research Associates, summarized on PollingReport.com,

<<http://www.pollingreport.com/BushJob.htm>>.

28. Ibid.
29. Ron Faucheaux, "Ups, Downs of Presidential Popularity," *Campaigns & Elections*, February 1, 2002,
<<http://www.campaignline.com/commentary/index.cfm?id=70>>.
30. Ibid.
31. Angie Cannon, "Taking Liberties," *U.S. News & World Report*, May 12, 2003,
<<http://www.usnews.com/usnews/issue/030512/misc/12moussaoui.htm>>.
32. Deputy Secretary of Defense Paul Wolfowitz, interview with Thabet El Bardicy, Middle East Broadcasting Center, December 6, 2001,
<<http://www.defenselink.mil/news/Dec2001/t12102001-t1206mbc.html>>.
33. "'Islam is Peace' Says President," remarks at Islamic Center of Washington, D.C., September 17, 2001,
<<http://www.whitehouse.gov/news/releases/2001/09/20010917-11.html>>.
34. Ann Coulter, "This Is War," *National Review*, September 13, 2001,
<<http://www.nationalreview.com/coulter/coulter091301.shtml>>.
35. Jonah Goldberg, "L'Affaire Coulter," *National Review*, October 3, 2001,
<http://www.nationalreview.com/nr_comment/nr_comment100301.shtml>.
36. "U.S. Attack News," Markazdawa.org (website),
<<http://www.markazdawa.org/English/EVENTS/US/index.html>> (October 7, 2001).
37. "President Distances Himself From Comments About Islam," *Christian Times*, January 3, 2003,
<http://www.christiantimes.com/Articles/Articles%20Jan03/Art_Jan03_12.html>; "Nov. 11 Statement by Pat Robertson on The 700 Club" (news release), PatRobertson.com, November 14, 2003,
<<http://www.patrobertson.com/PressReleases/bushresponse2.asp>>.
38. *Religion and Ethics Newsweekly*, show #509 (transcript), PBS, November 2, 2001, <<http://www.pbs.org/wnet/religionandethics/transcripts/509.html>>.
39. Don Feder, "Why We Keep Getting Islam Wrong," speech to the Christian Coalition Symposium on Islam, February 15, 2003,
<<http://www.donfeder.com/filecabinet/02152003.txt>>.
40. Al Kamen, "Sticker Shock," *Washington Post*, January 31, 2003, p. A25,
<<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A3956-2003Jan30>>.
41. Jay Bookman, "Liberals, Report to Re-education," *Atlanta Journal-Constitution*, February 14, 2002,

<<http://www.accessatlanta.com/aic/opinion/bookman/2002/021402.html>>.

42. "McInnis Presses Forward With 'ELF' Subpoena" (news release), October 2, 2001, <<http://www.house.gov/mcinnis/Pr011002.htm>>.
43. Ben White, "Will the Environment Become a Casualty of the Terrorist Attacks?" *Grist*, September 15, 2001, <<http://www.gristmagazine.com/grist/muck/muck091501.asp?source=daily>>.
44. Mary Mostert, "Was It Osama Bin Laden or Is He Just a Minor Player?" Reagan Information Interchange, September 13, 2001, <<http://www.reagan.com/HotTopics.main/document-9.13.2001.8.html>> (September 21, 2001).
45. "War Against Eco-terrorists," *Washington Times*, October 7, 2001, <<http://www.washtimes.com/op-ed/2001100755556656.htm>>.
46. Tom Curry, "Saddam, Bin Laden Become Political Props," MSNBC, November 7, 2001, <<http://www.msnbc.com/news/654184.asp>>.
47. Dana Milbank, "A Double-Barrelled Attack on Daschle," *Washington Post*, November 9, 2001, p. A6, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A64965-2001Nov8>>.
48. William Bennett, open letter, "Week in Review" section, *New York Times*, March 10, 2002.
49. Dan Eggen and Dana Priest, "Bush Aides Seek to Contain Furor," *Washington Post*, May 17, 2002, p. A1, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A30219-2002May16>>. See also Philip Shenon, "FBI Knew for Years About Terror Pilot Training," *New York Times*, May 18, 2002, <<http://www.nytimes.com/2002/05/18/politics/18FLIG.html>>.
50. "Background: Hijack Warnings," *NewsHour*, PBS, May 17, 2002, <<http://www.pbs.org/newshour/bb/terrorism/1jan-june02/bkgddots-5-17.html>>.
51. The Beltway Boys, Fox News (transcript #051801cb.257), May 19, 2002.
52. Dan Balz, "Bush and GOP Defend White House Response," *Washington Post*, May 18, 2002, p. A1, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A35718-2002May17>>. See also Brendan Nyhan, "Axing the Tough Questions," Salon.com, May 21, 2002, <<http://www.spinsanity.org/columns/20020521.html>>.
53. Ellen Sorokin, "NEA Delivers History Lesson," *Washington Times*, August 19, 2002, <<http://www.washtimes.com/national/20020819-34549100.htm>>.
54. Oliver North, "Terrorism in the Classroom," *Washington Times*, August 25, 2002, <<http://www.washtimes.com/commentary/20020825-9252640.htm>>.

55. Lisa De Pasquale, "'Blame America First' Teaches Youth to Embrace Islam," *Washington Times*, September 8, 2002, <<http://www.cblpolicyinstitute.org/sept11ann.htm>>.
56. George F. Will, "The Feel-Good Approach to Sept. 11," *Washington Post*, August 25, 2002, p. B7, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A55511-2002Aug23>>. See also Brendan Nyhan, "The Big NEA-Sept. 11 Lie," *Salon.com*, September 5, 2002, <<http://www.spinsanity.org/columns/20020905.html>>; Bob Somerby, "Slime the Teachers Well!" *Daily Howler*, August 28, 2002, <<http://www.dailyhowler.com/dh082802.shtml>>.
57. "Surveillance Under the 'USA/Patriot' Act," American Civil Liberties Union, <<http://archive.aclu.org/issues/privacy/USAPA-surveillance.html>>.
58. "President Issues Military Order," Office of the Press Secretary, U.S. White House, November 13, 2001, <<http://www.whitehouse.gov/news/releases/2001/11/20011113-27.html>>.
59. "End-Running the Bill of Rights," *Washington Post*, November 16, 2001, p. A46.
60. "The Contras, Cocaine, and Covert Operations," National Security Archive Electronic Briefing Book No. 2, <<http://www.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB2/nsaebb2.htm#3>>. See also Arthur L. Liman, "Hostile Witness," *Washington Post Magazine*, August 16, 1998, <<http://www.washingtonpost.com/wp-srv/national/longterm/irancontra/contra1.htm>>.
61. Cynthia L. Webb, "The Pentagon's PR Play," *Washington Post*, May 21, 2003, <<http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A19272-2003May21.html>>.
62. "Freedom in 30 Seconds" (transcript), *On the Media*, July 5, 2002, <http://www.wnyc.org/onthemedial/transcripts_070502_freedom.html>.
63. "Attorney General Reno's FOIA Memorandum," U.S. Department of Justice, October 4, 1993, <http://www.usdoj.gov/oip/foia_updates/Vol_XIV3/page3.htm>.
64. "New Attorney General FOIA Memorandum Issued," U.S. Department of Justice, October 12, 2001, <<http://www.usdoj.gov/oip/foiapist/2001foiapist19.htm>>.
65. "Ashcroft Tells Agencies to Resist FOIA Releases," *Secrecy News*, Federation of American Scientists, October 17, 2001, <<http://www.fas.org/sgp/news/secrecy/2001/10/101701.html>>.

66. Jonathan H. Adler, "How the EPA Helps Terrorists," *National Review Online*, September 27, 2001, <<http://www.nationalreview.com/comment/comment-adlerprint092701.html>>
67. "Would You Want Detailed Information About Chemical Plants in Your Hometown Publicized?" Competitive Enterprise Institute, January 10, 2002, <<http://www.cei.org/gencon/003,02283.cfin>>.
68. Letter to Hon. Janet Reno, Working Group on Community Right-to-Know, August 14, 2000, <http://www.ehw.org/Chemical_Accidents/CHEM_RenoLtr.htm>.
69. "Access to Government Information Post September 11th," OMB Watch, February 1, 2002, <<http://www.ombwatch.org/article/articleview/213/1/1/>>.
70. "Responding to Chemical Attacks," from *Terrorism: Questions and Answers*, <<http://www.terrorismanswers.com/security/chemical.html>>.
71. "Seven Good Reasons to Stand Up for Information Freedom on Bioweapons Research," Sunshine Project USA, October 30, 2001, <<http://www.sunshine-project.org/publications/Pr30I001.html>> (June 5, 2002).
72. "Critique of the Codeword Compartment in the CIA" (intelligence monograph), Center for the Study of Intelligence, Central Intelligence Agency, March 1977, <<http://www.fas.org/sgp/othergov/codeword.html>>.
73. Eleanor Hill, Joint Inquiry Staff Statement, U.S. House and Senate Intelligence Committee joint hearing, October 17, 2002, <http://www.fas.org/irp/congress/2002_hr/101702hill.html>.

6. حرب الأثير

1. The Jeremy Glick who appeared on The O'Reilly Factor is the son of Barry Glick, a 51-year-old worker at Port Authority. He is not related to Jeremy Glick, the 31-year-old passenger of Flight 93 who is believed to have fought the hijackers and prevented them from crashing the plane into its intended target.
2. *The O'Reilly Factor*, February 4, 2003 (transcript #020404cb.256, available on the LexisNexis news database). See also <http://www.thismodemworld.com/weblog/mtarchives/week_2003_02_02.html>.
3. "Did Anyone just See O'Reilly Tear Into Jeremy Glick?" Free Republic.com, <<http://www.freerepublic.com/focus/news/836052/posts>>.
4. Bill O'Reilly, "Using Quasi-Prostitutes to Sell Sneakers," Fox News, February 25, 2003, <<http://www.foxnews.com/story/0,2933,79542,00.html>>.

5. Media Research Center, IRS Form 990, 2001, <<http://documents.guidestar.org/2001/541/429/2001-541429009-19.pdf>>; Fairness and Accuracy in Reporting, IRS Form 990 for fiscal year ending June 30, 2002, <<http://documents.guidestar.org/2002/133/392/2002-133392362-1-9.pdf>>.
6. Jim Rutenberg and Bill Carter, "Network Coverage a Target of Fire from Conservatives," *New York Times*, November 7, 2001, <<http://www.nytimes.com/2001/11/07/politics/07MEDI.html>>.
7. Press briefing by Ari Fleischer (transcript), White House Office of the Press Secretary, September 26, 2001, <<http://www.whitehouse.gov/news/releases/2001/09/20010926-5.html>>.
8. Testimony of Attorney General John Ashcroft, Senate Committee on the judiciary, December 6, 2001, <<http://www.justice.gov/ag/speeches/2001/1206transcriptsenatejudiciarycommittee.htm>>.
9. Dennis Pluchinsky, "They Heard It All Here, and That's the Trouble," *Washington Post*, June 16, 2002, p. B3, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A54650-2002Jun14>>.
10. Roy Greenlade, "Their Master's Voice," *Guardian* (UK), February 17, 2003, <<http://media.guardian.co.uk/iraqandthemedial/story/0,12823,897313,00.html>>.
11. "The *New York Post* Captures the Mood of the Extreme Right," *Global Beat*, Center for War, Peace and the News Media, New York University, February 17-24, 2003, <<http://www.nyu.edu/globalbeat/index021703.html>>.
12. Ciar Byrne, "Sun's French Stunt Called 'Disgusting,'" *Guardian* (UK), February 21, 2003, <<http://media.guardian.co.uk/iraqandthemedial/story/0,12823,900179,00.html>>.
13. Sam Keen, "To Create an Enemy" (poem), cited in "Healing the Enemy 2001" (sermon), preached at Grace North Church, Berkeley, Calif., January 21, 2001, <<http://www.apocryphile.net/homily/sermons/enemy01.html>>.
14. Bill Carter, "MSNBC Cancels Donahue," February 25, 2003, <<http://www.nytimes.com/2003/02/25/business/media/25CND-PHIL.html>>.
15. Rick Ellis, "Commentary: The Surrender of MSNBC," AllYourTV.com, February 25, 2003, <<http://www.allyourtvtv.com/0203season/news/02252003donahue.html>>.
16. "GE, Microsoft Bring Bigotry to Life," FAIR Action Alert, February 12, 2003, <<http://www.fair.org/activism/msnb-savage.html>>.

17. John Schwartz and Geraldine Fabrikant, "War Puts Radio Giant on the Defensive," *New York Times*, March 31, 2003, <<http://www.nytimes.com/2003/03/31/business/media/31RADI.html>>.
18. "Dixie Chicks' 'Top of the World Tour' a Great Success" (news release), Clear Channel Entertainment, Inc., March 7, 2003, <http://biz.yahoo.com/bw/030307/75279_1.html>.
19. "Djs Suspended for Playing Dixie Chicks," *Washington Post*, May 6, 2003, <<http://www.washingtonpost.com/wpdyn/articles/A19571-2003May6.html>>.
20. "Treatment of Dixie Chicks by Some Radio Stations Raises Troubling Issues," *Citizen Times* (Asheville, N.C.), May 2, 2003, <<http://cgi.citizen-times.com/cgi-bin/story/editorial/34115>>.
21. John Mainelli, "Tough Talkers," *New York Post*, March 21, 2003, <<http://www.nypost.com/entertainment/71400.htm>>.
22. Todd Gitlin, "The Pro-War Post," *American Prospect*, April 2003, p. 43,
23. Michael Getler, "Worth More Than a One-liner," *Washington Post*, October 6, 2002, p. B6, <<http://www.washingtonpost.com/ac2/wp-dyn/A457712002Oct4>>.
24. Ira Teinowitz, "Baffle Rages Over Anti-war TV Commercials," *Advertising Age*, February 24, 2003, <<http://www.adage.com/news.cms?newsId=37202>>.
25. Nat Ives, "MTV Refuses Antiwar Commercial," *New York Times*, March 13, 2003, <<http://www.nytimes.com/2003/03/13/business/media/13ADCO.html>>.
26. Claude Moisy, "The Foreign News Flow in the Information Age," Discussion Paper D-23, Joan Shorenstein Center on the Press, Politics and Public Policy, Harvard University, November 1996, p. 4, <http://www.ksg.harvard.edu/presspol/Publications/Pdfs/62062_D-23.pdf>.
27. Mark Fitzgerald, "TV Trowned Newspapers During Iraq War," Editor & Publisher, 'April 30, 2003, <http://www.editorandpublisher.com/editorandpublisher/headlines/article_display.asp?vnu_coritent_id=1876975>.
28. Ibid.
29. Josh Getlin, "All-News Channels Find Big Audience," *Los Angeles Times*, April 5, 2003, <<http://www.latimes.com/news/custom/timespoll/la-war-media5apr05,1,6903445.story?coll=la%2Dnews%2Dtimes%5Fpoll>>.
30. Eric Deggans, "Pride and Prejudice," *St. Petersburg Times*, April 25, 2003, <http://www.sptimes.com/2003/04/25/Floridian/Pride_and_prejudice.shtml>.

31. Allison Romano, "CNN Out-Foxed in War Coverage," *Broadcasting & Cable*, March 20, 2003,
<http://www.broadcastingcable.com/index.asp?layout=story_stocks&articleId=CA286394>.
32. Jim Rutenberg, "Cable's War Coverage Suggests a New 'Fox Effect' on Television," *New York Times*, April 16, 2003,
<<http://www.nytimes.com/2003/04/16/international/worldspecial/16FOX.html>>.
33. Moisy, op. cit.
34. Ibid.
35. Justin Lewis, Sut Jhally and Michael Morgan, "The Gulf War: A Study of the Media, Public Opinion and Public Knowledge," Centre for the Study of Communication, University of Massachusetts/Amherst, February 1991,
<<http://www-unix.oit.umass.edu/~commdept/resources/gulfwar.html>>.
36. Neil Cavuto, "American First, Journalist Second," Fox News, March 28, 2003, <<http://www.foxnews.com/story/0,2933,82504,00.html>>.
37. Chuck Barney, "Fox Offering More News Talk Than News," *Contra Costa Times*, April 10, 2003,
<http://www.bayarea.com/mld/cctimes/entertainment/columnists/chuck_barney/5601320.htm>.
38. Hardball with Chris Matthews, MSNBC, April 2, 2003 (transcript #040201cb.461).
39. Peter Johnson, "Media's War Footing Looks Solid," *USA Today*, February 17, 2003, p. 1D.
40. "Operation Iraqi Freedom" (transcript #032606cb.455), MSNBC, March 26, 2003.
41. "Press, freedom of the," *The Columbia Encyclopedia*, 6th ed. (New York: Columbia University Press, 2003),
<<http://www.bardeby.com/65/Pr/Press-fr.html>>.
42. "How the War Changed the Way Military Conflicts Are Reported," *University Times* (University of Pittsburgh), vol. 32, no. 21, June 22, 2000,
<<http://www.pitt.edu/utimes/issues/32/000622/15.html>>.
43. Daniel Hallin, "Vietnam on Television," *The Encyclopedia of Television*, Museum of Broadcast Communications,
<<http://www.museum.tv/archives/etv/V/htmlIV/vietnamonte/vietnamonte.htm>>.
44. Namrata Savoor, "Persian Gulf War Press Pool Worked Well in Some Ways," *Newseum.org*, July 16, 2001,

- <<http://www.newscum.org/warstories/exhibitinfo/newsstory.asp?DocumentID=14402>>.
45. Peter Turnley, "The Unseen Gulf War," World Association for Christian Communication,
<<http://www.wacc.org.uk/publications/action/250/unseenwar.html>>.
 46. Peter Johnson, "Who Won, and Who Lost, in the Media Baffle," *USA Today*, April 13, 2003,
<<http://www.usatoday.com/life/world/iraq/2003-04-13-mediainmix.htm>>.
 47. Robert Jensen, "The Military's Media," *Progressive*, May 20, 2003,
<<http://www.progressive.org/may03/jen0503.html>>.
 48. Douglas Quenqua, "Pentagon PA Staff Helping Out Embedded Reporters," *PR Week*, March 31, 2003,
<<http://www.prweek.com/news/newsstory.cfm?ID=175623&site=3>>.
 49. Douglas Holt, "Media Face Difficult Call on Reporters in War Zone," *Chicago Tribune*, March 12, 2003.
 50. "NBC, ABC Pull Reporters from Baghdad After Comments Indicating War," Associated Press, March 17, 2003,
<<http://www.bayarea.com/mld/mercurynews/entertainment/television/5414596.htm>>. See also Jim Rutenberg, "US News Organizations Tell Employees to Leave Baghdad," *New York Times*, March 19, 2003,
<<http://www.nytimes.com/2003/03/19/national/19MEDI.html>>.
 51. Alessandra Stanley, "After a Lengthy Buildup, an Anticlimactic Strike," *New York Times*, March 20, 2003,
<<http://www.nytimes.com/2003/03/20/international/worldspecial/20WATC.html>>.
 52. Jane Perlez with Jim Rutenberg, "U.S. Courts Network It Once Described as 'All Osama,'" *New York Times*, March 20, 2003,
<<http://www.nytimes.com/2003/03/20/international/worldspecial/20JAZE.html>>.
 53. Jensen, op. cit.
 54. Ibid.
 55. Howard Kurtz, "For Media After Iraq, a Case of Shell Shock," *Washington Post*, April 28, 2003, p. A1.
 56. David Folkenflik, "Fox News Defends Its 'Patriotic' Coverage," *Baltimore Sun*, April 2, 2003,
<<http://www.baltimoresun.com/entertainment/tv/bal-to.tvradio02apr02,0,6090522.column?coll=bal%2Dtv%2Dutility>>.
 57. Katie Delahaye Paine, "Army Intelligence," Measurement Standard, March

- 28, 2003,
<http://www.themeasurementstandard.com/issues/303/eng/painemilitary303.asp>.
58. Ariel Sabar, "Military Crews Capture Images from Front Line," *Baltimore Sun*, April 18, 2003,
<http://www.sunspot.net/news/local/annearundel/bal-ar.camera18apr18,0,164731.story?coll=bal-local-arundel>.
59. Ibid.

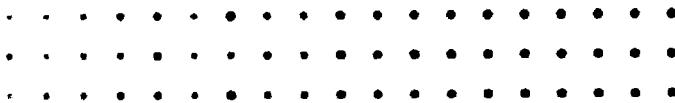
7. كما يرانا الآخرون

1. "President Bush Announces Combat Operations in Iraq Have Ended," White House Office of the Press Secretary, May 1, 2003,
<http://www.whitehouse.gov/news/releases/2003/05/iraq/20030501-15.html>
 See also Maura Reynolds and Anna R. Gorham, "After the War," *Los Angeles Times*, May 2, 2003.
2. William Douglas, "Bush's 'Great Image,'" *Newsday*, May 2, 2003, p. A6.
3. Ken Fireman, "Dems: Landing Cost \$1M," *Newsday*, May 8, 2003, p. A43.
4. Julie Mason, "Critics Cry, Comics Scoff at Bush's Carrier Rally," *Houston Chronicle*, May 8, 2003, p. A3.
5. Mike Allen, "Ship Carrying Bush Delayed Return," *Washington Post*, May 8, 2003, p. A29.
6. Scott Lindlaw, "Accommodating TV-friendly Presidential Visit Caused a Few Changes in Navy Carrier's Routine," *Associated Press*, May 2, 2003.
7. Douglas, op. cit.
8. Ibid.
9. Tom Shales, "Aboard the Lincoln, A White House Spectacular," *Washington Post*, May 2, 2003, p. C1, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A3823-2003May2.html>.
10. "President Bush Announces Combat Operations in Iraq Have Ended," op. cit.
11. Eric Boehlert, "Sanitized for Our Protection," *Salon.com*, April 11, 2003,
<http://www.salon.com/news/feature/2003/04/11/images/print.html>.
12. Lisa Marshall, "Boulder Man Operated on Recently Rescued POW in Germany," *Daily Camera* (Boulder, Colo.), April 5, 2003,
http://www.dailycamera.com/bdc/county_news/article/0,1713,BDC_2423_1866804,00.html.
13. Paul Holmes, "The Way the US is Viewing This War Will Have a Lasting Impact on How the World Views the US," *PR Week*, April 7, 2003.

14. "Cluster Bombs Are Indiscriminate and Morally Indefensible," letter by international relief agencies, Independent (UK), April 7, 2003.
15. Ibid.
16. Lindsey Hilsum, "Chaos and Denial in Baghdad," *Christian Science Monitor*, April 7, 2003, p. 1.
17. Anthony DePalma, "A Nation At War," *New York Times*, April 8, 2003, p. B1.
18. "US Military Sees No Indication Cluster Munitions Used in Hilla," Agence France Presse, April 2, 2003.
19. Ibid.
20. "Iraq: Civilians Under Fire," Amnesty International, March 8, 2003, <<http://web.amnesty.org/pages/iraq-engmde140712003>>.
21. "Numbers and Estimates from Iraq War," Associated Press, April 4, 2003.
22. Benny Evangelista, "Kevlar Saving Lives, Minimizing Wounds in Iraq," *San Francisco Chronicle*, April 7, 2003, p. E1.
23. Don Wycliff, "No Hiding the Deadly Face of War," *Chicago Tribune*, May 1, 2003, p.23.
24. Greg Miller, "Head of Joint Chiefs Defends Use of Cluster Bombs in Iraq," *Los Angeles Times*, April 26, 2003, p. 8.
25. Michael Weisskopf, "Civilian Deaths: the Bombs That Keep on Killing," *Time*, May 3, 2003, <<http://www.time.com/time/magazine/article/0,9171,1101030512-449440,00.html>>.
26. Miller, op. cit.
27. John Otis, "Arab Media Accused of War Bias," *Houston Chronicle*, April 5, 2003, p. A25.
28. Reed Hunt, "Television War vs. Television Peace," *Broadcasting & Cable*, April 14, 2003, <http://www.broadcastingcable.com/index.asp?layout=story_stocks&articleId=CA291889>.
29. Rami Khouri, "Not a Pretty Picture," Alternet.org, March 31, 2003, <<http://www.alternet.org/story.html?StoryID=15509>>.
30. "Al-Jazeera Tops Net Search Requests," Associated Press, April 1, 2003, <<http://www.msnbc.com/news/894112.asp>>.
31. Byron Acohido, "Hack Attack on Al-Jazeera Raises Questions," *USA Today*, March 30, 2003, <http://www.usatoday.com/tech/world/iraq/2003-03-30iraq-web_x.htm>.

32. Robert Fisk, "Raw, Painful, Devastating War," *Seattle Post-Intelligencer*, March 28, 2003, <http://seattlepi.nwsource.com/opinion/114604_fisk28.shtml>.
33. David Pallister, "Mystery Sheikh Fuels Saudi Jitters," *Guardian* (UK), December 15, 2001, <<http://www.guardian.co.uk/afghanistanb/story/0,1284,619191,00.html>>.
34. Moulay Hicham El Alaoui, "Prescription for Disaster," *Le Monde*, July 6, 2002.
35. Moulay Hicham El Alaoui, "Politics and Governance in Islam," talk given at Princeton University, September 2002. Full disclosure: Moulay Hicham and Sheldon Rampton were student acquaintances at Princeton University, and Rampton encountered the passages cited here while helping to develop the Prince's website (www.moulayhicham.net).
36. "Impressions of Holy War," ABC News, March 31, 2003, <<http://abcnews.go.com/sections/world/Primetime/iraq-crusade030331.html>>.

مكتبة مدار العربية
www.books4all.net



الفهرس

- أبراهام لينكولن، 144
أبو مصعب زرقاوي، 95
إتش بي أو، 79
أحمد الجلبي، 13، 47، 64
أحمد عمرون، 36
إد شين، 8
أدفرتايزنغ إيج، 18
إدوارد كينيدي، 169
أدولف هتلر، 134
أراب أميركان نيوز، 40
أراب نيوز، 108
أرشيف الأمن القومي، 20
أرناود دي بورشغريف، 60
أرنولد شوارزنيغر، 137
الإرهاب البيئي، 147
- الإرهاب الدولي، 104
الإرهاب كشكل من أشكال الدعاية، 131
الإرهابيين البيئيين، 147
أرون براون، 108
أري فليتشر، 102، 109، 165، 176
أريانا هوفينغتون، 141
إريك سورنسون، 164، 177
أريل سابار، 185
أسامة بن لادن، 30، 32-33،
أسامة سيلاني، 40
الأسكندر العظيم، 70
أسلحة الدمار الشامل، 81
أسلحة العراق الخفية، 91
الأسوشيتد برس، 172، 193

- أفغانستان، 34
الأكراد، 27
إكسون موبيل، 55
آل كابوني، 137
الاستير كامبيل، 97
ألكسندر إم هيغ الإين، 60
إلين سوروكين، 149
إلينا بينادور، 59
إلينور هيل، 158
إليوت أبرامز، 50
إم إس إن بي سي، 118، 164، 166، 171
إم تي في، 170
أمريكان بروسبيكت، 48
إن بي سي، 171
آن كولتر، 144-145-146
إنتلجنس أونلاين، 54
أندرو إتش. كارد الإين، 41
أندريا ميتشيل، 108
أودوير بي آر دايلي، 39، 107، 132، 141
أوغيلفي أند ماذير، 18
أوكسفام إنترناشيونال، 191
إي أم جنرال، 137
أي بي سي نيوز تونايت، 75، 171
أي بي سي، 167
أي تي في، 174
آية الله الخميني، 23
إيفو إتش. دالمر، 116
إيكونوميست، 32-33
اتحاد العلماء الأمريكيين، 154
اتحاد عائلات ضحايا 9/11 لتفليس
الإرهاب، 103
- اتحاد عمال الصلب والحديد في
أمريكا، 156
احتوت الشعارات على أعلام أمريكية
خفاقة، 178
الاطلاع الكلي على المعلومات، 152
انتزاع الأطفال الرضع من الحاضنات،
71
أحمد خليل إبراهيم سمير العاني، 92
بات روبرتسون، 146
باري ماكافري، 50
بالتيمور صن، 185
ببليشير ويكلي، 60
برنامج أبحاث القيادة والسيطرة، 122
بروس بي جاكسن، 51
بروك غلادستن، 153
بستر غلوسون، 50
بوب جراهام، 89
بوب دول، 57
بوب غارفيلد، 110
بوب كير، 57
بوب كيمبر، 126
بورسون - مارستيلير، 107
بوسطن غلوب، 9، 85
بوسطن هيرالد، 102-103
بول موران، 53
بول هولمز، 118، 124، 191
بول ولفوفيتز، 51-52، 54، 93
بولا زان، 108
بي آر ويك، 43، 118، 124
بي بي سي، 98
بي بي، 55
بيتر أرنت، 79
بيتر تورنلي، 181

- بيتز جينينغز، 47، 164
 بيتز سليفين، 57
 بيتز غالبرايت، 27
 بيل أورايلى، 108، 160، 164
 بيل بلانت، 108
 بيل كلينتون، 144
 بيل ماهر، 164
 بيل نيلي، 174
 بينادور وشركاه، 59
 التايمز اللندنية، 42
 التايمز، 53، 93، 164
 تايمس، 34
 التجديد الأمريكى، 148
 التجمّع من أجل أمريكا، 168
 تحالف الغير راغبين في تسميتهم، 117
 التحالف المسيحي في أمريكا، 146-147
 التحالف من أجل السلام والعدالة، 107
 التحالف، 115
 تدفق الأخبار الأجنبية في عصر المعلومات، 171
 تدمير الكثير من الأسلحة، 81
 تراجع الحريات المدنية، 144
 الترسانة المفترضة، 91
 ترينت لوت، 57، 148
 تشارلز كراوثرامز، 60
 تشارلز لويس، 104
 تشارلز هايمز، 97
 تشارلي بلاك، 43
 تشوك بارني، 174
 تشوك كيللي، 142
 تشويه الحقائق، 87
 التضليل، 68، 70
 تلفيق الأدلة على وجود صلة بين العراق والقاعدة، 96
 تنظيم القاعدة، 52، 103
 تود غيتلين، 169
 توري كلارك، 109
 توكر إيسكيو، 43
 توم بروكاو، 8
 توم داشيل، 148
 توم شالس، 189
 توم لانتوس، 15، 73
 تومي بوغز، 43
 تونكو فاراداراجان، 62
 توني بلير، 32، 97-98، 197
 تيد كوبييل، 108
 جاك بيرغن، 39
 جاك شيراك، 166
 جاك كيمب، 148
 جاك ليزلي، 16، 44
 جاك مايرز، 104
 جان أنويه، 82
 جانيت رينو، 154
 جاي غارنر، 66
 الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، 99
 الجماعات الإرهابية، 99
 جمعية التعليم الوطنية، 149
 الجنرال أنتوني، 49
 الجنرال بيتز بيس، 64
 الجنرال تومي فرانكس، 43، 109
 جو هاجان، 62
 جورج إتش. دبليو بوش، 25، 45، 104، 143
 جورج أودويل، 113، 123
 جورج تينيت، 42

- جورج دبليو بوش، 50، 52، 78، 95، 109، 129
- جورج شولتز، 25، 57
- جورج كارلن، 126
- جورج ويل، 150
- جوزف ليبرمان، 57
- جوست آر. هيلترمان، 77
- جون أشكروفت، 154، 165
- جون إف. كينيدي، 143
- جون باري، 83
- جون بورتر، 73
- جون بويندكستر، 152
- جون دانيوزيسكي، 9
- جون دبليو ريندون، 10، 11، 46
- جون دونوفان، 184
- جون كليرووتر، 91
- الصواريخ، 91
- جون لافين، 171
- جون مارتن، 75
- جون ماك آرثر، 73
- جون ميجر، 105
- جون هينكلي، 144
- جون هيوز، 25
- جون واكر ليند، 146
- جوناثان أدلر، 155
- جوناثان تي. هاو، 25
- جوناثان ويلز، 104
- جويس باتل، 20
- جويل ماوبري، 102
- جي. والتر تومسن، 18
- جيرالدو ريفيرا، 181
- جيرمي غليك، 160
- جيروld بوست، 132
- جيرري غرانت، 168
- جيسي فينتشورا، 179
- جيسيكا لينتش، 185، 190
- جيم أكسلرود، 183
- جيم كوكس، 108
- جيمس أي. بيكر الثالث، 105
- جيمس إي. لوكازيوسكي، 133-134
- جيمس بي. وايد، 122
- جيمس ولزي، 51
- جيمس ويلكنسن، 43
- جيمي غالاغير، 108
- جيمي كارتر، 22-23، 46
- جين إنتليجينس ريفيو، 97
- جين سكلارز، 53
- جين كيرباتريك، 51، 148
- جين لاروك، 186
- جيني بوللينز، 190
- جيني غاروفالو، 169
- حافظ الميرازي، 133
- حاملة الطائرات الأمريكية أبراهام لينكولن، 187
- الحرب الجوية ضدّ انحياز الإعلام الليبرالي، 164
- الحرب الكورية، 179
- الحرب اللا متماثلة، 128
- الحرب في أفغانستان، 17، 30، 52
- حرب فيتنام، 180
- حزب البعث، 100
- حزب العمال الكردستاني، 99
- حسني مبارك، 201
- حسين كامل، 83
- حلبجة، 77
- حوار مفتوح، 36

- الرأي العام العربي، 21
رامي خوري، 196
راندي شوينمان، 57
راوية إسماعيل، 35، 37
روب فرانكل، 39
روبرت دريفوس، 48، 55
روبرت فيسك، 197
روبرت كاغان، 51
روبرت كولير، 93
روبرت مردوخ، 50، 165
روبرت مولر، 92
رون فوشو، 143
رون موتلي، 103
رونالد ريفان، 23، 25، 27، 105، 144،
147، 189
رويتير، 193
ريتش غالين، 43
ريتشارد باوتشر، 43، 109
ريتشارد بيرل، 48، 51، 54، 95
ريتشارد رايد، 158
ريتشارد مايرز، 183، 195
ريد هنت، 195
ساكسبي شامبليس، 175
سام برنشتاين، 139
سام كين، 166
سان فرانسيسكو كرونيكل، 93
سايمون بي. ووردين، 68
ستار تريبيون، 142
ستيف إميرسن، 176
ستيف فوربز، 50
ستيفن غولدشتاين، 107
سعود ناصر الصباح، 75
سكوت ريتير، 85
- خضر حمزة، 88
الخطاب المزدوج، 117
الخليج، 44
دان بارتليت، 42، 149
دان بيرتن، 110
دان راثر، 134، 164
دان كوايل، 50
داني حكيم، 139
دانيال بايبس، 61، 146
دانيال هالين، 180
دبليو إم سي كوميونيكاشن، 107
الدعاة، 137
الدفاع الوقائي، 125
الدفاع عن حقوق الإنسان، 191، 195
الدكتور إبراهيم المراسي، 97
الدكتور محمد مطر، 75
الدكتورة فايضة يوسف، 75
دنيس بلوشنسكي، 165
دورية الشرق الأوسط للشؤون الدولية،
96
دون إيموس، 168
دون فيدر، 146
دون وايلكليف، 194
دون يونغ، 147
دونالد إتش. رمسفيلد، 25، 42-43، 67،
105، 109
ديفيد أسمان، 9
ديفيد بلوم، 184
ديفيد واين- مورغان، 107
ديك تشيني، 27، 42، 51، 83، 95، 104،
146، 149
ديكسي تشكس، 168
الديلي ستار، 196

- سكوت ماكإينيس، 147
 سكيرسي نيوز، 154
 سوزان رايان، 9
 سوزان سارانديوناكتورز، 169
 سي إن إن، 7، 171
 سي بي إس، 7، 123-124، 167، 171-170
 السيد بوش، 106
 سيسيليا بوهاند، 190
 سيمور هيرش، 53-54
 شارلوت بيرز، 18، 20، 30
 شاه إيران، 22
 شحن أنابيب الألنيوم، 88
 الشعبية، 142
 شهادة نيرة، 74
 شون بوين، 97
 شون بين، 169
 شيفرون تكساكو، 55، 104
 شيكاغو تريبيون، 126، 194
 شيلا تاي، 43
 صحيفة نايت ريدر، 80
 صدام حسين، 56، 198
 الصدمة والترويع، 91-92، 122
 الصلة بين العراق والقاعدة، 100
 صن تزو، 71
 صن مايونغ موون، 60
 صوت أمريكا، 19
 ضباب الحرب، 124
 طالبان، 32
 عاصفة الصحراء، 45
 عامل أورايلي، 160
 عبد الكريم قاسم، 47
 عزيز أبو حمد، 75
 عملية الحرية الدائمة، 118
 عملية العدالة المطلقة، 118
 عملية تحرير العراق، 10، 116
 عملية عاصفة الصحراء، 45، 77، 79، 137، 173، 181
 العميد فنسينت بروكس، 177، 193
 غارث جويت، 134
 غاري بي. بيتس، 28
 غانث نيوز سيرفس، 39
 غراهام جيمس، 170
 غريغ إيستبروك، 138
 غريغ بالاست، 102
 غريغ ميلير، 195
 غلين كيسلر، 116
 غوستاف جلبرت، 136
 غوغل، 197
 فاتسلاف هافل، 93
 فرانسينز بروك، 65
 فرانك أوكوفر، 181
 فرانك بوكلي، 187
 فرانك كارلوتشي، 51، 105
 فرانك موركوسكي، 140
 فرانكلين ديلانو روزفيلت، 143
 فرز المعلومات، 159
 فريد بارنز، 149
 فل دوناهيو، 166
 الفلسطينين، 34
 فنسنت كانيسترارو، 56
 فورتشن، 139
 فوكس نيوز، 9، 118، 147، 149، 160، 171، 178
 فيكتوريا ("توري") كلارك، 43
 فيكتوريا أودونيل، 134

- فيل دوسينبري، 153
 فيلاديلفيا إنكوايرر، 181
 قابل الصحافة، 95
 قانون الهواء النظيف، 155
 قانون الوطنية في الولايات المتحدة الأمريكية، 151
 قانون تسجيل وكلاء الأجانب، 111
 قانون حرية المعلومات، 154
 قصة عطا في براغ، 96
 قصف بلدة خورمال، 99
 قطر، 43
 القنابل العنقودية، 194
 قناة أبو ظبي، 195
 قناة الجزيرة، 183، 195
 القناة المفتوحة للاتصالات، 167
 كارل ويسير، 39
 كامبيل براون، 176
 كامولوس ميديا، 168
 الكاميرا المقاتلة، 185
 كاي تي ديلاهاي باين، 184
 كرايسلر، 137
 كريس اولمان، 107
 كريس ماثيوز، 108، 167
 كفاحي، 134
 كلوتاير رابايل، 137
 كلود مويسي، 171
 كورفيز كوميونيكاشن، 107
 كوريا الشمالية، 114
 كولن باول، 27، 30، 83، 88، 96، 109
 كولن كينغ، 192
 كونترا كوستا تايمز، 174
 الكويت، 34
 كيث برادشر، 137
 كيم ميرفي، 199
 كين بولاك، 36
 كين غوس، 97
 لائحة حقوق الإنسان، 151
 لاسي بيترسون، 173
 لايكوس، 197
 اللجنة الأمريكية لتحرير لبنان، 62
 اللجنة التنظيمية النووية، 156
 لجنة المتابعة السياسية للمحافظين، 146
 لجنة تحرير العراق، 56
 للجنة الاتحادية للاتصالات، 195-196
 لمياء علي، 194
 لورانس العرب، 47
 لوري ميلوري، 61
 لوس أنجلوس تايمز، 9، 58، 94، 171، 195، 199
 لوك هاردينغ، 98
 لوكهيد مارتن، 51
 لويس ليبني، 51
 ليث كبة، 48
 ليزلي واين، 106
 ليستر هولت، 179
 ليني ماكناي، 19
 المؤتمر التحضيري لحقوق الإنسان، 73
 المؤتمر الوطني العراقي، 47-48، 63، 65
 ماثيو جلبرت، 9
 ماثيو ليفيت، 103
 ماجي ملفهيل، 104
 مارتن شين، 169
 مارتن فرانكس، 170

- مارثا برانت، 42
 مارك جي. كونفرزينو، 123
 مارك غاوزديكي، 87
 مارك ناثانسون، 19
 ماري ماتالين، 43
 ماري موسترت، 147
 ماكس بووت، 60
 مالك حسن، 36
 مايك ماكوري، 189
 مايكل أي. ليدن، 60
 مايكل دوبيس، 24
 مايكل دوكاكيس، 46
 مايكل ديفير، 189
 مايكل سافاج، 167
 مايكل غيتلر، 169
 مباشر من بغداد، 79
 مجاهدي خلق، 99
 مجاهدي لشكر طيبة، 145
 مجلس أبحاث العائلة، 148
 مجلس الإعلان، 18، 153
 المجلس الدولي لاتحاد عمّال الصناعات الكيميائية، 156
 مجلس العلاقات الخارجية، 101
 مجلس العلاقات الخارجية، 157
 مجلس الكيمياء الأمريكي، 155-156
 المجلس الوطني لمكافحة المخدرات، 141
 مجموعة الدبلوماسية العامة من أجل العراق، 44
 مجموعة الدبلوماسية العامة من أجل العراق، 58
 مجموعة غالاغير، 108
 مجموعة كارليل، 104، 107
 محاولات الاغتيال، 132
 محمد أشيقر، 59
 محمد عبد الهادي، 33
 محمد عطا، 92
 محمد مصدق، 22
 المحمية الوطنية للحياة البرية، 140، 148
 محور الشر، 114
 محور، 115
 المخططون العسكريون، 118
 المدينة الإسلامية، 37
 مركز إدوارد آر. مورو، 19
 مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية، 59
 مركز السلامة العامة، 104
 مركز بيو للبحوث، 38
 المساعدة المسيحية، 191
 المسلمين ليسوا هم الأعداء، 144
 المشروع العالمي حول لجريمة المنظّمة، 60
 مشروع القرن الأمريكي الجديد، 49، 119
 مشروع ديترويت، 141
 مصر، 38
 معاداة الأمركة، 195
 معهد أمريكيان إنتربرايز، 56
 معهد الطاقة النووية، 140
 معهد المبادرة التنافسية، 155
 معهد هدسون، 59
 معهد هوفر، 59
 معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى، 59، 103
 المغرب، 34
 مفكرة نوريمبيرج، 136

- المكتب الأمريكي للإدارة والميزانية، 107
مكتب الاتصالات العالمية، 42
مكتب الاستعلامات المشترك في وزارة
الدفاع الأمريكية، 181
مكتب التأثير الاستراتيجي، 53
منتدى الشرق الأوسط، 59
المنتدى العراقي للديمقراطية، 59
منظمة العفو الدولية، 74، 191
مواطنون من أجل كويت حر، 72
مورين ليبّي، 142
مونیکا لوينسكي، 144
ميخائيل باكونين، 132
ميدل إيست ووتش، 75
ميلووكي جورنال سينتينيل، 181
ناتالي مينيس، 168
ناشيونال ريفيو، 102، 145، 155
نعومي كلاين، 37
نورمان بودهوريتز، 51
نيكسون، 143
نيو ريبيليكان، 61
نيوزويك، 13، 28، 42
نيويت جنجرش، 51
نيويورك أوبزرفر، 62
نيويورك بوست، 166
نيويورك تايمز، 9، 33، 35-36، 41، 45،
53، 57، 63، 92، 94، 111، 137، 164،
190
نيويورك، 53
هارلان كي. أولمان، 122
هاري ترومان، 143
هالبرتون، 104
هامر، 137
هاوارد كورتز، 172
- هنري هايد، 15
هنري هايد، 20
هنري واكسمان، 89
هولين ميز وشركاه، 107
هيرمان غورنغ، 136
هيل أند نولتون، 43، 75، 107-108،
182
هيومن رايتس ووتش، 77
واشنطن بوست، 8، 23، 26، 30، 42،
57، 116، 149، 152، 169، 189
واشنطن تايمز، 147، 149
والث ديزني، 21
واين داوونينج، 50
وجهة النظر العربية، 195
وزارة الدفاع الأمريكية، 180-181، 152
وزارة العدل الأمريكية، 156
وسم السياسة الخارجية بطابع خاص،
30
الوفاق الوطني العراقي، 48
الوكالة الأمريكية للحماية البيئية، 156
الوكالة الدولية للطاقة الذرية، 87
وكالة المخابرات المركزية، 151، 157
وليام بينيت، 50، 148
وليام سافير، 94
وليام كريستول، 49-50
وليام لوتز، 117
وليام ماكغورن، 110
ول ستريت جورنال، 17، 38، 60
ولف بلتزر، 187
يو أس توداي، 9، 176، 197
يوناييتد برس إنترناشيونال، 44

من مؤلفي كتاب ثقوا بنا، نحن خبراء! وكتاب الفضلات السامة مفيدة لك! هذا هو الكتاب الأول الذي يفضح حملة العلاقات العامة الشرسة التي استخدمت لتسويق الحرب على العراق لدى الجمهور الأمريكي.

أسلحة الخداع الشامل يكشف كيف:

- دعا كبار المسؤولين في إدارة بوش لاحتلال العراق حتى قبل أن يتولى بوش منصبه، لكنهم انتظروا حتى سبتمبر/أيلول 2002 لإعلام الجمهور بذلك، من خلال ما سماه البيت الأبيض «طرح المنتج».
- استخدم موظفو البيت الأبيض التكرار والتضليل لخلق الانطباع الخاطئ بأن العراق يقف خلف هجمات 9/11.
- كوّنت وبنت الوثائق المزورة والخداع الزعم بأن العراق يملك مخزوناً احتياطياً هائلاً من الأسلحة المحرمة.
- انخرطت وسائل الإعلام الأمريكية في الدعاية والرقابة الذاتية، وكررت دون تمحيص رسائل البيت الأبيض.
- أثرت عكسياً محاولات الإدارة لاستخدام تقنيات الإعلان التجاري لتلميع صورة أمريكا في البلدان الإسلامية.
- ساعدت شركة علاقات عامة تعمل لصالح وزارة الدفاع الأمريكية في خلق «المجموعة المعارضة» التي سُميت المؤتمر الوطني العراقي والذي أصبح إحدى القوى الضاغطة لاتخاذ القرار بشن الحرب.

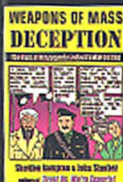
«لو كان الأمر بيدي لجعلت كل ناخب أمريكي يقرأ كتاب أسلحة الخداع الشامل، ولترجمته إلى العربية ووزعته مجاناً في كل بلد عربي، خصوصاً العراق، ولعل جامعة الدول العربية تفعل».

— جهاد الخازن، جريدة الحياة

«كتاب أسلحة الخداع الشامل يقول أن شركات العلاقات العامة التي تتعاقد مع الحكومة الأمريكية هي التي تدير جزءاً كبيراً من السياسة الأمريكية وأن هذه الشركات لعبت دوراً كبيراً في حرب أفغانستان وحرب العراق وحرب الإرهاب وأنها كانت تدير المعارضة العراقية في الخارج».

— جريدة الشرق الأوسط

جون ستوبر مؤسس ومدير مركز «الإعلام والديمقراطية». هو وشيلدون رامبتون يكتبان ويحرران النشرة الفصلية بي آر ووتش: تقرير المصلحة العامة حول صناعة العلاقات العامة/الشؤون العامة عام 2001 منح المجلس الوطني لمعلمي اللغة الإنجليزية رامبتون وستوبر جائزة جورج أورويل السنوية لفصحهما استخدام الخطاب المزجج في الحياة الأمريكية.



ISBN 9953-29-994-3



جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت

نيل وفرات كوم
www.neelwafurat.com

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers
www.asp.com.lb



ص. ب. 13-5574 شواران 2050-1102 بيروت - لبنان
هاتف: 785107/8 (+961-1) فاكس: 786230 (+961-1)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb